مذكرات معتقل سياسي

صفحة من تاريخ مصر

السيد يوسف

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٩

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الاشراف الفنى

محمـود الجـز

تقـــديم

يسرني أن أقدم للقارىء الكريم هذا الكتاب « مذكرات معتقل سياسى » للأستاذ السيد يوسف ، وهو صفحة من تاريخ مصر السياسى والاجتماعى ، من خلال تاريخ حياة معاصر وشاهد عيان، ومثقف يســـارى ، انحاز للفــكر للماركسى ، والتحم بالحركة الشيوعية ، وأيد ثورة ٢٣ يوليو ، ولكنها اعتقلته كما اعتقلت غيره من الشيوعيين .

وهذه المذكرات تسجل ظروف اعتقاله فى عام ١٩٥٣ ، ويسمى هذه الفترة « بالمرحلة الممتازة فى معاملة المعتقلين السياسيين فى السجون فى عهد ثورة يوليو » ، وتمتد الى فبراير عام ١٩٥٤ ، حين أفرجت عنه الثورة فى ظروف أزمة مارس ١٩٥٤ .

ولكن الثورة لا تلبث أن تعتقـــله مرة أخرى فى أكتوبر ١٩٥٤ ، بعد محاولة الاخوان المسلمين اغتيال عبد الناصر فى ميدان المنشية بالاسكندرية ، وتقوم بترحيله الى أوردى ليمان أبى زعبل ، ليخضع لممارسات التعذيب التى عرف بها عصر عبد الناصر ، ثم تفرج عنه الثورة بعد صدور دستور ١٩٥٦ وانتخاب عبد الناصر رئيسا للجمهورية فى ٢١ يونيو ١٩٥٦ .

وينتقل الأستاذ الســـيد يوسف لما اسماه « بمحنة الوحدة الوطنية » ، فيتحدث عن انقسامات الحركة الوطنية ، وتصاعد المد الوطنى والقومى فى سنوات ٥٦ ، ٥٧ وبداية ١٩٥٨ ودور الشيوعيين

فى الحركة الوطنية والاجتماعية ، والصـــدام بين الشـــيوعيين وعبد الناصر بعد قيـــام ثورة العراق ، وما أعقبها من اعتقالات رأس السنة وبداية السنة الجديدة فى عام ١٩٥٩ ، وصور التعذيب التى تعرض لها فى معتقل العزب بالفيوم ، ثم فى أوردى ليمان أبى زعبل ، واستشهاد الدكتور فريد حداد وشهدى عطية الشافعى، وما أعقب ذلك من النفى الى سجن المحاريق بالواحات فى ١٥ يوليو ١٩٦٠ ، ثم وقف التعذيب فى مجمع السجون بعد استشهاد شهدى عطية الشافعى ، مع استمرار الاعتقال !

وقد اعتمد الأستاذ السيد يوسف فى كتابة مذكراته على تجربته ومشـاهداته الشخصية ، وعدد من الدراســات والمذكرات الأخرى للمعتقـــلين الشـــيوعيين الذين زج بهم عبد الناصر فى معتقـــلاته ٠

ومن ثم فالكتاب يعد مصدرا تاريخيا من الدرجة الأولى يلقى الضوء على جوانب خفية من تاريخ مصر السياسى والاجتماعى قبل ثورة يوليو وفى عهدها ٠

وأملى أن يجد فيه الباحث والمثقف العادى ما ينشده من متعة وفائدة ٠

والله الموفق ٠

رئيس التحـــرير

د٠ عبـــد العظيـــم رمضـــان

مقدمة

هذه لمحات من ذكريات حياة ، ولقطات من مشاهد فترات مختلفة من العمر ، ليس الهدف منها سرد أحداثها بقدر ما هو عرض لتطور مظاهر الحياة ٠

فعن الحياة فى القرية ٠ أردت أن نعرف الكم الهائل للتطور الذى شهدته الحياة فى الريف المصرى فى عمر جيل واحد ٠٠ من الحياة البدائية الساذجة والبسيطة والخالية من كل الخدمات ، الى حياة مدنية شبه كاملة ٠ انقرض معها كثير من معالم الحياة القديمة ٠

لقد حلمت كما حلم الكثيرون غيرى ـ بالريف المنتج السعيد ، وبالقرية التى تتغلب على جهلها ومرضها وفقرها ٠ وتتجاوز ذلك الى أجيال أكثر علما وانتاجا وصحة تسكن فى مسكن حديث ، وتنظم الزراعة فى مساحات واسعة ٠ فتتغلب على مشكلات تفتيت الملكية من أجل انتاج أكثر كثافة ووفرة ٠

ولقد تحقق الكثير من هذه الأحلام فالكثرة الغالبة من القرى تتمتع الآن بالكهرباء والمياه النقية والصرف الصحى ورصف بعض الشوارع ، ووجود مكان للغالبية العظمى من الأطفال بالمدارس ، وتوفير قاعات للضيافة وللمناسبات المختلفة ، وتجهيز البيوت بالأجهزة الحديثة من راديو وتليفزيون وفيديو وثلاجة وغسالة ومكنسة ومراوح كهربائية وتليفون ٠٠ الخ ٠

ولقد حدث هذا التطور فى حياة الريف المصرى فى حوالى نصف قرن بسبب التطورات والمكتشفات العلمية والصناعات التكنولوجية التى عاشها العالم فى القرن العشرين وبسبب التطور الطبيعى فى حياة المجتمع المصرى ودور الثورة فى انجاز هذا التطور . **صاحب هذا التطور المادى تطور فكرى وثقافى شمل أغلبية الأسر ، فبعد أن كانت القرية لا يوجد بها سوى أفراد قليلين على معرفة بالقراءة والكتابة أصبحت تضم المئات من خريجى الجامعات فى التخصصات المختلفة ، ويحتل ابناؤها أرفع المناصب فى أجهزة الدولة والقطاعين العام والخاص .**

لكن هذا التطور الحضارى السريع كان يسير معه ويوازيه تطور العنف السياسى خاصة ذلك العنف الذى تمارسه أجهزة الدولة .

فى الماضى كان العنف يأخذ شكل السخرة لمواجهة الأخطار كفيضان النيل ، أو لاقامة الصروح الضخمة لتقديس الملوك والرؤساء كبناء الأهرامات ، أو للنهوض بأعمال عظيمة تخدم الأمة والوطن ، أو تحميه من الكوارث كشق قناة السويس وحفر الترع والمصارف وبناء القناطر على النيل .

لكن فى عصرنا اتخذت السخرة لتعذيب الانسان والتنكيل به خاصة اذا كان يحمل أفكارا مناضلة تنافس السلطة ، أو تتطلع الى مشاركتها ، أو تتعارض مع مصالحها .

فبقدر انتشار الوعى وتعدد وسائل تنظيم الناس وتجميعهم وتوحيدهم فى مواجهة السلطة السياسية بقدر ما يتصاعد سعار السلطة فى مقاومة هذا الوعى والتجمع ، واستخدام القهر النفسى والبدنى فى قمع الرأى المخالف أو المنافس بهدف اذلاله وتصفيته .

ان عرض مثل هذه الأساليب غير الانسانية ليس هدفه ادانة وتعرية الماضي فقط ، بل هو ضروري لسد الطريق أمام أى شكل من أشكال التعذيب البدني أو النفسي لمن يحمل أفكارا معارضة في الحاضر أو المستقبل ٠

ان كبت الحرية يخل بالتوازن الاجتماعي ويفسح الطريق للعنف المضاد ٠

في مسيرة هذه الحياة نما فينا وعي جديد ، وشوق لانعتاق الشعب من معاناته ، وتطلع لحياة انسانية متحضرة يسودها العدل والحرية والرخاء ٠

كان واقع سيطرة الاستعمار وجشع الاقطاع والرأسمالية وظلام حياة الفلاح هي التي قادتنا الى هذا الوعي ٠ لذا كان الوعي نابعا من احتياج انساني ، ومن هنا يكتسب أصالته فلا يضيع ٠

كانت التجربة الخاصة جزءا من التجربة العامة ، ومن هنا كان صدقها الذي لابد وأن تجد طريقها للقلوب ٠

كنا شبابا أحببنا وطننا وآمنا به ، وتعلقنا بالعروبة قوميتنا والتمسنا فيها قوتنا ومستقبلنا ٠٠ لم يكن ذلك تعصبا ، أو انغلاقا على النفس ، أو ضيق أفق ، انما كان البداية الصحيحة لالتئام اللحمة وسد الثغرة ، وحصن الانطلاق ٠

كان العالم ـ بعقولنا وخيالنا ـ ينفتح أمامنا ، فنرانا جزءا منه ، تربطنا به روابط الانسانية والاخاء والعمل الجاد لسعادة البشرية وانعتاقها من عبودية القهر والاستغلال ٠٠ رأيناه ـ قبل أن تصبح ثورة الاتصالات حقيقة واقعة ـ قرية صغيرة ٠٠ نتابع كل

أحداثها ، نتعاطف مع الشعوب الافريقية والأسيوية ، ومع دول عدم الانحياز بحكم الجوار تارة ، وبحكم الهموم المشتركة تارة أخرى .. وحتى مع شعوب البلاد الاستعمارية امتد تعاطفنا ـ لأننا وهى نقع تحت ضغط مستغل واحد ، ومصلحة كل منـــا فى التخلص من هذا القهر .

كنا نرى أن انتصار الحرية والعدل فى أى مكان من العالم هو انتصار لنا ، وهزيمة الاستعمار فى أى جزء من المعمورة هو تأكيد لحريتنا ومساهمة ايجابية فى مستقبل أكثر اشراقا وجمالا لشـــعوبنا .

لم يتوقف اهتمامنـــا بالوطن والقومية فحسب ، بل تجاوزنا الحدود والأجناس والأعراق ورأينـــا وحدة الانســـانية وتطلعاتها المشتركة ، فى حياة حرة متكافئة وتعايش سلمى ، بغض النظر عن الديانات والمذاهب والأعراق ، لم نر صراع الحضارات بل تفاعلها وتعايشها لخير البشرية .

رأينا أنفسنا جزءا من دوائر مختلفة لا تتناقض بل تتكامل ، فنحن جزء من الوطنية المصرية ، ومن القومية العربية ، ومن الدائرة الافريقية الأسيوية ، ومن عالم عدم الانحياز ، وتجمعنا مع الانسانية عامة روح الأخوة وضرورة التعايش ، ونبذ الحروب العدوانية لرخاء البشرية .

هذا الوعى الجديد كان له ثمن فادح دفعناه من حياتنا .. ضحينا بأجمل أيـام العمر ، بزهرة الشباب والفتوة .. أكلتهـــا السجون والمعتقلات ، وهتك حرمتها وقداستها التعذيب والانهاك البدنى والقتل والمطاردة فى لقمة العيش .

كانت التضحيات بحرا موسيقاه رنين الشوم على الأجساد المعروقة من الجوع ٠

لم يكن التعذيب ألما ذاتيا فحسب بل كان خيطا فى نسيج الألم العام ، ونغمة فى بطائية جماعية ، ولحنا فى أغنية الاعصار ٠

ذقنا العذاب مرتين ، مرة فى ذاتنا ، وأخرى حين نرى أحدنا يعذب ، حتى صارت جدران الزنازين حصن أمان ، لا تثير الغضب ، وأصبح صوت المفتاح فى أبواب الزنازين كنعيق الغربان ٠

أمام همجية التعذيب كان لابد أن نصمد : ــ نضحك ــ نسخر ــ وتهزم بسمتنا قهقهة الجبان العربيد ، ونعوض شقاء النهار ــ حين ننام فى المساء ــ بأحلام جميلة يحرسها الحنين الى الحرية ٠٠ نردد مع ناظم حكمت :

أحلم أنى خارج سجنى فى دنيا مشرقة حلوة

لم أر نفسى فى الحلم سجينا أبدا

لم أسقط فى الحلم من الجبل الى الهوة أبدا

هذه القسوة لم تستطع أن تحرمنا الروح الحضارية والسمو الفــكرى ٠

لقد حولنا حياة المنفى الى أغان وفن وثقافة ومسرح ، وانتاج أدبى وعلمى ، وعشــنا معــارك فكرية تحمل رائحة الديمقراطية والحضارة ٠٠ لعبت دورا كبيرا فى اثراء حياتنا وتخصيب أفكارنا ، فكان المنفى بحق مدرسة للثوار ٠

ليس معنى ذلك أن السجن كان نعمة ، بل محنة ، استطعنا التغلب عليها ـ حتى نعيش ـ بالأمل فى الحياة والثقة فى غد أكثر اشراقا وحرية .

فى هذا الكتاب استعرضت حياتى فى القرية من الكتاب الى الأزهر والوظيفة والجامعة ، ومن العدل الاجتماعى فى الاسلام الى الاشتراكية العلمية .

وتعرضت لمظاهر المطاردة والملاحقة : بالاعتقال والحرمان من الدراسة ومن الامتحانات ، وبالفصل السياسى من الوظيفة ومن الجامعة ، وبالتعذيب الوحشى فى السجون والمعتقلات دون ذنب أو جريمة ، الا ممارسة حقى فى الانشغال بهموم وطنى وأمتى .

وحتى بعد الافراج والعودة الى الوظيفة لم يتوقف الاضطهاد والمطاردة ، بل أخذ شكل المرتب والدرجة الأقل ، والحرمان من التدريس ومن ممارسة أى عمل يتصل بالجمهور .. ثم التقى الى اصعيد والحرمان من الاعارة الخارجية ومن السفر للخارج .

فى الكتاب تعرضت للصراع السياسى والتنظيمى داخل الحركة الشيوعية ، كما تعرضت لحل الحزب فى مقابل وعود وتعهدات التدريس ومن ممارسة أى عمل يتصل بالجمهور .. ثم النقى الى الأمل تحت وطأة الاستدراج والخديعة التى مارسها الاتحاد الاشتراكى والتنظيم الطليعى بقيادة جمال عبد الناصر .

ثم أنهيت السيرة بتوجهى الى المجال الفكرى والثقافى أسجل فيه نتاج تجربتى ، ودراساتى عن تطور الحركة الاسلامية فى العصر الحديث ، راجيا أن تلعب هذه الدراسات دورها فى نشر الوعى

والاستنارة وكشف الوعى الزائف والمغلوط فى فهم الاسلام الذى تستخدمه بعض التيارات المتسترة بالدين متكأ للوصول للسلطة والتسـلط .

من هنا تنكشف الغمة عن صدور الأمة لتنطلق الى وعى صحيح يكون سلاحا فى معاركها للخلاص من القهر والفساد .. وتنقية القيم الأصيلة والنبيلة لشعبنا .. وتحقيق حياة للوطن أكثر التحاما بين أبنائه وأكثر سعادة ورخاء وقوة .

١٩٩٨/٨/٢٤

المـؤلف

السـيد يوسف

الفصـــل الأول

من الكتاب الى الكلية

قـريتى :

على شاطىء البحر الصغير ، وعلى بعد عشرين كيلومترا من المنصورة ترقد قريتي (ميت الحلوج) شرق مدينـــة دكرنس مبـاشرة ٠

كانت المزارع تلتف حولها ولكن هذه المزارع الآن تآكلت وزحفت المبانى عليها حتى التصقت بدكرنس وميت مجاهد ٠

كان البحر الصغير ـ الذى يبدأ من المنصورة وينتهى فى بحيرة المنزلة يشق مدينـــة دكرنس ، ثم ينحنى قبل ميت الحلوج مباشرة ليلتف حولهـا من ناحيـــة الغرب والجنوب والشرق ليصنع نصف دائرة ، ويشكل منها شبه جزيرة ويفصل بينها وبين قرية ميت مجاهد ، ثم ينحنى مرة أخرى ليتجه نحو الشرق مستقيما ، ثم عدل هذا الالتفاف واعتدل سيره ، فشق له مجرى مستقيم يقع شمال القرية حدث ذلك فى الثلاثينيات من القرن العشرين حيث كنت طفـــلا ٠

وحتى لا يعزل البحر الصغير ـ بعد هذا التعديل ـ القرية عن زمامها أقيم عليه كوبرى يربط القرية بأرضها ، كان الناس

يخافون على أطفالهم من الاقتراب من الكوبرى فأشـــاعوا بينهم الأساطير عن ذبح من يقترب منه من الأطفال •

اشتهر عن ميت الحلوج أن أهلها يبادرون منذ الصباح الباكر يوم الأربعاء للذهاب لسوق دكرنس ليشتروا احتياجاتهم قبل غيرهم من البلاد الأخرى •

كما اشتهر عنهم التعصب لأبناء بلدهم والاتحاد لمقاومة أى عدوان عليهم من القرى المجاورة •

المستويات الاجتماعية والاقتصادية بين أهالى القرية متقاربة ، فلا يوجد بها استقطاب طبقى حاد فأغلب أهلها من صغار الفلاحين أو العمال الزراعيين ولا يتميز من بينهـم فى الملكية سوى عائلات قليلة أشيع أن حيازة بعضها من الأراضى قد حصلت عليها بطريق غامض حيث كان حفر قناة السويس يتم بالسخرة ، وكان الملتزم بتنفيذ السخرة يختار أجمل فتاة أو أحسن شاب من الأسرة ليمثلها وينوب عنهـا فى حفر القنـاة ، وعلى الأسرة أن تختـار بين ذلك أو تتنازل عن مساحة معينة من الأراضى التى تمتلكها ، وفى سبيل اعفاء الأسرة من هذه السخرة كانت تضحى بأرضها ، فقد كان الكثيرون يموتون فى حفر القناة ، وأسمع أن أحد جدودى مات هناك وتم الاستيلاء على أملاكه •

كانت قيمة الأرض ضعيفة فكانت الأسرة تشترى ابنتها أو ابنها بهذه المساحة من الأرض فتتنازل عنها •

لم تتجاوز أى ملكية كبيرة عن المائة فدان من زمـام القرية الذى يبلغ ستمائة فدان ، ومع التـــوارث تفتتت هذه الملكية الى

مساحات قزمية ، ومع محدودية زمام القرية تسرب الى بعض المرابين مساحة كبيرة من أراضيها ، ويشاع أن ذلك بسبب اسراف البعض على نفقات الطعام •

وعلى خلاف قريتنا كان عدد كبير من قرى مركز دكرنس يقع تحت سيادة وسيطرة الخاصة الملكية وعدد من الأسر الاقطاعية الكبيرة وبعض الأجانب خاصة اليونانيين الذين امتلكوا مساحات واسعة من الأرض عن طريق الديون الربوية أو تجارة القطن ، ولذلك شهدت هذه القرى تفاوتا طبقيا صارخا بين ملاك كبار وكثرة غالبة من العمال الزراعيين الأجراء الذين يكدحون فى هذه الاقطاعات ولا ينالون ما يسد رمقهم وما يحميهم من الأمراض والجهل •

كانت قريتنا مقسمة الى عائلات كبيرة •• وكان لكل عائلة مندرة (مضيفة) للاجتماعات فى مناسبات الأعياد والعزاء والأفراح •

كان بيتنا يقع فى صرة البلد ، وأمامه المندرة وكانت ملك أبى وكانت العائلة تستعملها فى المناسبات الخاصة بها •

كان العمدة ومشايخ البلد يختارون من العائلات الأساسية فى القرية •

عشت طفولتى وصباى فى هذه القرية ، لم يكن بها فى تلك الفترة مياه نقية ولا كهرباء ولا مجارى كنا نشرب المياه من الزير والقلة •• والماء ينقى بالشبة أو نوى المشمش والاضاءة بلمبة الغاز (الكيروسين) وفى البيوت المستورة نوعا ما تستبدل اللمبة نمرة خمسة لتصبح نمرة عشرة أو خمسة عشر • وفى سهرات رمضان

تكون الاضـــاءة بالكلوب ذى الرتينـــة وكان الناموس أو ما يسمى الهاموش يتجمع حول الكلوب ليحدث طنينا ثم يتساقط على الأرض بالآلاف محترقا .

كان الصرف الصحى يتجمع فى بيارات فى فناء المنازل أو أمامها فى الشارع وينزح كل فترة على أكوام السباخ أو الشرب (الطين الجاف) لينشر رائحة كريهة على المنـــازل ويتجمع عليه الذباب والحشرات ليلوث البيئة .

كانت البيوت كلها من الطوب اللبن أو الطوف ولا تجد بيتا من الطوب الأحمر الا نادرا .

لم يكن هناك تحديد للنسل أو تنظيم للأسرة ، فالرجل ينجب أعدادا كبيرة من الأولاد من زوجة واحدة أو عدة زوجات ، وأحيانا لم يكن يتذكر عدد أبنائه أو أسماءهم جميعا ، يقضى الأبناء أكثر أوقاتهم فى الشوارع ، فلا مدارس ولا عناية صحية ولا غذاء كافيا ، يلعبون فى البرك والمستنقعات ، وفى أحسن الأحوال فى مياه البحر الصغير وما يتفـــرع عنه من ترع ومصـــارف ، البلهارسيا تحصدهم ويموت الكثيرون منهم بشتى الأمراض ، خاصة حينما تجتاح البلاد الأوبئة كالجدرى والكوليرا والتيفوس .. الخ .

لم يكن هناك تطعيم لكل الأمراض ، ولم يكن هناك دخل للقرية سوى الزراعة ، والحرف محدودة جدا ، وأجورها تدفع عينيا مع موسم الحصاد ، كانت الأسرة تعيش على ما تخزنه من مؤن فى موسم حصاد الأرز والقمح والشعير والذرة ، أما عند جنى القطن فيقوم الفلاح ببيعه وسداد ما عليه من ديون قد تستغرق كل انتاجه، هذا اذا لم يكن قد باعه مسبقا قبل جنيه مقابل ديونه ، وما يبقى

بعد هذا يشترى به كسوة لأسرته ، ويعيش بقية العام بلا نقود يأكل مما خزنه أو تجود به مواشيه ، أو يشترى بالأجل وبأغلى الأسـعار ٠

كان بالقرية مدرسة الزامية يتسرب أغلب طلابها منها لمساعدة آبائهم فى الزراعة أو الأعمال الأخرى ، وأذكر أن أبى أخرج أخى يوسف من المدرسة ليساعد جدى فى الزراعة ، وأقام وليمة للناظر وللمدرسين مكافأة لهم على موافقتهم على ترك أخى للتعليم !!

والمدرسة الالزامية مرحلة منتهية لا توصل خريجيها الى مراحل أعلى بل بعدها يتحول الطالب الى فلاح أو صبى فى حرفة ما وينسى ما تعلمه من قراءة وكتابة ويعود الى الأمية ٠

وبعاصمة المركز مدرسة ابتدائية أميرية ، أما المدرسة الثانوية فلا توجد الا فى عاصمة المحافظة ، ومن يرد الالتحاق بالأزهر فعليه أن يلتحق بمعهد دمياط الدينى بعد أن يجتاز امتحان مســابقة القبول بنجاح ويكون حافظـا للقرآن الكريم كله ويجيـد القراءة والكتابة والحساب وبعض قواعد اللغة العربية ٠

كانت مصروفات المدارس الأميرية : الابتدائية والثانوية فوق مستوى قدرة الطبقات الصغيرة بل والمتوسطة أيضا ٠

أسرتى : فتحت عينى حين بدأت أعى على هذا المناخ ٠

أدركت جدى وجدتى لأبى ، كان فلاحا مثابرا على عمله فى الأرض حريصا على أن يجمع لديه بعض الأدوات التى تساعده على اصلاح آلات الزراعة أو شبابيك وأبواب البيت ، والى جانب ذلك

كان يمارس تجارة الفاكهة فى دكان ملحق بالمنزل ، وفى السوق بدكرنس يوم الأربعاء كان له بنك (طاولة يبيع فوقها ما لديه من فواكه) وكانت جدتى تساعده فى ذلك ، وكانت تمتاز بالذكاء وحيوية الحركة وفهم أغوار النـاس ، وقد استطاع جدى وجدتى زيادة ما يمتلكانه من مساحة زراعية ، بفضل نشاطهما التجارى ، وقد بلغت هذه المساحة ثلاثة أفدنة ونصف وهى تعتبر مساحة طيبة بالنسبة لكثير من الأسر فى القرية .

أما أبى فكان أفنديا يلبس الطربوش والجلبـــاب الافرنجى المكوى والبلطو ، وقد حفظ القرآن الكريم وتعلم لعام واحد فى جامع البحـر الدينى بدميـاط ، ثم توقف عن التعليم ، وأصـبح بهذا القدر أحد وجهاء القرية ومســتنيريها الذين يقرأون الجرائد ويتكلمون فى السياسة الداخلية وفى متابعة سير المعارك الحربية أثناء الحرب العالمية الثانية .

كانوا فى القرية قلة من هذا القبيل ، تعد على أصابع اليد الواحدة ، وكانت اهتماماتهم الســياسية تعود الى روحهم الوطنية المعادية للاستعمار الانجليزى والى حيوية حزب الوفد القديم الذى كانوا ينتمون اليه .

لم يكن أبى يتقن الزراعة ، ولم يكن له صبر عليها ، وتنقل بين عدة أعمــال ، فكان مقاول أنفار يسرحهم للعزب والتفاتيش وفبريكة ضرب الأرز أو لعمليات حفر الترع والمصارف ، وفى بعض هذه العمليات وقع ضحية عملية نصب خسر فيها مبلغا كبيرا شدته الى الوراء كثيرا ، ثم فتح محلا لبيع السبرتج ثم محلا للبقالة وحول المندرة فى فترة الى مقهى ، ولكن ذلك لم يكن يستمر فيه طويلا .

كان حريصا على أن يروح عن نفسه بالسفر الى الاسكندرية أو القاهرة ، وكان يصحبنى أنا وأمى كل عام بعد موسم جنى القطن لزيارة السيد البدوى وحضور مولده ثم متابعة السفر الى القاهرة لزيارة معالمها خاصة أولياء الله الصالحين ، أحيانا يصاحبنا أحد من الاخوة الثمانية لكننى كنت مصاحبا لهما كل عام .

يرجع السبب فى الدوام سنويا على زيارة السيد البدوى الى أن أمى وهى حامل بى كانت تنوى أن تجهض نفسها ـ وكثيرا ما فعلت ذلك مثل غيرها من نساء القرية ـ وكان هذا يؤذيها الى درجة كانت تهدد حياتها ، فجاءها السيد البدوى فى المنام وقال لها « حرام عليك تموتى السيد » فألهمها هذا الحفاظ على جنينها حتى ولدته واسمته « السيد » ، واعجابا وتدليلا لى قالوا عنى اننى كنت طفلا جميلا ، وأن جمالى هذا جلب على الحسد من سيدة من جيراننا دخلت على فبهرت بى وفى نفس اليوم وبسبب حركات يدى سقطت على خدى الأيمن زجاجة لمبة الغاز فحرقتها ، ولازال أثرها باقيا حتى اليوم يحكى هذه الواقعة ، أو الأسطورة التى صدقتها الأسرة ، وخاصة أمى .

أما أمى فكانت سيدة طيبة القلب . كريمة ، وهى أكبر أخواتها ، ولذلك كانوا يلجأون اليها لاستشارتها ومطاوعة نصيحتها ، كانت تجيد الخياطة واشتهرت بذلك فى القرية ، ودر ذلك عليها دخلا معقولا كانت تساعد به فى سد احتياجاتنا والترفيه عنا ومجاملة أخوتها ، كانت تحترم من هو أكبر منها بل كانت تعطى احتراما أكبر لمن هو أصغر منها سنا ولكنه فى علاقة النسب يمثل جدها أو عمها أو خالتها غير المباشرين ، فكانت تنادى على من هو أو هى فى سن ابنتها أو ابنها أو أصغر يا خال أو يا خالة وكان هذا يضايقنى فألومها واعتبر هذا نوعا من التواضع السلبى الذى يجب

أن تتحرر منه وتنأى بنفسها عنه ، وحين مات أبى فى سن مبكرة فى ديسمبر عام ١٩٤٢ نست نفســـها وكرست حياتها لأولادها وأظهرت ثباتا واصرارا على تحمل المسئولية وحماية أبنائها وتجميعهم حولها وتحبيبهم فى بعضهم مما جمع حولها القلوب وربط الأحفاد بها حتى كانت العروة الوثقى لهم يحبونها ويحترمونها يحجون اليها ويبدأ الأحفاد حفلات ومواكب زفافهم من عندها ، واستمر ذلك حتى وافاها الأجل يوم السبت ١٦ نوفمبر ١٩٨٥ الساعة الخامسة بعد الفجر الموافق ٣ ربيع الأول عام ١٤٠٦ هـ وقد سميت هذا العام بعام الحزن رحمهـا الله وطيب ثراها بقدر ما أعطت وأفنت نفسها فى خدمة أبنائها وأحفادها .

طفـولة متمردة :

كنت مدللا من الأسرة وخاصة والدى ، ولذلك كانوا يتغاضون عن كثير من شقاوتى وعصيانى ويستجيبون لطلباتى رغم أن ترتيبى هو الخامس ضمن ثمانية من الأخوة والأخوات .

فى المرة الأخيرة التى زار فيها أبى القاهرة عاد مريضا ولزم الفراش حوالى شهرين ثم توفى فى ديسمبر ١٩٤٢ بسبب قرحة فى المعدة . ولم تكن المضادات الحيوية قد اخترعت بعد وكان عمره حوالى الأربعين عاما وكان جدى قد توفى قبله بسنة الا أربعين يوما أى مات فى نفس السنة بحيث كانت سنوية جدى تتفق مع مرور أربعين يوما على وفاة أبى ، كان عمرى فى ذلك الوقت ثلاثة عشر عاما ، أتذكر أننى لم أبك فى طفولتى صباى كما بكيت يوم وفاة أبى ، كنت عائدا مع أخى من الحقل مع المغرب وكنا نركب فوق البرسيم على الحمار ونغنى ففوجئنا بمن يخبرنا بوفاة أبى فهالنا الخبر وانخرطنا فى البكاء والصراخ ونحن نجرى .

أتذكر أيام طفولتي كأطياف غائمة أو خيالات أحاول أن أدقق فيها لأتبين ملامحها .

أتذكر أنه كان يتعذر علي بلع أقراص الدواء وكانت هذه الأقراص كبيرة الحجم عما هي اليوم كانت كأنها حق (علبة) يحتوى فى داخله على بودرة ، كنت أجرى منهم ويجرون ورائى لاجبارى على تناولهـــا .

كنت مشاكسا لا أرضى بما يعرض على وأطلب غيره ، فاذا أحضروه أخذت الاثنين . كان هذا يتكرر كثيرا فى أنواع الطعام وفى الملابس .. تقول أمي اننى كنت مسعدا لا تذهب لشراء ملابس لى الا وتجد ما هو جيد ومناسب .

كنت أشارك جدى وأخي يوسف والسيد ابن عمتى العمل فى الحقل أحيانا ، وكنا اذا أخطأنا حاول جدى الامساك بنا ليضربنا فأفلت أنا وأهرب ويقع أخي يوسف وابن عمتى فى قبضته فيضربان بينما أتفاخر أنا بافلاتى من الضرب .

الكتاب وحفظ القرآن :

دخلت كتاب الشـيخ محمد أبو الوفا خشـان وحفظت عليه القرآن الكريم وتعلمت فيه القراءة والكتابة والحساب ، كنا نقرأ بسرعة وبدون فهم ، واذا تمهلنا فى القراءة تعثرنا وأخطأنا ، كان يقرأ لى كل يوم نصف ربع وكنت أطلب وألح أن يكون ربعا كاملا فكان يرفض ، ولوجئت اليه فى اليوم التالى حافظا الربع كله وطلبت تسميعه فانه يرفض ويطلب تأجيل النصف الى اليوم التالى ، كان يبغى اطالة فترة الحفظ حتى يســـتمر فى قبض المعلوم كل يوم خميس ، وكان أبى مواظبا على دفع المعلوم كل أسبوع لا يتأخر ،

وحين أغيب يوما عن الكتاب لانشغالى بمساعدة الأسرة فى رى الأرض أو حرثها أو جنى القطن أو جمع الثمار كنت ـ لأعوض هذا التأخير ـ أقوم بحفظ ما كان يجب أن أحفظه لو كنت قد حضرت هذا اليوم فى الكتاب ، وكنت أطلب تسميع ما حفظته وأنا غائب فيرفض ، كما كان ابن خالتى عبد الحى يسير معى فى الحفظ ، وكان سريعا فى حفظه أيضا ولكن أباه كان يتأخر أحيانا فى دفع المعلوم فيطرده الشيخ حتى يحضر المعلوم فينقطع عدة أيام ويطلب منى الشيخ أن أتوقف عن حفظ أجزاء جديدة وأن أراجع ما سبق حفظه حتى يحضر ابن خالتى ، وهكذا كنا نتقدم ثم نتوقف حتى أتممت حفظ القرآن كله وأنا فى العاشرة من عمرى .

كنا نهز جسمنا الى الأمام والى الخلف ونحن نقرأ القرآن الكريم وكان الشيخ يفعل ذلك وهو يستمع الى حفظ تلاميذه ويمسك فى يده بسير من الجلد مثبت فى يد من الخشب يقرع به ظهر تلميذه مع كل خطأ فى الحفظ ، واذا غاب الشيخ تولى الشيخ أبو الفتوح وهو أقدم التلاميذ مسئولية المكتب وكان يحلو له أن يجرب ضرب السير فى بعض من عرف عنهم بلادة الحفظ خاصة الشيخ أحمد وكان أشـول يجر احدى رجليه ومصـابا بالعته والبلاهة وفقدان الذاكرة وطبعا ضعف الحفظ وتشتعل الحرائق فى الكتاب وتتعالى الصرخات الهستيرية مع فرقعات السير على ظهر الشيخ أحمد وفى كل مكان من جسمه مع قهقهات السعادة والتسييد من العريف المؤقت .

فى المدرسة الالزامية :

دخلت المدرسة الالزامية بالقرية ، وأذكر أننى التحقت بها وكان الفصل مفروشا بالقش ثم جهزت الفصول بعد ذلك بدكاك نجلس عليهـا .

كنت متميزا بين الطلبة ، وكان المدرسون يتوقعون أنني سأواصل التعليم ، وكان أبى يأمل لى حفظ القرآن وتجويده وحسن تنغيمه ٠

طفولة بريئة وألعاب ساذجة :

كنا ننتظر العيد بشوق ولهفة ، لأننا سنلبس ملابس جديدة ونأخذ المصروف ونذهب الى المولد ونشاهد تياترو عاكف أو الحلو ٠ وكان يقام فى دكرنس فى عيد الأضحى مولد السادات وتقام فيه أماكن اللهو والمرح والمتعة فى شكل أنواع من السيرك والتياترو وضرب المدفع ومسابقات للحظ ومراجيح وخلافه ، وبعض المأكولات من حلاوة وحمص وغيرهما ٠٠ كنا نسمع عزف الموسيقى فى المولد ونحن فى الحقول فتقشعر أبداننا وترقص أجسامنا على نغماتها وتشدنا لنسرع اليها عائدين من الحقول نلبس الملابس الجديدة ونحمل مصروفنا ونذهب الى المولد جماعات تملأنا الفرحة والبهجة ٠

كان لمثل هذه المناسبات رونقها وجاذبيتها لدى الأطفال والصبية والشباب ٠

لم تكن بالبلد نواد ولا متنزهات ولا سينمات ٠٠ كانت المتعة الوحيدة هى لعب الكرة الشراب والمضرب مع الأولاد فى النهار فى الأماكن الخالية من القرية وتقع فى وسطها ، كانت قبل ذلك مستنقعا للمياه الراكدة الآسنة ومصدرا للأمراض والروائح العطنة ، ثم تعطف الحكومة فردمتها وأصبحت مكانا (جرنا) لدراس الأرز والغلال ، واستعمل جزء منه لتكوين سباخ البهائم الذى يخرجه الفلاح من حظيرة حيواناته لينقله بعد ذلك لتسميد أرضه ، والجزء الباقى كنا كصبية نستعمله كملعب ٠

الكرة كنا نصنعها من الجوارب القديمة التى نملأها بقطع من خرق القماش ثم نخيطها ، وأذكر أن اللعبة ــ وقد انقرضت الآن ــ كانت مكونة من كرة شراب ومضرب من الخشب أو العصى ، وكان اللاعب يضرب الكرة من خط الملعب ثم يجرى الى اللازمة فان التقط الكرة أحد من فريق الخصم فعليه أن يضرب بها اللاعب قبل وصوله الى اللازمة وبذلك يخسر اللاعب فان أفلت من اصابته بالكرة يكون قد نجح خاصة اذا عاد من اللازمة الى خط الملعب سالما ٠

كانت لعبة بدائية ولكنهـا كانت تثير حماسنا وحمـاس المشاهدين ، وكنا نعجب بأنفسنا حين ننجح فى الافلات من اصابتنا وحين نشهد إعجاب المشاهدين ٠

كما كنا نلعب لعبة البلى أو النحلة والكبسوة وهى عبارة عن اسطوانة من الخشب كالقمع بداخلها مسمار له سن وتلف الدوبارة (الكبسوة) حول الاسطوانة ثم تقذف بها الى الأرض لتستمر فى الدوران حول نفسها ٠ فان كسرت نحلة من النحل الموجود على الأرض أو فرقته أو أصابت احداها حين قذف بهـا على الأرض كان هذا نجاحا وفوزا للاعب ٠

وفى المساء كنا نلعب ألعابا أخرى منها لعبة الاستغماية ولعبة غوط ولعبة القط والفار وكلها ألعاب ساذجة وبدائية ولكنها كانت تمتص طاقاتنا وتريح نفوسنا ٠

هذا عدا ألعاب الكوتشينة المختلفة ، وكانت قريتنا قد أطلق عليها قديما « مونت كارلو » لما كان يتم بها من مراهنات قمار بالنقود يشترك فيها زوار من خارج القرية ، وكان هناك من يحقق منها كسبا كبيرا ، كما كان هناك من يخسر خسرانا مبينا ، وقد قضينا

على هذه الآفة بعد ذلك حين شغلنا القرية باهتمامات سياسية واجتماعية ووطنية ٠

لم يكن بالقرية وسائل للتسلية حتى جهاز الراديو لم يعرف الا في أواخر الثلاثينيات وكان بالقرية جهازان أحدهما عند الشيخ امام ناظر المدرسة الأولية والثاني اشتراه أبي وأحضر من المنصورة العامل الفني الذي ركب الايريال فوق السطح ٠٠ كان الراديو يعمل بالبطارية السائلة لأن الكهرباء لم تكن قد دخلت القرية ، وكان حجمه كبيرا ، وكنـا تظن كأطفال أن المقرئ للقرآن يجلس بداخله وكان أبي قد اشترى هذا الجهاز ليضعه في المقهى الذي افتتحه لبعض الوقت في المندرة أمام منزلنا ٠

دروس خصوصـــية :

بعد أن حفظت القرآن كله وأتممت المدرسة الالزامية أخذت دروسا في اللغة العربية والحساب عند أحد المدرسين بالقرية الذي تميز بروح خيرة وبنزعة صوفية ، كان يصحو قبل الفجر ويوقظنا معه لنصاحب عم على أبو شريف الذي تطوع لايقاظ أهل القرية لصلاة الفجر ٠٠ يدور في حواريها بطبلته الكبيرة يدق عليها ليصحو الناس للصلاة ٠

كان أستاذنا يقودنا أيضـــا لننشد الأوراد في المسجد قبل صلاة الفجر ٠ كما كان يوقد لمبات الغاز أو الكلوب في المسجد بعد صلاة العشاء لتلاوة بعض الأذكار ٠٠ كنا نصاحب أستاذنا في هذا التعبد ٠

كان يصر على أن لا يأخذ أجرا على دروسه الخصوصية ، ولكن أباه كان يضيق من موقفه ويبدى تذمره وتبرمه ، فكانت

أسرتى ترسل له ــ دون علم الأستاذ ــ بعض الحبوب لترضيه وتسكته ، وكان للأستاذ أخ يأخذ معنا الدروس ولا يحل واجبه واذا أجاب جاءت اجابته خطأ وكثيرا ما تكسرت على رجليه مساطر من خشب الزان وكنا نتندر عليه لاهماله ، وكان تفوقنا فى الاجابة سببا فيما يعانيه من عقاب فحقد علينا وتجمع أغلب غضبه على لأننى كنت أجيب عن كل الأسئلة بل كنت أسبق الى الاجابة عن أسئلة أخرى موجودة بالكتاب ولم يطلب الأستاذ الاجابة عنها وأكثر الأستاذ من منحى درجة الامتياز على اجاباتى حتى بلغ الحنق بأخيه مرة أنه لم يستطع أن يكتم غيظه فخطف منى كراسة التطبيق أمام الأستاذ وقطعها .

وكان معى طالب بالسنة الرابعة بالمدرسة الابتدائية الأميرية وكان الوحيد الذى لديه كتاب حساب به كثير من المسائل فكنت أسبقه الى الاجابة عنها ، وحين تكرر ذلك أخفى الكتاب عنى حتى لا أجيب عن أسئلة أخرى .

وجاءت اجازة الصيف وبدلا من أن يقضى أستاذنا الاجازة فى مصيف رأى أن يقضيها فى المنصورة ليتبتل فى مساجدها فأجر حجرة فى حارة خوخة بالقرب من شارع السكة الجديدة وطلب منا أن تصاحبه فى الاقامة معه بالمنصورة فذهبت معه أنا وطالبان وأخوه ولم يصمد بعضهم ، ومكثت معه مجاملة له رغم حالة التقشف الشديدة التى عايشناه فيها من ناحية الطعام ، كان يطبخ شربة العدس وبعد أن تغلى يأخذ الشربة ويتصدق بها على بعض الجيران خاصة المرضى منهم ، ثم يضيف ماء جديدا على التفل المتبقى ويفعل بعد غليه نفس الشىء ثم يكررها مرة ثالثة وهذه تكون غذاءنا .

وقبل الفجر نذهب الى مسجد لننشد الأوراد ، فاذا بالمترددين على المسجد يطلبون منا الصمت واذا لم ننفذ قاموا بطردنا ، ويتكرر هذا فى مسجد آخر •

كانت فترة عصيبة ومضحكة ، ولكننى تحملتها على مضض فى سبيل الاستفادة علميا •

طالب بالمعهد الدينى بدمياط :

بهذا أصبحت مستعدا لدخول مسابقة القبول للمعهد الدينى بدمياط ، ولمدرسة المعلمين بالمنصورة ، ودخلت المسابقتين ونجحت فيهما ، واخترت المعهد الدينى لأن الدراسة به مفتوحة الى الثانوى فالكليات الأزهرية أو دار العلوم ، كانت تلك هى دور العلم المتاحة أمامنـــا •

لم يكن بالقرية ممن سبقنا للتعليم الممتد للتعليم العالى سوى أفراد معدودين على اليد الواحدة واحد منهم بجامعة فؤاد الأول « القاهرة » والباقى بالأزهر منهم خالى وكان طالبا بكلية الشريعة •

وهنا وقفت الأسرة متسائلة : هل أذهب الى دمياط أم أحول أوراقى من معهد دمياط الى القاهرة لأكون مع خالى ؟ واستقر الرأى على أن أسافر فى بداية العام الى القاهرة والتحويل اليها ، ثم ثارت مشكلة أخرى فى اختيار قماش الكاكولا (الجبة) فمن الأسرة من يرى أن يكون القماش من القطن أو الكتان وهذا أرخص ولكننى رفضت وأصررت على أن يكون صوفا وثمنه أغلى ، وأخيرا وافقوا على رغبتى وذهبت الى الترزى وصنع لى الجبة المطلوبة وسافرت الى القاهرة ومكثت بها شهرا من بداية العام الدراسى ولم نوفق فى

التحويل ·· كان شيخ المعهد الديني بالقاهرة هو الشيخ سليمان نوار وكان شخصية قوية اذا رفض طلبا لا يتراجع عنه ·

سافرت الى دمياط وسكنت مع طلاب من قريتي ومن دكرنس والقباب الصغرى ، ووجدت زملائي قد قطعوا شوطا لا بأس به في شرح العلوم ، كانت المواد صعبة ومعقدة على مبتدىء مثلي خاصة أنني لم أحضر الدروس الأولى التي منها يتعرف الطالب على طبيعة المادة ، ولم أعرف بعض المصطلحات الواردة في الكتب ، وكان منها كتاب « التحفة السيئة » في اللغة العربية وكتب أخرى في الفقه والحديث ··· الخ ولكنني حاولت غير أن بعض العبارات فهمتها على غير حقيقتها مما أخاطها بغموض لم أفهمه الا متأخرا ، ومثال ذلك أن كثيرا من المسائل الفقهية كانت تنتهي بهذه العبارة « وبعكسه جاز » فكنت أقف أمامها حائرا لأن كلمة جاز كنت أفهمها على أنها السائل الذى نستعمله كوقود في الانارة والطبخ أى الغاز السائل وبهذا لم أفهم العبارة ، ولكن بعد فترة ومع المذاكرة مع الزملاء فهمت المعنى المقصود ·

قبل الامتحان بفترة قصيرة وكنا نذاكر في جامع البحر ونراجع بعض المواد كطلبة تبين لى أن مذكراتي ضعيفة وأنني أوشك على الرسوب اذا استمر مستواى على هذا النمط ، مما أشعل في نفسي عزيمة مضاعفة ، وشحذ همتي للاسراع بجبر هذا النقص ، فضاعفت المذاكرة حتى اجتزت الامتحان بنجاح ، وكان درسا لى في السنوات التالية ·

وبعد هذه السنة الأولى وأثناء الاجازة الصيفية افتتح أخي الأكبر محلا للخردوات بدكرنس وكانت سمعته طيبة مع الزبائن فبوركت تجارته وراجت ، وتسارعت الآراء في الأسرة تقترح أن

أترك التعليم وأنضم لأخى فى التجارة · لم تكن التجارة من ميولى وكنت متشوقا لمواصلة تعليمى وكان خالى « السيد » من أكثر المتحمسين والمشجعين للوقوف مع أخى فى المحل وترك التعليم فرفضت وأصررت على مواصلة تعليمى وهاجمت خالى واستعرت كتب الفرقة الثانية من زميل يسبقنى فى الدراسة بعام وهو عبد الحكيم شعبان من « القباب الصغرى » ، كنت أقرأ فى هذه الكتب فى الاجازة وتدمع عيناى خوفا من حرمانى من مواصلة الدراسة ·

غير أن فتوى من شيخ بالجامع الأحمدى بطنطا حسمت الأمر، فقد ذهب أخى الأكبر الى طنطا لزيارة السيد البدوى وقابل أحد المشايخ وعرض عليه المشكلة ليفتيه فيها فرد عليه بحرمة الوقوف فى طريق طلب العلم وأن من قطع طالبا عن العلم كمن قطع شجرة يحتمى بها الناس فى فلاة ، وحذره من ذلك بالويل والثبور على من يفعل ذلك أو يشجع عليه ، فعاد أخى وقد عزم باصرار على أن أواصل تعليمى ، واسترحت اذ خرجت من هذه الغمة الطارئة ·

بدأ العام الدراسى فسافرت الى دمياط وواصلت الدراسة بالفرقة الثانية وسكنت مع بلدياتى ومع طلبة آخرين فى منزل شيخ بالمعهد الدينى وهو مدرس خط به ، وكنا ــ نحن الطلبة ــ نعاكسه فى أثناء الحصص ·· وكانت له حديقة كبيرة فى أطراف دمياط من جهة رأس البر وبها عمارة كبيرة من عدة طوابق يسكن بها ويؤجر بقية الشقق كما كان له منزل من طابق واحد وبه أربع حجرات مؤجرة لطلبة من المعهد الدينى ·

كان بعض الطلبة يتصرفون بشقاوة فيتسلقون نخل الحديقة وأشجارها ليأكلوا ثمارها ، أو يلعبون الكرة فيكسرون زجاج الأبواب

أو الشبابيك ويحدثون أصواتا مزعجة وهنا نفاجأ بثورة عارمة ومطاردة غاضبة من الشيخ .

كانت العادة أن يحاول الطلبة الكبار أن يتسلطوا على الطلبة الصغار خاصة المستجدين مثل السمك الكبير الذى يأكل الصغير ، الا اذا قاوم الصغير واستشعر مكانته وكرامته ، حينئذ تحدث بعض المصادمات الى أن يتعادل ميزان القوى فيعتدل الميزان ويتحقق العدل وتسوى الجفوة بين الزملاء والأصدقاء .. وهكذا تمضى الحياة .

اتسمت حياة التلمذة فى الغربة بنوع من التقشف فى المعيشة لمحدودية الموارد فى المصروف ، ولاحساسنا بعدم تحميل أسرنا فوق ما يطيقون ولحرصنا على توفير بعض النقود لشراء الكتب الثقافية التى كنا نطمح لاقتنائها وقراءتها ، وكنا ننتهز أى فرصة للسفر الى القاهرة لشراء هذه الكتب من مكاتبها خاصة الكتب القديمة المعروضة علي سور الأزبكية .

توفى شيخ الأزهر وعين شيخ جديد فانتهزنا الفرصة لنهنئه .. كنا مجموعة كبيرة من طلبة معهد دمياط فاقتحمنا محطة السكة الحديد بالسنانية بدمياط ونحن نحمل علم المعهد الدينى ، واحتللنا عربة من عربات القطار المسافر للقاهرة دون تذاكر ، وفى محطة القاهرة حاولوا احتجازنا لتحصيل ثمن تذاكر السفر ولكننا تكاثرنا على الباب وخرجنا ثم سرنا فى طابور حتى ادارة الأزهر وبتنافى الجامع الأزهر ، ثم جاء خالى المتولى وأخذنى للمبيت عنده حتى سافرت الى دمياط .

حاولنا مرة أخرى تكرار السفر الى القاهرة فى مناسبة مماثلة عن طريق القطار فاقتحمنا المحطة بالقوة وكنا نهتف « باسم المليك يفتح الباب » فتصدى لنا البوليس بالمحطة وتكسرت حوامل الأعلام

ومنعنا من السفر وقبض على بعض الطلبة ٠٠ وعدت مع البعض الآخر الى المعهد جريا فوجدنا البوليس قد أقام حواجز على كوبرى السنانية المقام على النيل فرع دمياط فاجتزنا هذه الحواجز وقد تساقط البعض ونحن مستمرون فى الجرى ، وقبل المعهد مباشرة كانت سيارة للبوليس مليئة بالجنود قد لحقت بنا فأسرعت بدخول الشارع المجاور للمعهد ، واختفيت فى أول بيت وراء الباب فأقبل جندى يطرق الباب فجاءت سيدة من الداخل ، ولم تكن قد رأتنى ونفت له وجود أى طالب بالمنزل ثم فوجئت بوجودى وراء الباب فصعقت فطمأنتها وكان الجندى قد ترك المنزل للبحث عنى فى المنزل المجاور ، وكانت المرأة قد سمحت لى بالاختفاء داخل المنزل حتى يتوارى العساكر ، ولكن العسكرى عاد مرة أخرى ودخل المنزل فأكدت له السيدة عدم وجود أحد من الطلبة فخرج مرة أخرى ٠٠ كانت الفترة بين دخولى الشارع ونزول العسكرى من السيارة للامسباك بى لا تسمح الا بدخولى أحد هذين المنزلين ٠٠ حين توارى العسكر خرجت بعد أن طويت عمتى وجبتى وخرجت متسللا من الشوارع الخلفية حتى وصلت الى سكنى ٠

بعد ذلك حاولنا الاتصال ببعضنا كطلبة ، نجمع التبرعات لشراء طعام للمقبوض عليهم ونتصل بشيخ المعهد نرجوه ليتوسط لدى المحافظ ورجال الأمن للافراج عن الطلبة المحبوسين ٠

كثيرا ما كانت المظاهرات تسير فى الشوارع مطالبة بالجلاء والاستقلال ووحدة وادى النيل نهتف « مصر والسودان لنا وانجلترا ان أمكنا » ٠

وتأتى سيارات الأمن تحمل العساكر الذين يفرقون هذه المظاهرات بالقوة واستخدام العصى والقبض على بعض الطلبة ٠

كانت السنوات التى تلت الحرب العالمية الثانية مشحونة بالحماس الوطنى ، والحركة الوطنية في قمة اشتعالها •

كانت شهور الدراسة محدودة وبقية الشهور نعود فيها الى قرانا حتى تستـــتقر الأحوال فقد كانت الحكومة تصدر القرارات بتعطيل الدراسة الى أجل غير مسمي ثم تصدر القرارات باستئناف الدراسة بعد ذلك •

الطالب في القـاهرة :

حصلت على الابتدائية الأزهرية عام ١٩٤٧ وبدلا من أن ألتحق بمعهد الزقازيق الثانوى ـ كما هو متبع حسب التوزيع الاقليمى ـ حيث لم يكن معهد المنصورة قد أنشىء بعد ـ التحقت بمعهد القاهرة الدينى الثانوى ـ لأكون مع خالى بالقـــاهرة ـ وتركت العمامة والجبة ، وفصلت بدلة ، ففى معهد القاهرة متسع للزى الافرنجى ، واذا عين للمعهد شيخ متزمت وشدد أحيانا فى الزى نضطر لاحضار عمامة وجبة احتياطى نلبسها فوق البدلة ولكن بعد أيام سريعا ما كان يستأنس ويضطر للتغاضى عن الدخول بالبدلة •

كنت أواظب على قراءة الصحف اليومية والأسبوعية ـ وفى القاهرة كنا نقرأها ونردها لمتعهد الجرائد فى مقابل مبلغ شهرى خمسين قرشا ، وكنت اطلع على المجلات الشـــهرية وأقتنى منها ما أراه مفيدا ، ولازلت أحتفظ بأعداد كثيرة من مجلة الهلال منذ عام ١٩٤٧ وكتاب الهلال منذ ظهر والى جانب ذلك كنت أتجول حول سور الأزبكية لأشترى بعض الكتب والمجلات القديمة خاصة المجلة الجديدة لسلامة موسى والمقتطف وكنت أقرأ الرسالة لأحمد الزيات والكاتب المصرى لطه حسين ومجلتى لأحمد الصاوى وبدأت القراءات تتركز وتتمحور حول الفكر الاشتراكى بعد أن تأثرت كثيرا بكتابات

سلامة موسى ومقال لميخائيل نعيمة بعنوان « هل أنت مثقف ؟ نشره فى مجلة الهلال ، وخرجت من هذه القراءات بأنه لا يعد مثقفا من لم يقرأ المادية التاريخية والمادية الجدلية ، ولازلت أذكر رأى سلامة موسى عن الكتب التى تقرأها وتترك عندك مركبات ذهنية تفيدك على امتداد حياتك ، على عكس الكتب التى تثيرك بأسلوبها وقوة عاطفتها وتشعرك بمتعة عند قراءتها ولكنها لا تترك فى عقلك شيئا ، ومقارنته بين الدارس للماركسية ويقرأ الجريدة وبين الذى لا يستفيد منها بأكثر من ثمنها الأول يحصل على فوائد أضعاف أضعاف ثمنها لأنه يفهم ما وراء الأخبار ، يفهم دوافعها ويستطيع أن يستنتج كيف ستتطور فى المستقبل •

من هنا بدأ اهتمامى بقراءة الكتب الماركســـية فاشتريت ما ترجمه الأستاذ راشد البراوى منها ، وأذكر أن الدكتور يوسف ادريس استعار منى أحد هذه الكتب الذى يتحــدث عن المادية التاريخية عام ١٩٥٢ حين حضر أحد الاجتماعات فى مسكنى ثم حدثت اعتقالات بعد ذلك وتقابلنا فى « أوردى ليمان أبو زعبل » أواخر عام ١٩٥٤ ويبدو أن الكتاب استولت عليه المبــاحث العــامة ضمن ما كانت تستولى عليه من كتب عند مهاجمتها للبيوت وتفتيشها • والقبض على من تجده من الوطنيين والتقدميين رغم أن كثيرا من هذه الكتب يباع فى المكتبات •

اشتريت كثيرا من كتب سلامة موسى وكنا فى القرية نجتمع لنقرأ أجزاء من كتاب « تربية سلامة موسى » وقد قرأناه عدة مرات وتأثرنا به كثيرا ـ كانت أفكاره جديدة ومستنيرة تشدنا اليها وتفتح لنا آفاقا رحبة •

كذلك قرأنا كتاب « من هنا نبدأ » لخالد محمد خالد قرأناه مرات وتأثرنا به وأحسسنا كأزهريين بقربه منا لأفكاره الاسلامية المســـتنيرة •

لم يكن بالقرية ناد للشباب فكانت المصاطب ودكان المزينين والمقاهى والتجمع على البحر الصغير والمشى على ضفافه هى نوادى الشباب التى تجمعهم للحوار والمناقشة .

كنت أسكن فى الحلمية الجديدة مع خالى وبعض الطلبة الأقارب من البلد وكنا نسير للمعهد الدينى مشيا على الأقدام من مسكننا بحى الحلمية الى شارع المغربلين فالسروجية فشارع الأزهر حتى المعهد الدينى بالدراسة ، وفى الخروج نعود من نفس الطريق .. كانت عربات ساويرس تسير فى بعض هذا الطريق ، ولا يركبها تقريبا سوى النساء البدينات وهى تشبه عربة الكارو وعليها كراسى وحواجز خشبية وتجرها الخيول .

طلبت للتجنيد عـام ١٩٤٨ وتم اعفائى لقصر النظـر . وكان حفظ القرآن يكفى للاعفاء من التجنيد وقد ألغى ذلك قبـل طلب تجنيدى بعام .

فى القاهرة بدأت أتكشف بعض مظاهر الحياة فى المدينة .. حضرت بعض الندوات فى قاعة يورت بالجامعة الأمريكية وفى مقار بعض الأحزاب .

ومن قراءاتى بدأت أتطلع الى الحصول على بعثة فى الخارج ولكن هذه تتطلب تعلم لغة أجنبية فالتحقت بالمعهد البريطانى لتعلم الانجليزية وسعيت للحصول على الابتدائية الأميرية عام ١٩٤٩ ونجحت فيها وأعددت نفسى للحصول على البكالوريا ثم الثانوية العامة مع اسـتمرارى فى الدراسـة بالأزهر ، ولـكن الطموحات والتصورات عن المستقبل كانت تتغير من عام الى آخر فى هذه المرحلة من العمر .

الفصـــل الثـــانى

بواكير الوعى من العدل الاجتماعى الى الاشتراكيـة العلميـة

القراءة وبؤس الفلاح قادتنا للفكر الاشتراكى :

كنا فى القرية مجموعة من الأصدقاء شدتنا القراءة للتشوق للفكر الأشتراكى ، كمـا جمعنا طلب العـلم فى الأزهـر : أحمد عبد الرازق ويسبقنى بأربع سنوات فى الدراسة وعبد السلام خشان وعبد الحكيم الامام ويسبقانى بسنة واحدة فى الدراسة ثم أنا كنا أربعة وكان يلتف حولنا عدد من الأصدقاء الآخرين بعضهم طلبة فى الأزهر أو المدارس الأميرية والبعض الآخر من شباب الفلاحين . كنا الأربعة نتبادل الكتب ونتناقش حول الرؤى والمستقبل وقضايا الوطن والأمة ومشـــاكل القرية والفلاحين .. كرهنا الظلم والاستبداد وغضبنا لما نحن عليه من تخلف وما يسيطر على الناس من خمول وكسل وخضوع لسيطرة الأوهام والخرافات على عقولهم .. كان يستفزنا الوجود الاستعمارى فى بلادنا وتواطؤ الطبقات الحاكمة معه وخضوعها لأوامره وتعلقها بالارتباط به والتحالف معه .. كانت الملكيات الاقطاعية الكبيرة تمثل لنا طغيانا واستغلالا كريها لعرق الفلاحين ، ومع ذلك كان هؤلاء يساقون الى صناديق الانتخابات يقودهم السـماسرة ــ لانتخاب الباشا ــ أو من يسـانده الباشا

الاقطاعي .. كان الفلاحون الصغار أو العمال الزراعيون يعصرهم الفقر والجوع والفاقة وتحصدهم الأمراض والأوبئة ، ويسيطر عليهم الجهل ، وقد سدت في وجوههم سبل التعليم ، لا يقدرون على تعليم أبنائهم ، ولا يعرفون له طريقا وكان الاقطاع حريصا على أن تبقى الغالبية العظمى من الشعب على جهالتها .

طلب من « برهان باشا نور » التبرع لانشاء معهد المنصورة الديني فرفض محتجا وقال : تريدون أن يتعلم أبناء الفلاحين ؟! ومن يبقى لنا ليفلح أرضنا ؟!

من هنا أدركنا أن حياة الريف المصري البائسة لا منقذ لها الا المنهج الاشتراكي في التطور والتنمية فتشوقنا الى ثورة تقضي على هذا الاستقطاب الطبقي المستفز والتباين الحاد في الدخول وتنشد العدل الاجتماعي وتوزع الأرض على من يفلحها وتضع حدا أعلى للملكية وتفتح الباب لتصنيع البلاد ورفع مستوى شعبها .

كانت دراستنا للدين الاسلامي وما اشتمل عليه من دعوة للعدل والحرية والشورى والوقوف ضد الاحتكار واستغلال حاجة الناس ، والدعوة الى تقديس العمل واعتباره مصدر الملكية ومقياس التفاضل بين الناس ، والانتصار للأجير والحث على أن يعطى أجره قبل أن يجف عرقه ، والدعوة الى التكافل الاجتماعي ، وأنه ليس منا من يبيت شبعانا وجاره جائع ، وأنه لا مال لأحد فيما زاد عن حاجته ، لأن المال مال الله والناس عيال الله .

دراستنا هذه كانت معوانا لنا على سلوك هذا المنهج .

من هذه القيم والمبادىء الاسلامية تشوقنا الى العدل الاجتماعي الذي يلتقي مع الفكر الاشتراكي .

كانت قراءتنا لما كتبه الدكتور طه حسين عن المعذبين فى الأرض وعن الفتنة الكبرى وما كتبه ميخائيل نعيمة وسلامة موسى ، مددا يفتح لنا أبواب الأمل فى وطن متحرر من قوات الاحتلال يحتضن العدل والحرية ويجعلهما رمزا ومنارة لمسيرته نحو المستقبل .

من هنا تابعنا باهتمام شديد قضية مصر حين عرضت على مجلس الأمن عام ١٩٤٧ ، وتحمسنا لموقف جروميكو مندوب روسيا فى مجلس الأمن وتأييده لقضيتنا فى نفس الوقت الذى شعرنا فيه بالسخط والغضب من المفارقة العجيبة التى تمثلت فى موقف الحكومة المصرية ورئيس وزرائها النقراشى باشا ومندوبها الدائم فى الأمم المتحدة الذى رفض أن ينسق موقفه مع موقف مندوب روسيا لتأييد قضيتنا خوفا من غضب انجلترا عليه .

كان أهالى القرية يتجمعون فى الشارع أمام بيتنا وأمام بيت الشيخ امام ــ حيث لم يكن بالقرية مذياع آخر غير هذين الجهازين ــ ليسمعوا نشرة الأخبار من الراديو وكلمات المندوبين فى مجلس الأمن .

وبسبب حماسنا للعدل الاجتماعى وقراءتنا عن ثورات بلاد أخرى كنا نتوقع أن الاقطاع لن يستمر طويلا فى مصر ، بل ان الملكية نفسها لن تعمر كثيرا ، وأن بلادنا مقبلة على ثورة تقتلع الاستعمار وجذور أعوانه وكان الناس يتعجبون مما نقول ، ولا يصدقون امكانية وقوعه .

قلت ان تطلعاتى وتصوراتى للمستقبل كانت تتغير من عام الى آخر .. تبخرت فى ذهنى فكرة البعثة ومواصلة الحصول على شهادات المدارس مكتفيا بمواصلة الدراسة فى الأزهر مع الاهتمام

بالفكر السياسي ، وبدلا من النجاح الشخصي والمجد الفردي تبدى لي الوطن والمجتمع والشعب الذى يجب أن أهبه جهدي وتضحياتي — وجدت طموحي في العمل السياسي والكفاح من أجل مستقبل أكثر اشراقا للشعب والوطن — كنا نسمع عن الفكر الاشتراكي وعن تنظيمات تروج لهذا الفكر فأخذنا نتلمس الطريق اليها ، وحين وصلنا بها خيط أمسكنا به وأمسكت بنا ، لأنها وجدت مجموعة ناضجة وطموحة ولها جمهور وتأثير في بيئتها ٠

بدأنا الدعاية داخل القرية والقرى المجاورة ودخلنا في نقاشات حادة مع الطلبة من الاخوان المسلمين خاصة في دكرنس ، وكنا نسيطر على منبر الجامع ، فلا يعتليه أحد الا بموافقتنا ، ولا يستطيع واعظ المسجد وامامه أن يسمح لأحد بالخطبة اذا كنا نعارضه ، وحاول الاخوان أن يفتحوا لهم شعبة بالقرية ولكنهم فشلوا ، ثم حاولوا أن يأتوا بالدكتور خميس من المنصورة ليخطب في المسجد ويدعو للاخوان وقد انتهزوا فرصة وجودنا في الامتحانات بالقاهرة ولكننا حضرنا الى القرية قبل أن يتم ذلك ، وأجهضنا المحاولة ، ثم استطاعوا أن يقنعوا عددا من طلبة الأزهر من جيل أتى بعدنا وفتحوا بهم شعبة في منزل أحدهم ولكننا صممنا على أن نحتويهم حتى نجحنا في ذلك وضممناهم الينا وأصبحوا من أكثر المتحمسين لأفكارنا ٠

الوظيفة مع طلب العلم :

في ذلك الجو حاول الاخوان ترويع أهالينا فأشاعوا أننا تحت المراقبة وأننا مهددون بالاعتقال وأوهموا أهالينا بذلك فخاف الأهل علينا ، وألح على أخي بالتفرغ للدراسة فدفعني ذلك الى الاستقلال المادي والاعتماد على نفسي وأنه من الأصوب ألا أستنفد كل وقتي

فى الدراسة خاصة وأن المذاكرة لتحقيق النجاح لم تكن تحتاج منا الا الشهر الأخير السابق على الامتحان وطول العام كنا نقضيه فى العمل السياسى ، فالتحقت بمدرسة الصيارف بعد نجاحى فى النقل من الفرقة الثالثة الثانوى الى الفرقة الرابعة وكانت مدرسة الصيارف تمنح الطالب بها ثلاثة جنيهات مكافأة شهرية وكانت الدراسة بها لمدة سنة واحدة بمدرسة التجارة أمام جامع الظاهر بيبرس بميدان الخازندار بالعباسية • فى الصباح كنت أذهب الى المعهد الدينى بالدراسة للدراسة بالفرقة الرابعة ثانوى وفى المســاء أذهب الى مدرسة الصيارف لأتلقى دروسها ، وفى نهاية العام امتحنت ونجحت هنا وهناك وكان ترتيبى الأول على الجمهورية فى مدرسة الصيارف، ثم تدربت فترة الصيف عنـد أحـد الصيارفة بدكرنس لمدة ثلاثة أشهر ثم صدر قرار بتعيينى فى الدقهلية محافظتى وكنت الوحيد الذى عين فى محافظته وفى نفس الوقت تم انتدابى للعمل بادارة ضريبة الملاهى بالقاهرة بشارع عماد الدين مكافأة لى على تفوقى وكان العمل بهذه الادارة لا يصل اليه الا من كانت له واسطة كبيرة أو صاحب عمل متميز وعلاوة على هذا فقد كان هذا العمل ملائم لظروفى يمكننى من مواصـلة الدراسـة مع مهام الوظيفة وسعيت للنقل نهائيا من الدقهلية الى القاهرة ووفقت فى ذلك •

منذ السنة الأولى الثانوية كنت أسكن بشارع قره قول المنشية بالحلمية الجديدة مع خالى وبعض أقاربى من القرية .. كانت حياتنا تتسم بالتقشف فى المصاريف ، كان لكل واحد قدر محدد من الغذاء لا يكفى حاجة الشاب الحيوية ، كان الطعام ينتهى قبل أن يشبع البعض منا •

لم تكن لدى الكبـــار الذين سبقونا وتخرجوا بل وعملوا بالتدريس اهتمامات ثقافية أو سياسية لذلك لم تكن لديهم رغبة

فى شراء غير صحيفة يومية ويرفضون شراء الصحف الأسبوعية ، مع أنهم يقرءونها ان وجدت لكن دون أن يشتركوا فى دفع ثمنها ·· لذلك كنا نشتريها اما على حسابنا الخاص واما نحملها على المصاريف الجماعية التى كانت مسئولية أحدنا كلما لاحت فرصة ··

تفرق البعض عن هذا المسكن لزواجه واتخذ سكنا خاصا له وآثرت أنا وقريبى وصديقى الأستاذ أحمد عبد الرازق أن نتخذ سكنا مستقلا حتى تكون لنا الحرية فى انفاق ما يكفى حاجاتنا من المعيشة والحياة الثقافية فأجرنا حجرة واسعة فى حارة البابلى المتفرعة من شارع خيرت بالسيدة زينب كانت فترة أطلقنا عليها فترة تسمين ، كان صديقى يحب الأكل ويتفنن فى صناعته ويكثر من الحديث عنه حتى أننا كنا نأكل فى اليوم خمس أكلات ، وكأننا كنا نثأر من فترة المجاعة السابقة ·

فى الساعة الخامسة صباحا يوقظنى صاحبى للفطور الذى كان قد أسرع واشتراه من الشارع وأعده ، وفى التاسعة نأكل مرة ثانية ثم أخرج لمهام الوظيفة وهى تحصيل ضرائب الملاهى من عدد محدد من المسارح والسينمات فى دورة لا تتجاوز ساعة أو ساعتين ثم أذهب للادارة لتوريد ما حصلته فى الخزينة ، وحين أعود فى الساعة الواحدة والنصف تقريبا أجد الغذاء معدا ويطلب منى صاحبى أن أجلس فورا لتناول الطعام حتى قبل أن أخلع ملابسى ثم نأكل للمرة الرابعة بعد العصر والمرة الخامسة فى المساء ·

عرفت صاحبة الشقة فينا هذا النهم فساعدتنا عليه ، كانت حينما نخرج للسوق تسألنا ان كنا نريد سمكا أم لحما أم كبدة وهكذا فان كان سمكا نظفته وأعدته لنا ·

كان زميلنا الذى تركناه فى الشقة السابقة حين يأتى لزيارتنا يكون أول ما يهتم بمعرفته العثور على نوتة المصروفات التى كنا نضعها على أرضية شباك الحجرة فيتناولها ويقرأها ويهوله كميتها ويتعجب من حالنا وجرءتنا .

الكفاح المسلح :

فى ذلك الوقت كان الوفد فى الحكم وكانت الحركة الوطنية قد تصاعدت الى الكفاح المسلح فى منطقة القناة وتتابعت بطولات الفدائيين ضد معسكرات الانجليز بعد أن ألغى النحاس باشا معاهدة ١٩٣٦ فى أكتوبر ١٩٥١ ، كانت القاهرة تحتشد بالمؤتمرات والندوات والتجمعات والمظاهرات التى تطالب بتوزيع السلاح على الشعب وتدريبه ليخوض معركة الاستقلال وطرد المحتل من أرض الوطن بعد أن حفظت قضيتنا أمام مجلس الأمن وفشلت المفاوضات وتكونت اللجان الوطنية فى الأحياء والقرى لتقود حرب التحرير .

حريق القاهرة :

كان لابد للاستعمار والسراى والرجعية من أن تتآمر لانتكاس الحركة الوطنية فكان حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ بعد معركة الشرطة مع قوات الاحتلال فى الاسماعيلية فى ٢٥ يناير ١٩٥٢ .

كانت شوارع القاهرة تمتلىء يوميا بالمظاهرات تجوب أنحاءها تندد بالاستعمار وتطالب بالسلاح . فكان حريق القاهرة ردا على التحركات الشعبية هذه لاتخاذه ذريعة لاعلان الأحكام العرفية ولجم الحركة الوطنية ووقف الكفاح المسلح الذى كان يكتسب كل يوم أنصارا ويتعمق محتواه .

كنت فى ذلك الوقت بشرفة ادارة ضريبة الملاهى بشـــارع عماد الدين وشاهدت أعمالا ـ لابد وأن تكون منظمة ومعدة سلفا ـ رأيت رجالا يحملون كورا من القماش مثبتة فى أسياخ من الحديد يغمسونها فى البنزين ثم يشعلونها ويقذفون بها المسارح والسينمات والمحلات التجارية فى الشوارع الرئيسية بوسط المدينة ، ووسط الحريق انتشر السلب والنهب وعاشت القاهرة ليلة حالكة السواد ، وفى نفس الوقت الذى تشتعل فيه القاهرة كان الملك يستضيف كبار رجال الجيش فى قصر عابدين على وليمة واحتفال ملكى ، ولم يحدث هذا صدفة انما تم بتدبير محكم حتى يأخذ الحريق مجراه ثم ينزل الجيش بعد اعلان الأحكام العرفية لضرب الحركة الوطنية والزج بقادتها وبالفدائيين والأحرار من أبناء الشعب فى السجون والمعتقـــلات •

فى هذا اليوم فرضت الأحكـــام العرفية ومنع التجول فى الشوارع وحضر معنا فى حجرتنا صديق لى من المعهد الدينى وهو الطـــالب محمد عبد الجــــواد الدكرورى وقريب له هو الأستاذ عبد التواب يوسف كاتب قصص الأطفال ، تقابلنا صدفة بالقرب من مسكننا فلجأنا اليه لحظر التجول •

فى هذه الفترة ساد ارهاب الدولة وتخفى من بقى من المناضلين المعروفين عن الأنظار ، وبدأ هؤلاء يجتمعون سرا لمواجهة النكسة •

كانت حجرتنا مقرا لأحد هؤلاء الفـــارين من المطاردة وهو المرحوم الأستاذ عبد المنعم الغزالى مكث عندنا بعض الأيام وعقد فيها بعض الاجتمـــاعات السرية مع عدد من كوادر وأعضـــاء الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو) وزعماء الطلبة أذكر منهم د• يوسف ادريس والأستاذ سامى عبد الحميد والأستاذ محمود المحامى بعد ذلك •

فى كلية دار العلوم :

فى أثناء الوظيفة حصلت على الثانوية الأزهرية عام ١٩٥٢ وكانت سنوات الدراسة بها خمس سنوات وفى يوليو من نفس العام قامت الثورة وكانت الظروف المحلية والعالمية مواتية لنجاحها وقد مهدت لها الحركة الوطنية الأرض سياسيا وفكريا .

سافر زميلى الى القرية وانتقلت أنا الى مسكن آخر بشبرا وتقدمت للامتحان فى مسابقتين احداهما للالتحاق بكلية دار العلوم جامعة القاهرة والثانية للالتحاق بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ونجحت فى المسابقتين وأصبحت مقيدا فى الكليتين ، ولى أصدقاء هنا وهناك وكل منهما يريد أن أكون معه ، ومكثت حوالى أسبوعين أحضر هنا بعض المحاضرات وهناك البعض الآخر الى أن تغلب عندى اختيار كلية دار العلوم .

قامت الثورة فأيدناها :

أفرجت الثورة فى بداية قيامها عن المعتقلين والمسجونين السياسيين ولكنها أبقت على عدد من الشيوعيين فى المعتقل بدون افراج .. استقطبت الثورة تأييدا شعبيا واسعا خاصة بعد طرد الملك واصدار قانون الإصلاح الزراعى فى ٩ سبتمبر ١٩٥٢ الذى جعل الحد الأقصى للملكية مائتى فدان ثم عدل بعد ذلك لينخفض الى مائة فدان للأسرة .

ومما يذكر فى هذا الصدد أن الاخوان المسلمين لم يوافقوا على هذا التحديد وكانوا يرون ألا ينقص الحد الأقصى عن خمسمائة فدان .

أيدت « حدتو » الثورة من منطلق أنها تعبر عن أفكار البورجوازية الصغيرة والمتوسطة ، ولأول مرة يصدر تحليل عن حركة

الجيش باعتبارها تعبيرا عن فئات الشعب الذي اختزن آمالها وعبر عن آلامها ، وبدلا من أن يكون أداة فى خدمة الاستعمار والرجعية انحاز الى أحضان الشعب ضد جلاديه ، وكان المعهود قبل ذلك فى الفكر السـياسى التقدمى أن أى حركة من الجيش انما تعبر عن انقلاب لصالح الطبقات المسيطرة باعتبار الجيش أداة قهر فى يدها ولا يمكن أن يقيم الا سلطة للدكتاتورية العسكرية ..

كان هذا تحليلا جديدا قدمه تنظيم حدتو .. بينما رأى تنظيم الحزب الشيوعي المصري « الراية » أن حركة الجيش هي حركة فاشية يجب مقاومتها والتحالف مع القوى الرجعية للقضاء عليها .

بطرد الملك تم اعلان الجمهورية بعد فترة وبصدور قانون الاصلاح الزراعى أصبحت الكلمات المحرمة فى عهد الملكية مثل : ثورة ـ جمهورية ـ اشتراكية ـ اصلاح زراعى ، صارت هذه الكلمات مباحة ومحاطة بالاجلال والاحترام .

معـاداة الديمقراطيـة :

رغم استقطاب حركة الجيش لتأييد شعبى عارم ، وكان من المفيد الاستفادة من حركة الجماهير هذه فى تنظيمها وتحريكها والثقة فيها والاطمئنان اليها .

ولكن على العكس من ذلك تورطت الثورة منذ بدايتها فى اتخاذ مواقف صارمة وقاسية وظالمة ضد الطبقة العاملة حين قمعت حركة العمـال فى كفر الدوار وأعدمت قائدين لها وهمـا خميس والبقرى لترهب الطبقة العاملة وتحد من حركتها ومن تطلعاتها ، وكانت الثورة بذلك تحقق أمل قوى الرجعية فى الانحراف بسلطتها لتأديب الطبقة العاملة وتحجيم حركتها .

بدأت الثورة تأخذ اتجاها شموليا معاديا للديمقراطية وشجعها على ذلك وقدم لها التبريرات جماعة الاخوان المسلمين لتزيح من الســـاحة كل القوى الوطنية حتى يخلو لها الجو لتنفرد بالثورة وتفرض وصـــايتها عليها .. تلاقت نصيحة الاخوان مع الطبيعة العسكرية لقادة الثورة الذين يطلبون الطاعة التامة وعدم التجاوب مع الديمقراطية والشكل الجبهوى .

تدرجت الثورة فى ضرب الديمقراطية والحريات والغاء الأحزاب فطلبت أولا تطهير الأحزاب ثم ألغتها وأعلنت عن مرحلة انتقال مدتها ثلاث سنوات تنتهى فى يناير ١٩٥٦ ، وحتى تقضى على كل حركة منــاوئة قامت بحملة اعتقالات واسعة ومتــوالية للنقابيين والوطنيين والديمقراطيين والتقدميين وأنصار السلام وقامت الأجهزة الأمنية بتلفيق القضايا لتبرير عمليات القبض والاعتقال والسجن ، وقامت بمقاومة أى شكل من أشكال التنظيم النقابى أو التعاونى أو الفئوى .

ففي قريتنا حاولنا تكوين اتحاد للفلاحين فقام الاخوان المسلمون بالارشاد عن الاجتماع الذى كان يتم فى القرية علنا ، فقامت قوة كبيرة من الأمن بمداهمة الاجتماع والقبض على كل من فيه وأودعتهم سجن المركز ، فقام أهالى القرية بحصـــار المركز والضـــغط على المسئولين حتى تم الافراج عنهم بعد عدة أيام واحتفلت القرية احتفالا صاخبا بهذا الافراج .

وأذكر أننى كنت وقتها بالقاهرة فجاءنى من القرية الزميل منير الامام وكان طالبا بمدرسة الصنائع وأخبرنى بالواقعة فذهبت الى جريدة المصرى وقابلت الأستاذ عبد المنعم الصاوى وكان وقتها سكرتيرا للجريدة ونشر الخبر فى اليوم التالى .

التحقت بكلية دار العلوم عام ١٩٥٢ ودخلت امتحان الصف الأول عام ١٩٥٣ ونجحت وانتقلت الى الصف الثانى وفى هذه السنة كنت أسكن بشبرا وأنشط بها سياسيا وتنظيميا وأذهب الى عملى بشارع عماد الدين والى الكلية قليلا لنقل المحاضرات ومعرفة المقررات وتقديم الأبحاث العلمية المطلوبة .

كان صديقى وزميلى بالقرية عبد السلام خشان طالبا بكلية أصول الدين وذهب ليسكن مع بعض المحترفين السياسيين بشبرا ، وكان عندى سرير حديد زائد بعد أن اشتريت سريرا خشبيا تم تصنيعه بالبلد فطلب منى أن يأخذه ليضعه فى مسكنه لينام عليه زميل آخر ، وكانت المباحث قد اخترقت بعض الخلايا وتعرفت على هذا المكان فهاجمته وقبضت على من فيه وكان عبد السلام خارج الشقة لا يعرف أنها هوجمت ، وحين ذهب اليها فوجىء أمامه بالعساكر ومخبرين فرجع الى الشارع وجرى فجرى وراءه بعض المخبرين حتى أمسكوا به وأخذوه الى القسم فتظاهر بالسذاجة وأنه قروى ودخل ليسأل عن سكن وحين فوجىء بالعسكر خاف وجرى وأنه طالب بكلية أصول الدين ، وحيث أنهم فى القاهرة لا يعرفون عنه شيئا وأن المكان الذى حام حوله قريب من كليته لذلك أفرجوا عنه .

وضاعت الشقة وضاع ما فيها ومنه سريرى ، وكان أخى يسأل عنه ويطلب ارساله الى البلد فقلت له عليه أن يطلبه من المباحث العامة !!

نقلت وظيفيا من المنصورة الى القاهرة حسب طلبى وحين رغبت فى البقاء فى ادارة ضريبة الملاهى رفض الرؤساء فى المحافظة وأصروا على أن أنتقل الى مأمورية مالية قسم خامس (عوائد) بشارع خيرت لحاجة العمل فذهبت واستلمت عملى هناك .

الفصـــل الثـــالث

من السجن الى الاعتقال والفصل السياسى

فى السجن لأول مرة :

كانت النورة لا تكف عن القبض على كل من تحوم حوله شبهة معارضة أو رأى مستقل وتضع كل مجموعة فى قضية بتهمة قلب نظام الحكم ، وحتى تثبت براءتهم يكون قد مر عليهم فى السجن عدة شهور تردعهم عن العمل السياسى ·

فى أوائل أغسطس ١٩٥٣ ســـافرت الى دكرنس فى مهمة تنظيمية أثناء انقسام (ت ث) عن حدتو وكان هناك اعداد لمؤتمر السلام الذى سيعقد فى برلين وحين عدت الى القاهرة وذهبت الى البيت علمت من البواب ومن السكان الذين يسكنون معى أن المباحث قد جاءت منذ يومين بعد منتصف الليل للتفتيش وللبحث عنى وأن البواب أنكر أننى أسكن فى المنزل ورفض فتح بوابة المنزل فتشككوا فى العنوان وذهبوا ثم عادوا اليه وهددوه ففتح لهم البوابة وصعدوا الى الشقة وطرقوا الباب مرات عديدة ولم يرد عليهم أحد رغم أن الشقة كان بها بقية السكان ، ولكن لكثرة ضيوفى وغيابى وبسبب الوقت المتأخر سكتوا عن الرد ولم يفتح لهم أحد ، فرجعت القوة وهى تظن أنها أخطأت فى العنوان ·

حين علمت بذلك نظفت سكنى من كل الأوراق والأجندات وأسماء الأصدقاء لأنهم يقبضون على كل من يجدون اسمه بشكل عشوائى ، ونزلت خلسة من الشـــوارع الجانبية وذهبت لمعرفة الأخبار من بعض الزملاء بشبرا فعلمت بأنه تم القبض على عدد من الرفاق فذهبت للمبيت عند أحد الأصدقاء بالامام الشافعى .

وفى الصباح من يوم ١٢ أغسطس ١٩٥٣ ذهبت للقيام بعملى بعد اجازة قصيرة وخرجت مع عسكرى حراسة من المأمورية لتحصيل العوائد من مشيخة أثـر النبى وحين عدت الى المأمورية وجدت فى البلكونة بعض الوجـوه الغريبة كانت تنتظرنى فأحسست بالخطر وكان مكتبى فى الدور الأول فقلت أصعد للدور الثانى لأرى ماذا ستفعل هذه الوجـوه فاذا بها تتبعنى فعرفت أننى مقبـوض على فدخلت على مأمور المأمورية فوجدت عنده ضابط القوة التى حضرت للقبض على فسـلم على بالاسم وذكر لى مهمته وقامت المأمورية بتعيين بعض الموظفين لاستلام أوراقى ومتحصلاتى لتوريدها .

كانت هذه أول مرة يتم فيها القبض على وأتعرف فيها على أقسام البوليس وسجون مصر وكان هذا فى مناسبة عيد ميلادى الرابع والعشرين والذى لم أحتفل به قبل ذلك أبدا .

صحبتنى القوة لتفتيش الشـــقة ولم تعثر على شىء وكان للشقة حجرة منفصلة على السلم وبها كثير من كتب التراث والكتب والأبحاث الدينية واللغوية ومن الكتب المقررة فى الدراسة بالأزهر ودار العلوم وهى خاصة بى وببعض الزملاء من طلبة كلية أصول الدين .. فأرشد القوة عن هذه الحجرة أحد سكان الشقة بسذاجة فظنت القوة أنها عثرت على غنيمة وعلى أدلة تدينني حين فتحت الحجرة ووجدت كما هائلاً من الكتب ولكنهم بعد بحث وجهد خرجوا بخف حنين .

أخذوني الى قسم العباسية وأخذوا معي هذا الساكن وهو موظف صغير يعمل بالمحكمة المختلطة (محكمة الاستئناف) وليس له صلة بالسياسة فقلت لهم هذا الشاب مسكين لا صلة له بشيء فاتركوه ولكنهم أودعوه الحبس ليلة ثم أفرجوا عنه في الصباح ٠

في هذه الليلة رأيت فيها لأول مرة أقسام القاهرة وقذارة الحبس فيها وأدركت كيف يهان الانسان في مصر وتنعدم آدميته في مكان لا يصلح حظيرة للحيوانات ٠

في اليوم التالي أخذوني الى الداخلية وفي الطريق اشتريت الجريدة وعلمت منها القبض على قضية شيوعية من ٦٨ شخصا وحاولوا التحقيق معي وأمسكوا بي لمعرفة خطي فرفضت الاستكتاب والاجابة عن الأسئلة حيث لا مبرر للقبض على فليست هناك مضبوطات ولا أدلة ضدي وكانوا يحاولون استكتاب المقبوض عليهم ليتعرفوا على من كتب بعض المضبوطات التي وجدوها عند بعض المقبوض عليهم ٠

أودعوني قسم الخليفة حيث وجدت هناك بعض الزملاء ، ثم رحلونا الى سجن مصر ٠

هذا السجن يقع على بعد خطوات من حي القلعة ويسمى أيضا « أراميدان » وهو من السجون التي بناها الانجليز ويتكون من عدة عنابر يحتوى كل عنبر على أربعة أدوار وبكل دور خمسون زنزانة مقسمة الى جناحين في مواجهة بعضهما وكل جناح به خمس وعشرون زنزانة ويربط بين هذه الزنازين ممر دائرى وبجوار هذه العنابر توجد زنازين للتأديب يحرم نزلاؤه من السجائر والجرائد والكتب ومن الفسحة والزيارة ومن أى طعام غير الفول ، وزنازين التأديب

مظلمة لا ترى النور وتمتلىء جدرانها وسقفها بالقمل وأسراب البق وتقفز فى أجوائها جيوش البراغيث وينام المسجون بالزنزانة دون فرش أو غطاء .

ونزلاء سجن مصر من غير السياسيين يجمعهم الضياع وفقدان القيم وهم خارج عن أى تصنيف طبقى يتوزعون بين نشالين وهجامين وسماسرة وقوادين ومختلسين ومزيفين ونصابين وتجار مخدرات .

وكثيرا ما كان يطرق أسماعنا فى سكون الليل نشيد من أحد الزنازين كاعلان عن الافراج عن أحد سكان هذه الزنزانة .

واحد ياورد .. اثنين يافل .. ثلاثة يا ياسمين .. أربعة ياأجدع ناس معلمين ، خمسة ياكركية وبقية الدور لومانجية .. ستة يازهرة الشباب والحركة الوطنية ، سبعة ياقرانات ولومانجية ثمانية يارجالة حى البطلية .

وينتهى النشيد بالتعريف بالمفرج عنه .. ومع أن هذا المفرج عنه قد يكون نشالا أو لص خزائن أو تاجر مخدرات فانه يضفى عليه ألقاب التفخيم والتعظيم ، فهو من أعيان حى بولاق أو روض الفرج مثلا ، وينتهى الاعلان بأنه خارج افراج بكرة ، وعقبال عندنا وعندكم ياحبايب .

هذا النشيد اشتمل على بعض مصطلحات السجون المتداولة بين نزلائها ، ويقوم النزلاء القدامى أو السجانة بشرح هذه المصطلحات لنا ، فمصطلح الكركية يعنى المستجدين فى السجن لأول مرة ، واللومانجية يعنى الفاقدين ، أما القارانات فهم أصحاب المدد الطويلة فى السجن . أما تصنيف سكان دور ستة بأنهم زهرة

الشباب والحركة الوطنية فيقصد به الثوار من السياسيين والطلبة حيث كانوا يوضعون فى هذا الدور من أيام الحكم الارهابى لاسماعيل صدقى باشا .

بعد أيام من اقامتنا بسجن مصر أخذونا مجموعات عدة مرات لمحكمة باب الخلق للمثول أمام النيابة للتحقيق ، وكنا قد اتخذنا قرارا بمقاطعة النيابة باعتبارها أداة للدكتاتورية العسكرية . وكان موقف « حدتو » قد تعدل من تأييد الثورة باعتبارها ثورة وطنية الى معارضتها باعتبارها انقلابا عسكرية أقام دكتاتورية عسكرية يجب الوقوف ضدها ومحاربتها حتى اسقاطها ولذلك كنا نهتف طوال الطريق من السجن وحتى المحكمة وأثناء مرورنا فى المحكمة حتى وكيل النيابة ثم العكس « تسقط الديكتاتورية العسكرية » .

ورفضنا الاجابة عن أسئلة النيابة معللين المقاطعة بأن هذه قضايا ملفقة وأن النيابة ليست أكثر من أداة فى يد الدكتاتورية العسكرية التى يجب أن تسقط لعدم شرعيتها .

مكثنا فى السجن حوالى ستة شهور ، كنا نلبس ملابسنا المدنية وتقدم لنا وجبات غذائية من متعهد خارج السجن ، فكان لكل فرد عمود به لحوم وأرز وخضار وفاكهة وفى الصباح جبنة وعسل وخبز أو فول وطعمية وفى المساء حلاوة وصنف آخر وعيش ، ولكل منا الحق فى أن يشترى من الكانتين ما يريد وكانت لنا زيارات من الأهالى .

كان هناك فرق فى المعاملة بين المسجون السياسى وبين المسجون العادى وكان المساجين العاديون يخدمون عنبرنا وكان الشاى يأتى ليوزع علينا وكنا نخرج يوميا للفسحة مرتين فى

الصباح وفي العصر ، صحيح كانت المعاملة أقل مما كان يعامل به المسجون أو المعتقل السياسى فى عصر الملكية لقد انحدرت لكنها حافظت على بعض الاحترام لآدميتنا وان كان هناك اهمال فى علاج المرضى . ذهبت لطبيب السجن أشكو من جزع فى ذراعى فكتب العلاج « حديد وزرنيخ » فرفضت العلاج محتجا بأن ما أشكو منه ليس تعبا بالأمعاء ولا علاقة بين ما أشكو منه وبين هذا العلاج ، فاشتكى الطبيب لادارة السجن فحكمت على بالتأديب أسبوعا ورغم قوة حجتي فقد أخذوا بأقوال الطبيب وقبل أن أكمل عقوبة التأديب جاء قرار الافراج عني :

كان فى كل زنزانة سرير وحتى الزنازين التى ليس بها أسرة كان يوجد بها مراتب .

كانت هذه هي المرحلة الممتازة فى معاملة السياسيين فى السجون فى عهد الثورة .. هذه المعاملة التي ستنحدر بآدمية الانسان بعد ذلك كما سيتضح فيما بعد .

الافراج من النيابة :

لم تجد النيابة ما تدين به أغلبية المقبوض عليهم ، وثبت عدم جدية الاتهام فى هذه القضية فأصدرت قرارها بالافراج عنهم وكنت أحدهم في أول فبراير ١٩٥٤ بعد أن قضينا ستة أشهر محرومين من حريتنا ومن دراستنا بلا مبرر سوى رغبة السلطة فى ارهابنا واشاعة جو من الرعب والخوف يدفع الناس الى الصمت والسلبية .

خرجنا الى الحرية وكان على أن أسرع الى الكلية لمعرفة مناهج الفرقة الثانية ونسخ محاضرات أغلب شهور السنة التى فاتتنى وتقديم بحثين للكلية حسب ما هو مطلوب منى ، واستطعت أن أنجز

ذلك فقدمت بحثين أحدهما عن الأدب والحياة وهو يحتاج الى جهد والثانى فى النحو والجهد المطلوب له محدود يتفق مع ضيق الوقت .

كنت فى الفرقة الأولى قد قدمت بحثين أيضا الأول عن « السوفسطائيون وكيف مهدوا لفلسفة سقراط » والثانى عن « القومية العربية » .

وأذكر أننى قدمت فى الفرقة الثالثة بعد ذلك بحثا عن « عودة الروح » لتوفيق الحكيم .

اجتزت الامتحان آخر العام بنجاح وبذلك انتقلت الى الفرقة الثالثة .

هبة مارس ١٩٥٤ :

حين خرجنا من السجن فى بداية فبراير ١٩٥٤ كانت البلد تغلى ، وكانت التناقضات قد تصاعدت بين رجال الثورة وانعكس ذلك على أسلحة الجيش المختلفة حتى وقفت بعض الأسلحة فى مواجهة بعضها الآخر حسب موقف الممثلين لها فى قيادة الثورة ، كان محمد نجيب رئيس الجمهورية والرئيس الرسمى لمجلس قيادة الثورة قد أخذ موقفا منحازا للديمقراطية والأحزاب ومغايرا لموقف أغلبية قيادة الثورة ، وبدا وكان تيار الديمقراطية فى صعود حتى أصدر مجلس قيادة الثورة فى فبراير قرارات بعودة الجيش الى ثكناته وباعادة الديمقراطية والحكم المدنى الى البلاد ، واستكان الناس الى هذا الموقف الملاين والمراوغ ، ثم فى الخفاء تحرك عبد الناصر وأعوانه : طعيمة والطحاوى اللذان كانا يقودان هيئة التحرير وعلى صلة بالحركة العمالية واستطاعا أن يحركا بعض

قطاعات العمال خاصة عمال النقل المشترك للهتاف بسقوط الحرية والهجوم على مجلس الدولة وضرب رئيسه القانونى البارز الدكتور عبد الرزاق السنهورى والمطالبة بالغاء قرارات فبراير الديمقراطية واستطاع عبد الناصر أن يناور مع الاخوان المسلمين فيفرج عنهم فى مقابل عدم مساندتهم لدعاة الديمقراطية وعودة الأحزاب ، وهم كانوا دائما ضد الأحزاب ويطالبون بحلها لتخلو لهم الساحة وحدهم فيفرضوا وصايتهم على الثورة ، واستطاع عبد الناصر أن يكسب الجولة ويلغى قرارات فبراير الديمقراطية ويعود الى الامساك بزمام السلطة منحيا عنها من الناحية الفعلية محمد نجيب ومن يؤازرونه فكانت هبة مارس ١٩٥٤ منددة بانتكاس مجلس الثورة وانقلابه على قرارات الديمقراطية وبذلك رفضت الثورة منح الحرية للجماهير التى أيدتها وساندتها ، بينما أسعدت القوى الرجعية والاستعمارية التى ترفض الثورة .. ضربت الثورة أصدقاءها وأسعدت أعداءها .

قابلت الثورة اضرابات ومظاهرات الطلبة فى هبة مارس بالعنف والمطاردة وتكثيف حركة الاعتقالات وافتعال القضايا للزج بأكبر عدد ممكن من الديمقراطيين والتقدميين والنقابيين الشرفاء وراء الأسوار .

وفى المنصورة واجهنا عبد الناصر فى مؤتمر شارك فيه الأستاذ اسماعيل الأزهرى الزعيم السودانى واجهناه بالهتاف : « المفاوضات طريق الخيانة » ـ « الكفاح المسلح طريق الجلاء » ومن بيننا قبض يومها فى المظاهرة على الأستاذ عبد الله الزغبى المحامى ، وكان عبد الناصر يجرى مفاوضات مع الانجليز انتهت بعدها بمعاهدة « جمال ـ هيد » .

بعد خروجي من سجن مصر في أول فبراير ١٩٥٤ عدت الى عملى بمأمورية مالية قسم خامس بشارع خيرت وسكنت فى حارة عبد الرازق ببركة الفيل مع بعض الطلبة من قريتى وحرصت على اخفاء مسكنى عن مراقبة المباحث العامة حتى لا أيسر لهم عملية متابعتى وازعاجى ٠

كان معى اشتراك لجميع خطوط الترام ، فكنت أركب الترام بعد أن يتحرك من المحطة وأنزل فى المحطة التالية أو التى تليها ثم أتسلل داخل الشوارع والحوارى الضيقة حتى أصل الى مسكنى وفى العودة أقوم بمثل هذه التحركات للتمويه وحتى لا يتأكدوا من حقيقة مسكنى ٠

حين اقترب شهر يوليو وهو عيد قيام الثورة وكان من المعتاد أن تقوم الحكومة فى مثل هذه المناسبات بحملة للقبض على من بقى حرا من المعارضين ، وحتى أتحاشى هذا أخذت اجازتى وسافرت الى قريتى وهنـاك دخلت مستشفى أحد أطباء الجراحة لاجراء عملية بواسير ثم عدت الى القاهرة بعد أعياد الثورة وبعد اجراء العملية الجراحية ، ومما يذكر أن المباحث العامة قبل أعياد الثورة ذهبت فعلا لمسكنى ببركة الفيل للبحث عنى ولم أكن بالطبع موجودا وأخبرهم من بالشقة أننى لا أسكن فيها ٠

وفى العباسية قمت بتأجير سكن لى مع أختى وزوجها الذى كان مجندا بالجيش وحرصت أيضا على اخفائه وعدم معرفة مكان سكنى ٠

فى المعتقل مرة أخرى :

ولكن فى أكتوبر ١٩٥٤ ــ بعد محاولة الاخوان المسلمين اغتيال جمال عبد الناصر فى ميدان المنشية بالاسكندرية ــ جاءنى مخبر فى

مكان عملى يطلب مني الحضور معه الى وزارة الداخلية لمدة نصف ساعة فقط فذهبت فأودعوني في حبس قسم عابدين لمدة حوالى ١٥ يوما أنام على الأسفلت دون فرش أو غطاء أو طعام مع المجرمين واللصوص والمنحرفين بل والمنحرفات ممن قبض عليهن بواسطة بوليس الآداب من فتيات الليل ولا يفصلنا عنهن الا باب به بعض الثقوب التى يتبادل منها الرجال والنساء الحوار الجارح أحيانا للحياء وكان معى عدد ممن قبض عليهم على ذمة الشيوعية لم أعرفهم قبل ذلك منهم مصطفى بهيج وحمدى حمدان وعدد متتابع من الإخوان المسلمين .

اتصلت المباحث العامة بى بالقسم وحاولت الضغط على لمعرفة سكنى لتفتيشه فرفضت لأنه ليس من مهمتى مساعدتهم على ذلك .

لقد إنفتحت شهية الحكومة لإعتقال كل من لا يدين لها بالولاء التام والطاعة الكاملة لم تكتف باعتقال الاخوان الذين دبروا محاولة الإغتيال ، وانما انتهزتها فرصة لضرب الجميع وانفتحت بوابة جهنم - إنفتحت بوابة التعذيب والحرمان والتنكيل حتي ممن لا صلة لهم بمؤامرة الاغتيال .

نقلت من قسم عابدين الى تخشيبة روض الفرج وهناك وجدت تجمعا كبيرا من المعتقلين على ذمة الشيوعية ، ومكثنا بالتخشيبة ليلة ثم رحلنا الى أوردى ليمان أبى زعبل لنفتتحه لأول مرة بعد أن أخلوه من المساجين العاديين .

فى أوردى ليمان أبى زعبل :

على بعد أربعين كيلومترا من القاهرة أقيم ليمان أبى زعبل الذي أنشيء أصلا لإيواء معتادي الاجرام وعتاة المجرمين وهو يقع فى الجهة الشرقية من السكة الجديد بينما يقع أوردي ليمان

أبى زعبل في الجهة الغربية ، وتبلغ المسافة بينهما كيلومتر ونصف، وقد بني الانجليز الليمان والأوردى .

والليمان بالتركية معنـــاه السجن وهو مخصـــص للأحكام الطويلة ، أما الأوردي فمعناه الملحق فهو ملحق لليمان يستعمل كعزل صحي أو تأديب بعض المشاغبين أو لعزل النزلاء الجدد حتى يتم ترويضهم على حياة الليمان والعمل الشاق بالجبل .

ويقال ان مئات من نزلاء الأوردى قد قاموا فى عهد الملك فاروق ببناء قصر المنتزه بالاسكندرية واقامة الحدائق حوله ، وقد راح ضحية هذه الســخرة اللاانســانية والعمل المجهد عشرات من المســجونين .

الأوردى عبارة عن مربع كبير يحيط به سور شاهق يرتفع عدة أمتار ويحيط بالسجن من جهاته الأربع ، وفى كل زاوية من زواياه الأربع يرتفع برج خشبى يقف فيه حارس طوال الأربع والعشرين ساعة يحمل مدفعا رشاشا سريع الطلقات ، ويصل الحارس الى هذا البرج عن طريق سلم من خارج الســور ، بذا يســتطيع الحراس الأربعة من هذه الأبراج وعلى هذا الإرتفاع مراقبة كل ما يجرى داخل السجن والسيطرة على أي تحرك داخله .

وفى منتصف الضـــلع الشرقى من هذا الســـور تقع البوابة الوحيدة للسجن وهى بوابة خشبية مصفحة ضخمة عليها حراسة دائمة ومحـــكمة ، وأمام تلك البوابة يقع مكتب قائد الســـجن وضـــباطه .

ويحتوي السجن من الداخل على ستة عنابر مستطيلة من طابق واحد ولكل عنبر باب واحد وأرضية العنابر ـ حين وصلنا اليه ـ رملية رطبة وامتدت الرطوبة الى أجزاء من جدرانه ، وعرض

العنبر خمسة أمتار وطوله حوالى الأربعين مترا ، وفى وسطه تتدلى من السقف لمبة كهربائية خافتة الضوء وتحت اللمبة برميل مكشوف به مياه يعلوها ريم وطحالب وكائنات تتحرك فيها ، فليس بالسجن مواسير مياه بل تجلب المياه من الليمان يحملها المسجونون العاديون على ظهورهم فى خزانات (تانكات) مستطيلة من الألمنيوم ثم يصبونها فى هذه البراميل وهى على حالها دون تنظيف ، ومياه هذه البراميل للشرب ولاستعمالات الانســـان الأخرى ، وفى نهاية العنبر توجد قاعدة كابينية (تواليت) بلدى مكشوف تماما فليس حوله أى جدار أو ساتر وعلى من يقضى حاجته أن يفعلها أمام كل الموجودين فى العنبر وفى جدران كل عنبر فتحت سبع عشرة نافذة مساحة كل منها ٤٠ × ٦٠ سنتيمترا وهذه النوافذ بقضبان حديدية وليس لها شيش أو زجاج فهى مفتوحة دائما لتصب على النزلاء زمهرير الشتاء ولواقح قيظ الصيف .

وهذه العنابر بهذا الشكل تذكرنا بعصور العبيد فهى لا تصلح ولوافح قيظ الصيف .

بجوار هذه العنابر الستة يوجد على يمين الداخل من البوابة حجرات الملاحظة والمغسل والغلاية والحمام وهذه يقبع خلفها عنابر ٤ ، ٣ ، ٢ ، ١ أما على يسار الداخل فتوجد حجرة الترميم وحجرة المخزن ويمتد وراءهمـــا عنبر ٥ ، ٦ ووراءهما زنازين التأديب والسجناء الجنائيين الذين يخدمون فى مرافق السجن ومساحة كل منها ٢ × ٢ من الأمتار وأمام هذه الزنازين يمتد فناء السجن .

والأوردى بهذا الشكل يصبح سجنا نموذجيا فى مفهوم قوى الظلم والارهاب لسهولة حراسته والتحكم فيه والعزل التام لنزلائه عن الخارج واستحالة الهرب منه ، فسجان واحد يستطيع من خلال العين السحرية ـ المثبتة فى باب كل عنبر ـ مراقبة كل حركة ،

داخل العنبر بعد غلقه وأى صوت داخل العنـــابر تحمله النوافذ المفتوحة الى الحراس خارجهـا ، وأى حركة داخل السجن يستطيع الحراس من على أبراجهم الخشـبية أن يرصدوها ويتحكموا فيها برشاشاتهم .

حين دخلنا هذا السجن لأول مرة كمعتقلين فى أوائل نوفمبر ١٩٥٤ شعرت بانقباضة فى القلب ، فالعنابر صفراء مستطيلة أشبه بالمقابر ، كانت غاية فى الانحطاط والاهمال لا تصلح حتى كمربط للحيوانات ، فالمياه النقية منعدمة ويصعب على الانســان أن يقضى حاجته دون حرج شديد ، مناظر انعدمت فيهـا كل مظاهر المدنية والتحضر وعاد الانسان حيوانا بدائيا لا تستره حتى ورقة التوت .

أعطوا لكل منا برشا وبطانية فكان البرش يغوص فى الرمل والرطوبة ، وكانت الرطوبة تتسلل الى أجسامنا والرمل يختلط بطعامنا وبكل محتوياتنا .

لقد أودعنا هذا السجن بملابسنا المدنية ، كان الطعام يقدم لنا عن طريق المتعهد ، ولكن المكان غير مؤهل تماما حتى لسكنى الانسان البدائى ، كان هذا المكان هو البداية الأساسية فى انحطاط معاملة المعتقلين السياسيين من جانب الحكام الجدد .

شكونا من وضعنا السىء الذى تنعدم معه الشروط الصحية ، لقد شـعرنا بأن الاستمرار على هذا الوضـع سيصيبنا بالأمراض لا محالة ، فحاولنـا أن نقلل من مسـاوئه فضربنا كمية من الطوب من الطين وبعد أن جفت بنينا فى كل عنبر مصطبتين عرض كل منهمـا متران بطـول العنبر حتى قرب نهايته وارتفاعها ثلاثون سنتيمترا وبينهما طرقة بطول العنبر ، وبنينا جدرانا لدورة المياه ووضعنا لها ستارة .

طالبنا بتحسين أحوالنا خاصة ضرورة أن يكون لكل معتقل سرير ومرتبة ينام عليها ، كما طالبنا بتحسين الطعام والسماح لأهالينا بالزيارة وبدخول الملابس والأغذية لنا والسماح للطلبة بحضور الامتحانات .

كانت هناك بعض المضايقات وكانت بعض الرسائل أو النقود التى ترسل الينا تضيع ، ففى احدى المرات جاءنى شيك من مكان وظيفتى وأراد كاتب السجن ان أوقع عليه ليصرفه فرفضت وطلبت أن أكتب توكيلا لخالى ليصرفه فتضايق وذهب الى الضابط يدعى أننى اعتديت عليه وضاغبته فعاقبتنى ادارة السجن بضربى بالفلكة على رجلى فتورمتا فأخذت أجرى عليهما كثيرا حتى يخف الورم .

اضراب عن الطعام يقابل بالجلد والتعذيب :

تعددت شكاوانا دون جدوى فقررنا الاضراب عن الطعام فى يوليو ١٩٥٥ اتخذ قرار الاضراب الحزب الشيوعى المصرى الموحد الذى كان قد توحد فى ٥ فبراير عام ١٩٥٥ ورفض تنظيم كل من « الراية » و « د . ش » دخول الاضراب معنا .

قام أطباؤنا وكان منهم الدكتور يوسف ادريس وطالب الطب عبد الحميد السحرتى بالكشف علينا للتأكد من سلامة القلب والنبض ومن قدرة كل منا على تحمل الاضراب عن الطعام ، كان نبضى قليلا وقويا وقالوا ان هذا هو مقياس الرياضيين .. أخذنا حقنا شرجية وشرب ملح ونظفنا أمعاءنا من فضلات الطعام .

دخلنا الاضراب على دفعات ، ولم تعترف ادارة السجن فى بداية الأمر باضرابنا . كنت من بين الدفعة الأولى وبعد أيام بدأت أشعر بالتسامى وبصفاء ذهنى لم أشهده قبل ذلك حتى اننى قرأت

كتابا عن فلســـفة هيجل وفيورباخ ـ وهو من أصعب الكتب ـ واستوعبته بسهولة .

في اليوم التاسع من الاضراب حضرت تجريدة ضـــخمة من العساكر على رأسها اللواء اسماعيل همت وكان معروفا باجرامه وقسوته وحبه المرضى للعنف ـ دخل الجنود علينا العنابر في هجوم تترى وهم مسلحون بالبنادق وبالشوم يضربون ويكسرون كل من وجدوه ، كانت معركة رهيبة سالت فيها الدماء وأصيب الكثيرون بكسور في رؤوسهم وصدورهم وفي اذرعهم وأرجلهم ونهبوا كل ما وجدوه من ملابس وبطاطين ومحتويات خاصة ونظارات ولوازم شخصية .

كان ينام بجانبي الشـــاعر فؤاد حداد ـ وهو مضرب مثلي عن الطعام من الدفعة الأولى ، وكذلك كان كل من بعنبر واحد الذي اخليناه وخصصناه لمضربي الدفعة الأولى ـ تكسرت ذراعه ولم يعالج وبعد سنة من هذه الحادثة خرج من المعتقل وذراعه بها اعوجاج بسبب الكسر الذي أصيب به ، وترك حتى التأم على حالة الكسر ، وكذلك الفنان زهدي جرح في رأسه ولطخت الدماء وجهه ، ومع ذلك لم ينج من الضرب المبرح .

أجبرونا على الخروج من العنابر بين صفين من الجنود الذين يتناولون بالضرب كل من يمر من بينهم حتى أصبحنا خارج السجن وقد نصبت العروسة أمام بابه لجلدنا ـ والعروسة هي حامل خشبي يشبه الصليب لها فتحة في أعلى تطل منها الرأس ويربط المسجون عليها عاريا ليضرب بالكرابيج التي تصنع من حبال خاصة بها عقد وتوضع ليلة في جردل به ماء وملح وكل ضربة تترك بصماتها على الظهر جروحا ودماء تنزف وتترك أثرها لسنوات عديدة .

كان اللواء اسماعيل همت يقف خارج السجن بين حشد كبير من الضباط والجنود وأطباء السجن ووقف الجلادون أمام العروسة وانتزعوا منا الواحد بعد الآخر ليجلد عليها ٠

كان بيدى ســـــاعة ففوجئت بشومة تنزل على رأسى من شاويش يطالبنى بأن أنزع ساعتى وأسلمها له ، ففقدت وعيى للحظة ثم أفقت ورفضت فأراد أن يكسرها فى يدى فأخفيتها ، وأصررت على عدم تسليمها له ، ولما يئس ــ وكان دورى قد حل ــ جذبنى الى العروسة وربطوا ذراعى ورجلى عليها وضغطوا على رأسى من فتحة العروسة العليا ثم أخذ الجلاد فى الضرب كانت كل ضربة تترك بصماتها على ظهرى وتنزف منها الدماء وهكذا استمروا حتى تحــول ظهرى الى قطعة حمراء قاتمــة كالكبد شرحت خطوطا دامية متجاورة استمر أثرها لعدة سنوات ٠ ثم قيدونا فى الحجلة (وهى جنزير طويل به مجموعة من الكلبشات تقبض على المعصم وكل كلبش به حلقتين يضم فردين معا يمر من بينهما هذا الجنزير بطول خمسة عشر مترا تقريبا ٠

ثم أخذوا فى ضربنا حتى نركب السيارة ، ولعدم اتمام الركوب بانتظام أحدثت الحجلة خللا وعصرت صدور البعض منا لأن السيارة كان بها أربع دكك مستطيلة وكانت ظهور الدكك مرتفعة والدخول اليها بســــلالم مما أحدث ارتباكا فى الدخول أصابت البعض منا بجـــروح ٠

ولازال مشــــهد الزميل أبو ضيف عبد الجليل المحامى ماثلا أمامى وقد ضغطت الحجلة على صــدره فصلبته على العارضة التى تتوسط الدكتين الوسطيين ٠ بعد أن توزع من قبله ومن بعده على الجانبين ، منظر محزن ومهين ومؤلم للانسان وللانسانية ٠

نقلتنا السيارات الى زنازين التأديب بليمان أبى زعبل وأخذت من سبـــاءت صحتهم الى المستشفيات لاجبارهم على فك الاضراب وتغذيتهم ولو بالحقن ٠

الزنزانة التى لا تتسع لأكثر من اثنين حشر فيها أكثر من عشرة من المعتقلين حتى لم يكن هناك مكان يستطيع الانسان أن ينام أو يتمدد فيه فكنا نتبادل الوقوف ، وكان نصيب الزميل أحمد رفاعى أحيانا أن يجلس على جردل البول كنوع من التميز ٠

كان الماء الذى يأتون به لنشربه مخلوطا بالبول ، وفي داخل الزنزانة يتم التبول والتبرز فى الجردل ونعيش بين هذه الرائحة الكريهة ، تمزقت ملابســـنا من الضرب والجلد حتى لم يبق على جسد بعضنا سوى الفانلة والكلوت وكنا نجلس وننام على أسفلت الزنزانة دون أى فراش أو غطاء حتى ولا برش ٠ كانت ظهورنا تنزف من الجلد ويشتد علينا ألمها ، وأتذكر أننى كنت أرفع الفا وألصق ظهرى الجريح بالأسفلت وأجد فى ذلك بعض الراحة وي أن أسفلت الزنزانة كان يمتص بعض الألم ويدبل الجراح ٠

لقد تركونا لمقاومتنا الذاتية فكنا نلملم جراحنا ، لقد منحتنا قوة التحدى التى تملكتنا القدرة على مقاومة عوامل الفناء ، ومن هذه التجربة يتبدى للانسان كم يختزن من طاقات مهولة كامنة فيه ، تظهر فى وقت الكوارث لتقى الانسان من غوائلها ٠

كانت أخبار الاضراب قد عرفت خارج السجن ونشرت وكالات الأنباء معلومات عنه ونددت بســـوء معاملة السلطات للمعتقلين الســـياسيين ٠

زادتنا هذه المعاملة الجبانة اصرارا على مواصلة الاضراب ، وحاولت ادارة السجن عدة مرات التفاوض معنا لفك الاضراب بوحى من المباحث العامة المشرفة على معاملتنا وأعطت وعودا بتحسين أحوالنا والاستجابة تدريجيا لمطالبنا ـ وبناء على ذلك وبعد سبعة عشر يوما من الاضراب قمنا بفكه • ولكى يتم ذلك بما لا يضر بصحة المضرب فلابد أن يتم بالتدريج والبدء بالسوائل ، وخرجنا من زنازين التأديب ، وشيئا فشيئا تحسنت المعاملة فى الغذاء وأحضروا المراتب وسمحوا بدخول الملابس والأغذية من أهالينا وتوفير بعض ما نرغبه من مشتروات من الكانتين ، بل وسمحت ادارة السجن للأطباء بصرف أغذية زائدة للمرضى وكان الدكتور يوسف ادريس مندوبنا الطبى لدى أطباء السجن فاتفق معهم على مجموعة من المأكولات الزائدة التى تصرف للمرضى خاصة من الألبان والمربات وكانت هذه توزع على مجموعات الطعام وكانت مجموعتى تتكون من الدكتور يوسف ادريس وجميل عبد الشفيع وعادل حسين وأنا •

رغم الظروف القاسية فقد كنا نحاول التغلب عليها فنعقد لندوات والمحاضرات الفكرية والثقافية وتتبادل المخطوطات لنرفع من وعينا ونوحد أفكارنا ونكتب بعض الدراسات والتحليلات ووزعت علينا بعض الموضوعات لندرسها ونكتب عنها ، كما أصدرنا بعض المجلات المكتوبة وكذا مجلات حائط ولكن لم يسمح لنا بأداء الامتحانات وبذلك حرمت من الامتحانات سنتين دراسيتين •

مواقف استقلالية مشجعة للثورة :

فى عام ١٩٥٥ حضر الينا فى المعتقل الصحفى الأستاذ أنور عبد الملك (الدكتور بعد ذلك) وكان من التحليلات التى أشاعها بين المعتقلين أن حركة الجيش بدأت تأخذ اتجاها استقلاليا وطنيا وشبهه باتجاهات الجنرال بيرون فى الأرجنتين •

كما سمعنا أن شبيلوف وزير خارجية الاتحاد السوفيتي يزور مصر وأنه زار منطقة الأهرامات وعندما رأى تمثال أبي الهول علق قائلا :

يقولون ان أبا الهول صامت ولكني أقول ان مصر حية متحركة .

يبدو أن هذه كانت ارهاصات وتفاعلات للتحولات التي تمت بعد ذلك ومنها اعتراف مصر بالصين الشعبية وادراك مصر لخداع أمريكا فبعد أن وعدت أمريكا رجال الثورة بمدهم بالسلاح سحبت وعودها وغدرت بهم وتركتهم فريسة لاسرائيل تعربد على حدود مصر على هواها وكانت معركة الصبحة التي استشهد فيها عدد من المصريين ، ووقفت مصر مكتوفة الأيدي ، كانت هذه المعركة فاصلة في دفع مصر الى طرق أبواب المعسكر الاشتراكي لتحصل منه على السلاح .

فبعد مؤتمر باندونج في ابريل ١٩٥٥ توسط شو ان لاي رئيس وزراء الصين لدى الاتحاد السوفيتي لمد مصر بالسلاح ، فكان ما عرف بصفقة الأسلحة التشيكوسلوفاكية .

ألهبت هذه التطورات حماس المعتقلين فأرسلنا الى الثورة نؤيد هذه المواقف الوطنية ، ونطالب بضرورة الافراج عنا لنأخذ مكاننا في حماية هذه المكتسبات .

كانت فترة الانتقال التي أعلنتها حركة الجيش تمتد ثلاث سنوات من يناير ١٩٥٣ وحتى يناير ١٩٥٦ .

وصدر دستور ١٩٥٦ وفي أحد نصوصه تحصين قرارات مجلس قيادة الثورة باعتبارها قرارات سيادية لا يجوز الطعن فيها ،

وانتظرت مصر تنفيذ اتفاقية الجلاء التى حددت له نهاية هو يوم ١٨ يونية ١٩٥٦ وانتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية فى ٢١ يونيو ١٩٥٦ ٠

الافراج عن المعتقلين :

أصبح من الضرورى الافراج عن المعتقلين السياسيين ، وبدأت الافراجات بالتدريج ٠٠ كانت هناك بعض المفارقات تثير التعجب فقد وجد بالمعتقل بعض ممن ليس لهم صلة بالعمل السياسى أو كانوا مجرد أصدقاء أو متعاطفين مع بعض الأعضاء وجلبتهم الصدف الى المعتقل ٠٠ كان هؤلاء أحرى بأن يكونوا أول المفرج عنهم ، بل كانوا أجدر بعدم القبض عليهم من البداية ، ولكن حينما يرون بعض الشخصيات التى لها دور بارز فى التنظيمات السياسية يفرج عنهم بينما يستمرون فى المعتقل تملأهم الحسرة والغضب ، حتى إن أحدهم كان صائما ورأى أحد القادة وقد قبض عليه لفترة قصيرة ثم أفرج عنه فثار وقال يا ربى أصوم وتفرج عن القادة وتتركنى معتقلا وأنا ليس لى صلة بهذا كله والله لأكف عن الصوم وأفطر !! كان هؤلاء نطلق عليهم « أهل السلك » أى الذين كانوا ينتظرون عند السلك الشائك الذى يمنع المعتقلين من اجتيازه ـ ينتظرون أن ينادى عليهم للافراج عنهم وعندما تأتى قائمة بغيرهم ولا تشملهم يتحسرون ويثورون لحظهم العاثر ٠

فى أوائل يونيو ١٩٥٦ أفرج عنى من المعتقل ٠٠ كنت منتظرا أن يطلق سراحي فى القاهرة وهى موطن عملى الوظيفى ولكننى فوجئت بترحيلى الى المنصورة ـ رغم معارضتى وطلبى أن يفرج عنى بالقاهرة ، ولم أفهم السر الا بعد ذلك كما سيأتى شرحه ٠

وفى حجز قسم المنصورة بتنا عدة ليال ، كان معى عدد من الزملاء منهم المرحـوم سـعد عبد اللطيف المحامى ثم جاءنا ضابط

المباحث ومعه بعض رجاله يطلب منا كتابة تعهدات بعدم الاشتغال بالسياسة ، وتعهد بألا ننتقل الى أي مكان خارج مقار سكننا الا بعد استئذان المباحث ، فقلنا لقد رفضنا ونحن بالمعتقل مثل هذه التعهدات وليس من المعقول الموافقة عليها الآن بعد أن تقرر الافراج عنا . ورفضنا هذه المطالب وحاولوا برزالة الحصول على معلومات عن أحوال كل منا وأفراد أسرته ، كما حاولوا استمالة كل واحد على حدة ، وتطورت المناقشات الى اعتداء من رئيس قسم المباحث « جنيدى » على وتشابكنا بالأيدى ، ولما ووجهوا بالرفض والاصرار على اطلاق سراحنا دون قيد اضطروا الى الافراج عنا وكان ذلك يوم الخميس ١٩٥٦/٦/٧ .

الفصل السياسى من الوظيفة :

ذهبت الى قريتى وأهلى فى نفس اليوم ثم سافرت الى القاهرة واستلمت عملى فى ١٩٥٦/٦/٩ وفوجئت فى ٥٦/٦/١٩ بمدير ادارة الأموال ببلدية القاهرة التى يتبعها عملى يستدعينى فذهبت اليه وقابلته واذا بالرجل يبدأ حديثه معى بمقدمات أننى فى مقتبل حياتى ويجب أن أتماسك وألا أيأس كان الرجل يشعر بالأسى لأن عليه أن يبلغنى بأننى قد فصلت من وظيفتى وعلى أن أترك عملى ، وعلمت أن قرار الفصل الخاص بى وبآخرين ممن أفرج عنهم قد صدر قبل الافراج عنا من مجلس قيادة الثورة فى أول مايو ١٩٥٦ بتوقيع جمال عبد الناصر وفى اليوم التالى ١٩٥٦/٥/٢ صدق مجلس الوزراء على القرار السابق وبتوقيع جمال عبد الناصر أيضا ولم تكن جهة العمل تعلم بهذا القرار لدرجة أننى استلمت عملى وباشرته لمدة ثمانية أيام والادارة لا تعلم أننى مفصول .

تركت القاهرة وذهبت الى القرية وكان هناك الاستعداد لانتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية فى ٢١ يونيو ١٩٥٦ أى بعد

جلاء القوات البريطانية عن أرض مصر بثلاثة أيام ، وكنا وقتها نؤيد الثورة ونؤيد جمال عبد الناصر ونحث الشعب على انتخابه رغم ما أصابنا من آلام ذاتية ـ تغلبنا على جراحنا وأعلينا من مصلحة الوطن التى هى فوق كل آلام ذاتية ٠

ومن المفارقات الغريبة أن خطاب الفصل الرسمى قد وصلنى وأنا فى لجنة الانتخاب بمدرسة ميت الحلوج الابتدائية أدعو الناس الى انتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية ، فكل التبليغات السابقة بالفصل كانت شفوية ٠

وبسبب حرمانى من الامتحان بكلية دار العلوم سنتين دراسيتين أثناء الاعتقال رفعت بعد الافراج عنى قضية أمام محكمة القضاء الادارى أطلب فيها الحكم بالسماح باجراء امتحانين لى عن السنتين السابقتين ولما حدث العدوان الثلاثى انشغلنا به وتركت القضية لمحاميين وكلتهما للدفاع فيها ولكنهما أهملاها فرفضت ٠

الفصـــل الرابـــع

معارك متواصلة ضد الاستعمار

تأميم القناة والعدوان الثلاثى واندحاره :

كانت الثورة قد جددت السعى لانشاء السد العالى ، لتوفير المياه وزيادة الرقعة الزراعية وتحويل ري الحيـــاض الى رى دائم ولانتاج الطاقة الكهربائية اللازمة لتصنيع البلاد ، وحاولت الاستعانة بالغرب وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية والبنك الدولى ، ووعدوها بتوفير التمويل اللازم لانشاء هذا المشروع العملاق ، ثم غدروا بها ورفضـــوا تنفيذه وسحبوا ما وعـــدوا به ، واتهموا ميزانية مصر بالافلاس رغم ما فرضـــوه من شروط مهينة وقاسية ورغم قبـــول عبد الناصر لها مبالغة منهم فى اذلال مصر واصرارهم على الابقاء عليها متخلفة وفقيرة حتى لا تقوم فى المنطقة دولة قوية ، فكان رد عبد الناصر عليهم قراره بتأميم قناة السويس فقامت الدنيا ولم تقعد حتى كان العدوان الثلاثى من انجلترا وفرنسا واسرائيل فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ٠

ورغم آلام الاعتقال والسجن فقد انفعل الشيوعيون وتحمسوا لتأميم قناة السويس وبناء السد العالى ٠ فهذا الشاعر فؤاد حداد يكتب قصيدة :

يا حمام البر سقف ·· طير وهفهف ·· على كتف الحر وقف ·· والقط الغلة ·

وهذا صلاح حافظ من سجن جناح في قلب الصحراء الغربية يتعالى على المحنة ويكتب قصيدة أخرى :

بكره النور في بلادنا يلالى لما نقيم السد العالى

غنى الشـيوعيون وهم مسـجونون ومحكوم عليهم بالأشغال الشاقة هذه القصائد ، ثم غنتها مصر كلها والأمة العربية في جميع أقطـارها ·

أما من أفرج عنهم فقد انشغلوا بتجميع المتطوعين للتدريب على القتال في معسكرات طويحر والحلمية بالقرب من قناة السويس، وكان يشرف على اعداد المعسـكرات ضـباط تابعين لرياسـة الجمهورية ·

ذهبنا للتدريب بالحلمية وأقمنا أول ليلة في مسجد مفروش بالقش ثم أقامونا في طاحونة ، وكنا نتدرب في المزارع والبساتين ووزعت علينا أسلحة جديدة ، ولكن التدريب كان هشا وسطحيا ، وذهب عدد من هذه المعسـكرات للتسـلل الى بورسعيد ، كان الشيوعيون أول من دخل بورسعيد بعد احتلالها وكانوا مسئولين عن المقاومة بها ·

كانت قريتنا قد تطوع منها عدد كبير وتسلل منهم لبورسعيد أربعة من الشباب : عبد السلام خشان وفتحى مجاهد وأحمد العدل ومحمود صبيح كانوا يحملون قففا صنعت بالبلد وامتلأت بالسمك الذى يخفى تحته في جيوب سرية منشورات تحث شعب بورسعيد على المقاومة وترفع الروح المعنوية وقد دخـلوا المدينة على أنهم صـيادون ·

أما دورى فقد كان التوعية وتجميع المتطوعين ، أجوب القرى فى الدقهلية والشرقية بسـيارة جيش التحرير أحث الناس على التطوع ثم تجميعهم وارسـالهم الى المنصـورة على مكتب الأستاذ عبد الله الزغبى المحامى وهناك يتجمعون ويرسلون للمعسـكرات بالشرقية ٠

أتذكر كيف تجمع عندى فى بيتنا بالقرية عدد من المتطوعين جمعتهم من قرى متعددة حتى ملأوا البيت وكيف تحمست أمى وأخى الحاج محمد فى توفير الطعام والراحة لهم وفرشوا لهم أرض بعض الحجرات والصالة ليناموا حتى الصـباح ٠٠ كان الجميع يحركهم الحماس للوطن وهزيمة المعتدين ٠

كان دورى أيضا عقد الندوات بالمدارس والخطب بالمساجد واستخدام مكبرات الصوت فى الميادين والشوارع والأسواق بهدف التوعية الوطنية ورفع الروح المعنوية ٠

واجه العدوان مقاومة باسـلة من الشعب واصرارا من قيادة الثورة على عدم المساومة مع العدوان كما وجه بولجانين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى انذارا للمعتدين بضرب لندن وباريس بالصواريخ اذا لم ينسـحبا من بورسعيد كما أدانت العدوان شـعوب العالم وشجبته أمريكا لعـدم استشارتها فيه ٠٠ لهذه الأسـباب اندحر العدوان وانسـحب الانجليز والفرنسـيون واحتفلت مصر بعيد انتصارها فى ٢٣ ديسمبر ١٩٥٦ « عيد النصر » ثم انسحب اليهود من سيناء ٠

ولكن بعد أن تقرر الانسحاب من بورسعيد وحتى لا ينسب بعض هذا النصر الى من اشترك فى المقاومة من الشيوعيين ، أشاعت الحكومة أن هناك مؤامرة لاغتيالهم ، وطلبت منهم مغادرة المدينة

فانصاعوا وانسحبوا حفاظا على وحدة الجبهة الداخلية وهم يشعرون بالغدر ونكران التضحيات الغالية التى بذلوها ، وتبارى الجبناء والانتهازيون فى نسبة التضحيات والمقاومة لأشخاصهم وتراجع الى المجهول نضال الأبطال المغمورين .

حقق العدوان عكس ما كان يهدف اليه فقد كان من أهدافه العودة للمنطقة من جديد بعد أن جلا عن البلاد فى ١٨ يونية ١٩٥٦ ، وتأديب مصر لتأييدها للثورة الجزائرية فكانت النتيجة تقوية ثورة الجزائر ثم انتصارها بعد ذلك واقتلاع جذور الاستعمار من المنطقة فقد استعادت مصر بهزيمة العدوان قناتها وسيطرت على القاعدة العسكرية فى القنال ومزقت معاهدة جمال ـ هيد وما كان يترتب عليها من التزامات عسكرية تخل بالاستقلال الوطنى فقد كانت تقضى باستمرار وجود القاعدة وأعدادها لأى طارىء يفرض عودة القوات البريطانية مرة أخرى وقد نتج عن غدر انجلترا وفرنسا قيام مصر بتمصير كل الشركات والممتلكات الخاصة بالبريطانيين والفرنسيين وبعض الدول الأوربية التى ساندت العدوان وبذلك خرجت انجلترا من المنطقة وضرب النفوذ الانجليزى والفرنسى فى مقتل ولكن اسرائيل رغم انسحابها قد استفادت من العدوان بالسماح لسفنها بالمرور فى خليج العقبة وبذلك تمكنت اسرائيل من احياء ميناء ايلات .

نظرية الفراغ ومشروع ايزنهاور :

اهتبلت أمريكا هزيمة انجلترا وفرنسا ووجدتها فرصة لكى تحل بنفوذها واستعمارها الجديد محل انجلترا وفرنسا بدعوى وجود فراغ فى المنطقة يجب أن تشغله فتقدمت بمشروع أيزنهاور لكى تملأ هذا الفراغ وكان ذلك عام ١٩٥٧ .

كانت مصر جمال عبد الناصر تعارض هذا الاتجاه وترى أن شعوب الأمة العربية قادرة على ملء هذا الفراغ وأنه لا يمكن أن نستبدل استعمارا باستعمار وكان يشاطر مصر فى هذا الرأى سوريا برئاسة شكرى القوتلى بينما كانت السعودية والأردن تميلان إلى قبول المشروع أو التهادن معه وعدم مصادمته .

أكبر عريضة ضد مشروع ايزنهاور :

وهنا شاركنا فى حملة شعبية عارمة ضد هذا المشروع بالكتابة والنشرات والندوات والاجتماعات والمظاهرات والتوقيعات التى تدين المشروع وترفضه وخرجت الكتيبات تقول : لا . لأيزنهاور ، ومن هذه التوقيعات التى جمعناها عريضة طولها أربعة عشر مترا من التوقيعات التى جمعناها من طلاب الجامعات ومن الأحياء الشعبية ومن عمال المصانع ورواد المقاهى ، وقد لفت هذه العريضة كثوب من القماش وقمت أنا وزميلى محمد عمارة الطالب بكلية دا رالعلوم ــ الدكتور الآن والمفكر الاسلامى ــ بزيارة مقرات وكالات الأنباء والصحف لنشر معلومات عنها فقامت هذه الوكالات والصحف بالحديث عنها ونشرت صورا لنا ونحن نحمل هذه العريضة ، وقالت الجرائد المصرية بعناوين بارزة انها أكبر عريضة قدمت .

كما ذهبنا الى رئاسة مجلس الوزراء بشارع مجلس النواب وسجلنا أسماءنا والمهمة التى جئنا بها وهى تقديم العريضة للزعيم جمال عبد الناصر للتعبير عن رأى الشعب فى هذا المشروع وليكون سندا له أمام الحكومات الاستعمارية وأمام الرأى العام العالمى ، وبعد أن سجلنا أسماءنا طلبت منا سكرتارية مجلس الوزراء ــ بعد اجراء الاتصالات اللازمة ــ أن نذهب الى قصر القبة لتقديمها هناك ، حيث كان يعقد فى نفس الوقت اجتماع الأقطاب الأربعة : عبد الناصر وشكرى القوتلى والملك سعود والملك حسين .

ذهبنا واستقبلنا على الفور - حيث كان لديهم علم - وسلمنا العريضة لأمين رئاسة الجمهورية « فؤاد تيمور » الذى سلمها بدوره الى الرئيس جمال عبد الناصر .

وقد كانت هذه العريضة من الحجج التى استند اليها عبد الناصر فى رفض الشعب وادانته لمشروع أيزنهاور .

فصلونى من الكلية كطالب منتظم :

حين هدأت معارك العدوان الثلاثى وتقرر الانسحاب أعلن استئناف الدراسة بالمدارس والجامعات فذهبت الى القاهرة لمواصلة دراستى بالفرقة الثالثة بكلية دار العلوم بعد حرمان سنتين من الدراسة والامتحان ، واستأجرت شقة بشارع مؤنس أفندى بعابدين سكن فيها معى بعض الزملاء وبعض الطلبة من قريتى كان منهم حامد الموجى وفتحى مجاهد ومحمد الامام .. كانت هذه الشقة ملتقى لكثير من الأصدقاء والبلديات لا تخلو مائدة غذاء لنا الا ويشاركنا فيها بعض الزملاء من خارج الشقة .

كان النشاط السياسى والتنظيمى هو أكثر انشغالنا ، نعقد الاجتماعات ونوزع المنشورات ونشارك فى الندوات والمؤتمرات والمظاهرات وجمع التوقيعات ونساهم بالرأى والموقف فى كل المناسبات .

ذهبت الى الكلية لأنتظم فى الدراسة فقالوا لى انك محروم من الانتظام فى الدراسة ، وأنك مفصول كطالب نظامى تربوى . فسألت : لماذا ؟ فقيل لى : لأنك موظف وهذا يتعارض مع الانتظام فى الدراسة ، فقلت : أما عن الوظيفة فقد فصلت منها وأصبحت متفرغا للدراسة مع أننى درست فى الفرقة الأولى والثانية وأنا موظف

فما الذى جد فى الأمر ؟ خاصـــة وأن الكلية بها طلبة موظفون ويدرسون بانتظام فى الكلية ، فلماذا هذا الكيل بمكيالين ؟ أم أن الهدف هو استمرار معاقبتي بحرماني من الدراسة ؟ قالوا : هذا هو قرار مجلس الجامعة ، واذا كنت تريد أن تكون طالبا نظاميا فعليك بتقديم طلب لمجلس الجـامعة وحين يتخذ قرارا فى ذلـك يسمح لك بالحضور ٠

كان هناك فرق كبير بين وضـع ومستقبل الطالب المنتظـم والطالب المنتسب ، فالمنتظم يدرس مادة التربية النظرية والعملية ويسمح له بالانتظام فى الدراسة بالكلية ويتخرج بدرجة ليسانس تربوى مؤهل مباشرة للتدريس ، بينما المنتسب يحرم من ذلك واذا أراد أن يكون تربويا فعليه أن يلتحق بعد الليســانيس لمدة عامين دراسيين بمعهد التربية العالى أو يحصل على مؤهل تربوى مع العلم بأن خريجى كلية دار العلوم يؤهلون أساسا للعمل بالتدريس ٠

تقدمت بالطلب وتابعته بجهد واصرار حتى حصلت على قرار من مجلس الكلية ومجلس الجامعة باعادتي كطالب منتظم ، وقد استغرق هذا كل شهور الفصل الدراسي الأول ، ولم أستطع الدخول للكلية واستخراج كارنيه بانتسابى اليها إلا قبل الامتحان بفترة قصيرة ، وضاعت على فرصة الاستفادة من شرح الأساتذة ٠

حاولوا حرمانى من الامتحان للعام الثالث :

ومع ذلك ورغم حل هذه المعضلة التى افتعلتها المباحث بالاتفاق مع الحرس الجامعى الذى كانت سلطته تعلو سلطات عمداء الكليات بل رئيس الجامعة نفســـه ٠٠ لقد إنتهكوا حرمة الجامعة ومزقوا قداسة العلم والبحث العلمي وبذلك تيسر للحرس الجامعى والمباحث العامة افتعال مشكلة أخرى لحرمانى من الامتحان للعام الثالث دون

مراعاة لحقى الدستورى والقانونى والطبيعى فى التعليم وفى أداء الامتحان بقدر ما تتسع قدراتى .

والمشكلة التى افتعلوها هو الادعاء بأننى حصلت على مكافآت أثناء الدراسة فى الفرقة الأولى والثانية بدون وجه حق ، وكانت الكلية تمنح كل طالب بها مكافأة شهرية ثلاثة جنيهات وصرفت لى المكافأة الشهرية أثناء الدراسة فى الفرقتين الأولى والثانية ، وقد أرسلت الكلية لى وأنا بالمعتقل خطابا تطلب منى فيه رد هذا المبلغ وحددته فأرسلت اليهـا موافقة على أن تحصله من مرتبى الذى كان يصرف لى كل شهر من وظيفتى وقد حولت اليها جهة عملى هذا المبـلغ .

ولكننى فوجئت قبل الامتحان بأيـام بالكلية تطالبنى بمبلغ آخر قدره سبعة عشر جنيها ، فكتبت للكلية بموافقتى على استيفاء هذا المبلغ من المكافأة المستحقة لى عن مدة خدمتى — بعد فصلى — ولم أكن قد صرفتها فوافقت الكلية على ذلك وسوى الموضوع على هذا الأساس وحصلت من الكلية على رقم جلوسى فى الامتحان وعلى تصريح لى بأدائه .

وفى اليوم الأول من الامتحان ذهبت صباحا قبل الميعاد بربع ساعة لأدخل أول مادة للامتحان وهى النحو — وكانت أصعب المواد — وذلك بعـد حرمان سنتين ، وتقـدمت للحرس بالكرنيه ورقم الجلوس ، فما كان من ضابط الحرس — وكان واقفا على الباب فى انتظارى — الا أن خطف منى الكرنيه ورقم الجلوس وجرى للداخل وطلب من الكونستبل والعساكر منعى من الدخول .

حدث ضجيج واحتجاج منى ومن الطلاب الداخلين ، واستفسرت واستفسروا فقال ضابط الحرس — كل هذا وأنا خارج البوابة — ان الجامعة قد أرسلت بالموتوسيكل خطابا فى الصباح الباكر لمنعى

من الامتحان حتى أدفع هذا المبلغ ، فشرحت له بأننى اتفقت مع الأستاذ نوح مسجل الكلية على طريقة دفع هذا المبلغ ووافق ، وزغم هذا فهو دين مدنى لا يجوز أن يكون سببا فى حرمانى من الامتحان خاصة وليس معى الآن هذا المبلغ ، وطلبت منه أن يسمح لى بالدخول لمناقشة المسجل فى هذا الأمر أو يأتى به هنا لمناقشته فرفض وأصر على عدم دخولى فتدخل بعض الطلبة باستعدادهم لجمع هذا المبلغ وتقدم أحدهم « عبد الرءوف أبو السعد » (دكتور بالجامعة الآن) بساعته ــ وكان ثمنها أكبر من المبلغ ــ كرهان حتى يدفع هذا المبلغ بعد أداء امتحان اليوم ، ومع هذا أصر على الرفض ، وكان الامتحان قد بدأ ، فذهبت الى صديقى الطالب محمد عمارة وكان يسكن بجوار الكلية ــ وكان فى هذه السنة محروما من الامتحان بقرار تأديبى من الجامعة لاشتراكه فى مؤتمر بالجامعة احتجاجا على اقالة الملك حسين لوزارة النابلسى فى الأردن ــ فلم أجد معه نقودا فعدت مرة أخرى للكلية أعيد الكرة فوجدت الاصرار على الرفض فأخذت تاكسيا لتاجر قريب لى فى حى عابدين القريب من الكلية ولحسن الحظ فقد كان مستعدا للسفر الى القرية فى ذلك اليوم ويبدو أنه قد أعد معه مبلغا لقضاء بعض المصالح هناك ، فأخذت منه المبلغ المطلوب على أن يتقاضاه من أخى الحاج محمد حين يصل الى القرية وعدت سريعا الى الكلية وقدمت المبلغ فذكر ضابط الحرس أن المبلغ المطلوب أكثر من ثلاثين جنيها محاولا بأن يجمع هذا المبلغ على المبلغ المدفوع قبل ذلك فثرت فى وجهه وأحس بأن هذه لعبة مكشوفة وخشى عواقب ذلك فسقط فى يده وسمح لى بالدخول محاولا أن يدارى خجله بالقول ان الحساب سيتم بعد انتهاء الامتحان ، وذهب معى لعميد الكلية لاستئذانه فى دخولى الامتحان وكان قد مضى من زمنه أكثر من نصف ساعة وكنت فى أثناء الشجار قد أبديت له اصرارى على دخول الامتحان حتى لو مضى نصف الوقت وحملته مسئولية تأخيرى عن أدائه .

كان زمن الاجابة عن امتحان هذه المادة ثلاث ساعات .. ذهبت الى قاعة الامتحـان متأخرا فبـادرني المراقب بتقديم ورقة الأسئلة وورقة الاجابة فقلبت ورقة الأسئلة على وجهها وأخرجت منديلي الذي أخذت أنشف به العرق الذي أخذ يتصبب على جبيني وطلبت شاي وأشعلت سيجارة ومكثت برهة حتى هدأت نفسي ، ثم شرعت في قراءة الأسئلة وبدأت في الاجابة ، وكنت مشتاقا الى هذه اللحظات التي حرمت منها طويلا لأثبت قدرتي على استيعاب المادة رغم الجهد الجهيد الذي بذلته ورغم حرماني من حضـور محاضرات الأساتذة طوال الفصل الدراسي الأول وانشغالي هذه الفترة في استصـدار قرار مجلس الجامعة لعودتي كطالب منتظم .

فتح الله على وأوفيت اجابتي قبل نهاية ميعـاد الامتحـان وخرجت ، ففوجئت بضـابط الحرس ينتظرني خارج باب قاعة الامتحان يتساءل مستظرفا بنفاق ومكر لا يكادان يخفيان ، فأجبته متحديا أربعين من أربعين وكانت الدرجة الكبرى لهذه المادة هي أربعين درجة ، ثم توجهت الى مكتب مسجل الكلية الأستاذ نوح ، وهو شخص حريص على أناقتـه ومظهره متحفظ منشى – وفي هذا اليـوم لم يكن قد مضى سوى عدة أيام على حادثة قتل شنيعة لأحد المدرسين الملاحظين على امتحانات الثانوية العامة ولقبه « زمزم » ، طعنه طالب بالثانوية العامة كان يريد الغش فمنعه – ما ان رآني الأستاذ نوح داخلا حجرته حتى هب واقفا بانزعاج شديد منطلقا في أيمان متتالية بالطلاق بأنه لا دخل له فيما حدث فى ذلك اليوم وأنه فوجىء برسول من الجامعة جاء مسرعا على موتوسيكل بخطاب يمنعك من أداء الامتحان ما لم تدفع المبلغ المطلوب وهو ١٧ جنيها وأمطرني كثيرا بلقب يا أستاذ سيد ، فى مهابة واحترام شديدين .

قد يستغرب البعض من تفاهة هذا المبلغ الذى لم يكن متوفرا معى في ذلك الوقت ولكن الحقيقة أن هذا المبلغ كان يمثل فى ذلك

الوقت شيئا كبيرا بالنسبة لعدد كثير من الفئات ، وفى نفس اليوم ذهبت أنا والزميل محمد عمارة الى زميلنـا الأسـتاذ شهدى عطية الشافعى واستلمنا منه هذا المبلغ وأعدناه لأسرة قريبى فى القاهرة وحين حضر من سفره وكان قد أخذ المبلغ من أخى فرده على ورددته للأستاذ شهدى ٠

هذه بعض المعاكسات التى كانت تنتهجها مباحث آمن الدولة ضد مستقبل الطلاب فلم تكتف بحرماننا من الامتحان أثناء الاعتقال مع أن حرية التعليم من الحريات الأساسية التى كفلها الدستور ، بل ان اللصوص والمجرمين العاديين فى السجون يسمح لهم بدخول الامتحانات ، أما السياسيون فقد حرمت عليهم الثورة ــ فى انحراف عن مبادئها ــ حقهم فى التعليم الذى هو كالماء والهواء كما قال الدكتور طه حسين ، لم تكتف المباحث بهذا بل أرادت أن تواصل حرماننا بعد الافراج ٠

وحين أعود بالذاكرة الى الماضى أتأمل موقفى واصرارى على ممارسة حقى فى دخول الامتحان رغم كل هذه الصعاب والرزالات السخيفة أتعجب من قوة التحدى التى تملكتنى حتى استطعت فى دقائق محدودة أن أجتاز هذه المحنة وأن أتغلب عليها ٠٠ لقد كنت فى حاجة الى تماسك فولاذى للأعصاب حتى لا تنهار أمام هذه المحنة المفاجئة بعد حرمان سنتين من الامتحان ولقد منحتنى قوة التحدى الخارقة هذا التماسك الذى مكننى من التفكير فى بدائل متعددة حتى اجتزت المحنة بنجاح ٠

وتعبر هذه الحادثة عن أن القيم الدينية والانسانية والأخلاقية لامكان لها فى حسـابات بعض الأجهزة وهذا هو الذى يفقـدها المصداقية والتعاطف الشعبى معها مع أن هذا شرط أساسى لنجاحها

فى عملها ، كما يبدو بعض أفرادها ـ وهم يتصرفون بوحشية ـ وكأنهم قدوا من الصخر لا عواطف تشعر ولا قلوب تنبض بل آلات صماء فقدت العقل والحس ولحمة الوطنية •

دفعتنى هذه الحادثة الى الاصرار على استرداد الرسوم الجامعية التى دفعها أخى عن السنتين اللتين قضيتهما فى المعتقل وحرمت من الدراسة والامتحان فيهما وكانت اللائحة الجامعية خالية من أى نص يسمح باسترداد هذه الرسوم كما لم تكن هناك سابقة لذلك ، ولكننى أصررت على حقى فى استردادها رغم أننى صرفت على نفقات المواصلات للجامعة أكثر من المبلغ الذى أطلبه ولكنه التحدى الذى دفعنى الى استرداد هذه المبالغ حيث لم أنتفع بها ؛ وبعد جهد وحجج ووقت اضطروا الى رد هذا المبلغ لى وكانت سابقة تحدث لأول مرة حتى أن مدير شئون العاملين بالجامعة قال : ما ضاع حق وراءه السيد يوسف ، وكانت هذه من مفارقات التحدى والعناد •

معركة انتخابات مجلس الأمة :

انتهى الامتحان وأعلنت النتيجة ونجحت وانتقلت الى الفرقة الرابعة ، وفى صيف ١٩٥٧ جرت انتخابات مجلس الأمة ، تقدمنا بترشيح أحد زملائنا ، وهو الأستاذ أحمد عبد الرازق وهو مدرس بمدرسة على مبارك الثانوية بدكرنس ، وكانت له شعبية بين صفوف الشباب فى الدائرة خاصة الطلبة والقوى الديمقراطية والتقدمية والمستنيرة ، ولكن الثورة أقامت مصفاة لشطب من لا تضمن طاعتهم العمياء ، فلم توافق الجهة المنوط بها غربلة المرشحين على ترشيحه ، وتزاحم علينا المرشحون الباقون ، كل يطلب ودنا وتأييدنا لأنه يعرف ما لنا من وزن وتأثير فى الدائرة ، ووقع اختيار بعض الزملاء

على أحد الضباط من دكرنس وهو الصاغ محمد فرج وكان ينسب نفسه الى الضباط الأحرار ، وكنت فى ذلك الوقت بالقاهرة لتكملة أداء الامتحان ، وحين سافرت الى القرية وتناقشت مع بقية الزملاء استقر الرأى على تأييد رجل رأسمالى وطنى من ميت مجاهد وهو الحاج عبد الحليم مجاهد وهو انسان مستقيم وذو قيم يلتزم بما يقوله ولا يلعب على الحبال كغيره وهو أخ لصديق لنا هو الأستاذ المرحوم أحمد مجاهد المحامى .

جرى الانتخاب فى الجولة الأولى وتمت الاعادة فى الجولة الثانية بين هذين المرشحين ، وفاز محمد فرج بأصوات قليلة ، وقيل ان صناديق الاقتراع بالجيش هى التى رجحته .

فتحت لنا معركة الانتخابات الأبواب أمام كثير من القرى ، لأننا عن طريقها تعرفنا على وجوه كثيرة ، كما تعرفنا عن كثب على الشخصيات المؤثرة فى كل قرية ، والتى عن طريقها تستطيع أن تستقطب أغلبيتها ، هذه الانتخابات مدرسة سياسية كبرى ، فمن خلالها نستطيع الوصول ببرامجك وأهدافك الى أوسع الجماهير الممكنة وتتعرف على القيادات الفاعلة فيها ومن منها تستطيع من خلاله التأثير أكثر ، أو تضع يدك على مشاكل القرية وترتيب أولوياتها وهمومها وتستلهم الحلول لها ، وتعرف مدى قدرتهم على التفاعل معك ، ومن من هذه القيادات اذا دخلت عن طريقه سدت أبواب القرية فى وجهك .

ان لعبة الانتخابات لعبة خطيرة تحتاج الى مهارة وحذق وقدرة على اكتشاف العناصر المناضلة المستعدة للكفاح تحت شعار العدل الاجتماعى ، والى معرفة القوى المختلفة ومدى قدرة وتأثير كل منها ، ومفتاح الطريق لجذبها واقناعها والتأثير عليها ، وتحاشى الحساسيات

التي تنفر وتفرق ومعرفة القضايا المشتركة موضع اتفاق الجميع حولهـــا .

التضامن مع الثورة الجزائرية :

لقد كانت معركة العدوان الثلاثي ومقاومته ومعركة الانتخابات من أهم المعارك الغنية بالخبرات والعبر ، والتي صهرت كثيرا من الكوادر وأمدتهم بالدروس المستفادة . وكشفت لكل منهم خريطة الدائرة المحيطة به : قواها ومستواها المادى والفروق بينها ومشاكلها وعناصرها البشرية البارزة وقياداتها ومستوياتها الفكرية ومفاتيح الدخول اليها .

مع بداية العام الدراسى ١٩٥٨/٥٧ بدأنا نعود الى القاهرة للالتحاق بكلياتنا والانتظام فى الدراسة .. كانت قضية الجزائر واشتعال حرب التحرير بها على أشده خاصة بعد نجاح مصر فى تأميم القناة وحماية هذا التاميم بانهزام العدوان الثلاثى ، وكان لهذا النصر أثره المتعاظم على القارة الافريقية التى مســـها هذا النصر وأشعل حماسها ، فامتدت حركات التحرير الى كثير من الأقطار الافريقية التى كان لها ممثلوها ومكاتبها فى القاهرة ، وكانت مصر تشجع هذه الحركات وتقدم لها العون والتأييد .

حول قضية الجزائر قمنا بدور فى التوعية بالقضية وكسب التأييد الشعبى لها بالمظاهرات والبرقيات والاضرابات الســـلمية والتوقف عن العمل تضامنا معها . كانت جميلة بوحريد وتعذيبها واختطاف فرنسا للقادة الخمسة للثورة الجزائرية مما أثار غضب الجماهير .. لقد كانوا رموزا لهذه الثورة ، وللتضامن معها اتجه التأييد الشعبى للمطالبة بالافراج عن جميلة بوحريد وتحرير القادة المختطفين .

الفصـــل الخـــامس

محنـــة الوحدة الوطنيـــة

التمهيد لمحنة ١٩٥٩ :

كان عام ١٩٥٨ هو عام التحولات الكبرى ، كما كان أيضا عام الانتكاسات الكبرى ففيه تمت فى ٨ ينـــاير ١٩٥٨ الوحدة بين التنظيمات الشيوعية فى تنظيم واحد هو الحزب الشيوعى المصرى وفيه أيضا انهارت هذه الوحدة بعد فترة قصيرة من اتمامها .

وفيه تمت الوحدة بين مصر وسوريا فى ٢٢ فبراير ، وارتفع بذلك صـــوت وسلطة البعثيين ليخربوا هذه الوحدة بعد ذلك ، ويلهبوا نيران الفتنة بين ثورة مصر وثورة العراق .

وفى عام ١٩٥٨ قامت ثورة العراق فى ١٤ يوليو وتحطم بذلك حلف بغداد ، وارتفع حماس الجماهير لدعم القومية العربية ، ولعب جمال عبد الناصر دورا هاما فى تأييد هذه الثورة وحمايتها من أعدائها ، ولكن أيضا فى هذا العام تصاعد الصراع والحرب الكلامية والتنافس على الزعامة بين ثورة مصر بقيادة عبد الناصر وثورة العراق بقيادة عبد الكريم قاسم ، ونفخت بعض قوى اليسار فى نيران الأزمة بعبثها الطفولى ورفعها شعارا صبيانيا : « زى قاسم

يا جمال » مغالين فى ذلك من دور قاسم التقدمى مع أنه رفض طلب الحزب الشيوعى العراقى بالمشاركة فى الحكم ـ رغم أن الحزب قد شـــارك بفاعلية فى قيـــام الثورة ـ وأصر قاسم على الانفراد بالســـلطة ·

كانت أعوام ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ وبدايات ١٩٥٨ تبشر بقـــوة وتماسك الوحدة الوطنية وتصاعد الحركة القومية والتفاف الجماهير حولهـا ، كانت الحركة الوطنية والقومية فى حالة مـد ، وكانت القـــوى الرجعية المحلية والعربية والدولية فى تراجع ، ولكنهـــا لم تستكن ولم تيأس ، بل قامت بجهد مخادع لشق الصف الوطنى والقومى زاعمة أن الصراع مع الاستعمار قد انتهى ، ويبقى الصراع مع القوى الثورية التى تهدد الاستقرار ، وكان الطريق الذى يحقق أهدافها هو رفع راية العداء للشيوعية ، ووقعت بعض القوى الوطنية واليسارية فى الفخ فوسعت من شقة الخلاف بين الثورة فى مصر والثورة فى العراق وأشعلت نيران التنافس على زعامة المنطقة · وشجعت بذلك الروح القومية المتعصبة لعبد الكريم قاسم ·

وقعت المنطقة العربية فى محنة انعكست على القوى التقدمية والنقابية والديمقراطية وأنصار السلام فى مصر ، ففتحت المعتقلات من جديد لتقهر وتغيب داخلها خلاصة قيادات الوطن ودعاة الحرية والديمقراطية والتقدم والعدل الاجتماعى ·· كانت مأســـاة للأمة بأكملها أن تنتكس مسارات الثورة والحرية ، وأن تنكفىء الأمة على نفسها يعصر بعضها بعضا ·

وبدلا من أن تتضافر كل القوى لمواجهة التحديات التى تعوق التنمية والتقدم سعيا الى توفير حياة أفضل للشعب العامل ، انشغلت هذه القوى بالصراع فيما بينها واهدار طاقاتها فى تدمير نفسها ، وملئت المعتقلات والسجون بالآلاف من أبناء الشعب الشرفاء ·

وانفتحت بوابة التعذيب فى السجون .. انفتحت أبواب جهنم كما لم تنفتح من قبل .

واذا كانت هذه هى الخطوط العامة لتحولات عام ١٩٥٨ فيجدر بنا أن نشير الى بعض التفصيلات .

وحدة الشيوعيين وانقساماتهم :

نشأت الحركة الشيوعية فى مصر في مرحلتها الثانية أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها نشأة انقسامية من بعض التنظيمات ، ثم توالى اتحاد بعضها وانقسامه الى أن تمت وحدة خمسة تنظيمات : هى حدتو والتيار الثورى والنجم الأحمر وطليعة الشيوعيين المصريين ونواة الحزب الشيوعى ، وتمت هذه الوحدة فى ٥ فبراير ١٩٥٥ وأعلن بذلك الحزب الشيوعى المصرى الموحد ثم تمت وحدة بين الحزب الموحد والحزب الشيوعى المصرى (الراية) باسم الحزب الشيوعى المصرى المتحد فى سبتمبر عام ١٩٥٦ ، ثم بضغط من الكوادر الحزبية أعلن فى الثامن من ينساير ١٩٥٨ وحدة الحزب الشيوعى المصرى المتحد مع الحزب الشيوعى للعمال والفلاحين (ع . ف) فى حزب جديد هو الحزب الشيوعى المصرى الذى ضم الأغلبية العظمى من الحركة الشيوعية ولم يبق خارجه سوى منظمتين صغيرتين هما الطليعة الشيوعية (ط . ش) . ووحدة الشيوعيين (و . ش) .

استبشرت القوى الوطنية والتقدمية بهذه الوحدة وأملت منها خيرا لمزيد من الانجازات الوطنية والاجتماعية .

ولكن الأمل لم يستمر طويلا فقد تمت الوحدة على أساس لائحة ووثيقة سياسية عامة ، مع وجود قضايا سياسية وتأصيلات

نظرية وفكرية لم يتم الاتفاق عليها ، يساند ذلك نظريات تنظيمية انقسامية .

كان الخلاف حول الوحدة الوطنية والعربية والطبيعة الطبقية للسلطة .

بالنسبة للوحدة مع سوريا كان الرأى الغالب على تيار حدتو هو تأييد الوحدة والتركيز على جوانبها الايجابية أما نواقصها الديمقراطية مثل حل الأحزاب فيمكن مالجتهـا من خلال الوحدة الوطنية والكفاح ضد الاستعمار والقوى الرجعية .

ولكن تيار « الراية » و « ع . ف » ركز على النواقص الديمقراطية فبدا وكأنه يعارض الوحدة رغم ما يدعيه من تأييده لها ، أى أنه ركز على الشكل دون المضمون .

أما الطبيعة الطبقية للسلطة ـ وتحديدها له أثر كبير فى المواقف العملية من بناء الوحدة الوطنية ـ فقد كانت هناك ثلاثة مفاهيم :

الأول : أنها برجوازية وطنية ذات قيادة تمتلك طاقات ثورية كامنة ومتجددة وهذا رأى أغلبية حدتو .

الثانى : أنها برجوازية وطنية محكوم عليها بالوطنية بسبب ازدياد المد الاشتراكى فى العالم وهو رأى أغلبية (الراية) .

الثالث : أنها برجوازية احتكارية ، وهذا يقود الى شعار الاسقاط وهو رأى أغلبية (ع . ف) .

أما عن النظريات التنظيمية الانقسامية فقد دخلت التيارات الثلاثة الوحدة ولم تتخل عن مفاهيمها الانقسامية فتيار (ع . ف)

يؤمن بتيار ماركسى وتيار متمركس ، والراية تؤمن بأنه لا شيوعية خارج الحزب وكلاهما دخل الوحدة على أساس أن يقوم بتصفية من عداه من الانتهازيين ، أما تيار حدتو فيؤمن بأنه التيار التاريخى والتنظيم الأم ٠

لعبت هذه النظرة الانقسامية دورها فى تشكيل أزمة الحزب وتقسـيمه ٠

كانت الأزمة سياسية يجب أن نصفى من خلال صراع فكرى واسع داخل الحزب ، ينتهى بمؤتمر يحسم الخلاف ، ولكنها عولجت بشكل تنظيمى ، بتشكيل أغلبية لا مبدئية لمعالجة أزمة الحزب أى تشكلت أغلبية تنظيمية من ع ٠ ف والراية لمعالجة أزمة سياسية ، لقد احتفظ كل من تنظيم « الراية » و « ع ٠ ف » بعد الوحـدة بالعلاقات الحزبية القديمة وأخفوا هذه العلاقة بينما اتهموا المجموعة القيادية لحدتو داخل الحزب الواحد بفعل نفس الشىء ، وهذا وضع تكتلى يخرق قواعد التنظيم ٠٠ من هنـا كان ائتـلاف الراية و (ع ٠ ف) ـ وهما مختلفان فى السياسة ـ ضد حدتو موقفا لا مبدئيا فى السياسة وفى التنظيم ، فالائتلاف قام على موقف حلقى انقسامى تآمرى للتخلص من قيادة حدتو تحت شعار حماية الحـزب ٠

لقد أدانت كل من قيادة الراية و (ع ٠ ف) ما زعمتاه من سلوك تنظيمى حلقى لحدتو بينما كانت كل منهما تمارسـه ، وفصلوا المجموعة القيادية لحدتو وألغوا الاحتراف لضربها لأن أغلبية المحترفين من كوادرها ٠

لقد تم اجتماع جانبى غير تنظيمى ـ باعتراف نبيل صبحى أحد قادة (ع ٠ ف) ـ لأربعة عشر عضوا بعضهم من أعضاء اللجنة

المركزية الذين يمثلون ع · ف وبعضهم من الكوادر غير المركزيين من (ع · ف.) أيضا وكان الاجتماع بقيادة أبو سيف يوسف مسئولهم السياسى ، واعترض على الاجتماع خمسة من أعضاء اللجنة المركزية وسادس من خارجها واتهموا الاجتماع بأنه تكتلى وغير تنظيمى غير أن أبو سيف يوسف أعلن لهم مسئوليته عن الاجتماع وأن من الضرورى فصل قيادة حدتو لضرب اليمين باليمين واستطاع اسكاتهم فحضروا الاجتماع ·

كانت ع · ف ترى ـ باعتراف عضو آخر ـ أن اليمين الحقيقى هو فؤاد مرسى ومجموعته ومع ذلك ائتلفت معهم ضد « حدتو » لأن « حدتو » هى الأقوى عدديا والأفعل تنظيميا وجماهيريا وضربها يسهل عليها ضرب الراية بعد ذلك تحت شعار ضرب اليمين باليمين لحساب اليسار ·

لقد رفضت قيادة (ع · ف) ـ باعتراف نبيل صبحى ـ تسييس الصراع ، والانتظار بعض الوقت لمحاصرة الفكر الحلقى والنزول للجماهير لبلورة الفكر الصحيح ، لقد رأت أن التسييس سيجعل حدتو والراية فى صف واحد ، فتصبح عملية فصل قيادة حدتو صعبة ، بينما الوضع الاجرائى يكتل الوضع الحلقى فى مواجهة حدتو ويسهل عملية الفصل ·

لقد رفضوا اشراك كوادر الحزب فى حل الأزمة ، وحصروها فى اجتماعات تكتلية قبلية تهدف لرفض تسييس الأزمة ·

وقد اعترف حلمى ياسين أحد قادة (ع · ف) بخطأ الاجراءات التنظيمية التى اتخذت ضد قيادة حدتو ، فهو يرى أن الاتجاه العام للحزب كان يمينيا ، وكانت المعالجة تنظيمية ، ولم تكن

حكيمة ، ثم حاول أن يخفف من أثر هذا الاعتراف بقوله : واستدرجت الأغلبية لاتخاذ ما يحقق صالح الانقسام ٠

ويذكر الدكتـــور فؤاد مرسى : أن تقييمى اليـــوم (فى الثمانينيات) يختلف عن تقييمى وقتذاك لأن الخلاف سياسى ، وكان يجب أن يعالج فى اطار سياسى عن طريق الحزب ومؤتمره ، ولكننا تسرعنا فعالجنا الموضوع علاجا تنظيميا بالفصل ، ثم أراد أيضا أن يبرر قرارات الفصل فقال : غير أنهم كانوا يستفزوننا ، كانوا غير راغبين فى البقاء معنا ، هم ينقسمون ٠ ونحن نرد على الانقسام (١) :

والأستاذ محمود أمين العالم فى توضيحه لسبب انتقاله من التكتل الى حدتو يذكر أنه كانت هناك نوايا مبيتة لاحتواء الحزب الجديد لصالح تنظيم من التنظيمات الثلاثة وخاصة تنظيمى الراية والعمال والفلاحين ، وطرد أو قهر التنظيم الثالث تنظيم الموحد وأغلبيته حدتو ، وأنه بعد أسابيع من الوحدة طالبوا بالغاء الاحتراف لضرب حدتو واضعاف عناصرها لأن أغلب المحترفين من كوادرها كما ذكر أن عناصر الراية والعمال والفلاحين تحالفوا داخل اللجنة المركزية ضد عناصر حدتو فى كثير من التصويتات ، كما أضاف عنصرا هاما فى احـــداث الأزمة داخل الحزب ، وهو دور الحزب الشيوعى العراقى ، حيث جاء أحد الرفاق العراقيين القياديين الى مصر قبل الثورة العراقية ، وقام باجتماعات عديدة سرية مع رفاق الحزب المنتمين لتنظيمى الراية والعمال والفلاحين ليمهد الأرض حتى يكون موقف الحزب الشـــيوعى المصرى الجديد متسقا مع سياسة الحزب الشيوعى العراقى الذى يرى أن مصر الناصرية تمثـل فى الساحة العربية قطبا رجعيا ، بينما تمثل العراق القطب التقدمى

---

(١) د٠ فخرى لبيب : الشيوعيون وعبد الناصر ، جـ ١ ، ص ٩٥ ـ ١٠١ ٠

الثورى ، حيث يشارك الحزب الشيوعى العراقى فى السلطة التى ستقوم بالثـــورة العراقية ، وكان هذا الحزب يدرك الخـــلافات السياســية داخـــل الحزب الشيوعى المصرى الجديد من ســـلطة عبد الناصر ، « فالراية » و « العمال والفلاحون » يرون أن المعركة الرئيسية هى معركة الديمقراطية ، ولذا فهى معركة صدامية مع السلطة الناصرية على حين أن مجموعة الموحد وحدتو ترى أن المعركة الرئيسية ضد الاستعمار والامبرياليـــة والصهيونية ، ومعـــركة الديمقراطية فى المرتبة الثانية ، ومن هنا فموقف هذه المجموعة هو الدعوة للتحالف مع عبد الناصر ·

كانت الثورة العراقية على الأبواب ، وكان لابد من اعداد المسرح المحيط بها وخاصة فى مصر · وكان لابد من أن يتطهر الحزب الشيوعى المصرى من العناصر التى يمكن أن تضعف من المساندة الكاملة للثورة العراقية اذا قامت واذا اصطدمت عند قيامها بالسلطة الناصرية ·

ويواصل العالم قوله : وفى تقديرى أن هذا كان وراء القرار الحاسم بفصل قيادات حدتو الموجودة فى اللجنة المركزية · وقد التقى هذا الدور العراقى مع رغبـــات الرفاق القياديين من الراية والعمال والفلاحين للتخلص من حدتو ، وبفصل قيادات حدتو من اللجنة المركزية للحزب الجديد حدث الانقسام اذ خرجت معهم أغلبية رفاق حدتو وشكلو الحزب الشيوعى المصرى (حدتو) فى مواجهة الحزب الشـــيوعى المصرى (التكتل) حسب تســمية حدتو لهذا الحـــزب ·

ثم يذكر محمود أمين العالم : اننى التقيت بالرفيق الشهيد عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعى السودانى ، وشكوت

له ما أعانيه من تناقض وتآمر ، ولقد نصحني بضرورة فضح هذا كله بأن أكتب بيانا وأبعث به الى مختلف الأحزاب الشيوعية العربية والعمالية بل والعالمية أساسا ، أوضح فيه حقيقة ما تم من تآمر على وحدة الحزب ومن تعسف في فصل رفاق حدتو ، ومن أسلوب حلقي في قيادة الحزب ، فضلا عن الخط السياسي اليساري الذي يتبنونه، الا أنني لم أفعل ذلك تمسكا أرثوذكسيا بالانضباط التنظيمي .

ثم تحدث عن مقابلته للسادات وطلب السادات منه حل الحزب الشيوعي والانضمام الفردي الى الاتحاد القومي فقال « العالم » له : بل ندخل كتنظيم . قال السادات : لو فعلت ذلك معكم فلابد أن أفعل الأمر نفسه مع عبود باشا ومجموعته ، ولم ينته الحوار الطويل الى شيء .. وقدم السادات اقتراحه بالحل باسم قيادة الثورة ، ورفضه العالم باسم المكتب السياسي للحزب الشيوعي ثم قال العالم : ان التناقض الذي احتدم بين السلطة الناصرية وبين الشيوعيين في هذه المرحلة لم تكن تحركه تناقضات داخلية أساسا وانما كان نتيجة للتناقض بين الثورة المصرية والثورة العراقية (٢) .

تصاعد المد الوطني والقومي :

كانت سنوات ٥٦ ، ٥٧ ، وبداية ١٩٥٨ مليئة بالانتصارات الوطنية والقومية فعلى صعيد الوطن أممت قناة السويس واستردت مصر سيادتها عليها وعادت اليها عوائدها ، ودحر العدوان الثلاثي الذي هدف الى وأد التأميم وبذلك استخلصت مصر نهائيا قناتها ، ثم ألغيت اتفاقية جمال هيد وصفيت القاعدة العسكرية البريطانية التي كانت ترابط على ضفاف القناة تنتقص من حرية مصر

---

(٢) د. فخري لبيب : الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ٢ ، ص ٣٧٩ _ ٣٨٣ .

واستقلالها ، وكانت تمثل رأس حربة للقوى الاستعمارية لتهديد استقلال مصر والعودة الى احتلالها ، ومصرت الشركات والمؤسسات البريطانية والفرنسية وأملاك الدول الأخرى التى ساندت العدوان الثلاثى ووضع بذلك الأساس المادى لنشـــأة القطاع العام وفتح الطريق لتحقيق هدف مصر الطموح فى بناء السد العالى بعيدا عن السيطرة الاستعمارية وبمساهمة منزهة على قاعدة الصداقة المصرية السوفيتية ، وهزم مشروع أيزنهاور الذى أرادت به أمريكا أن ترث الاستعماريين الانجليزى والفرنسى بحجة وجـــود فراغ فى المنطقة برحيلهما ، وأفرج عن المعتقلين واتسعت مساحة الحريات ، وتمت الانتخابات لرئيس الجمهورية ولمجلس الأمة لاستكمال المؤسسات الدســتورية بالعودة الى الشعب لانتخــاب ممثليــه وخلق هياكل ديمقراطية ، رغم ما شــابه ذلك من نواقص ســواء ما تعلق منها بالاعتراض على بعض المرشحين أو بنزاهة العملية الانتخابية ، وزاد التعاون بين الشيوعيين وبين الحكم الوطنى بقيادة عبد الناصر ، وظهر هذا فى مجال الصحافة وخاصة جريدة « المساء » .

كان هناك التقاء وطنى جبهوى منذ مقاومة العدوان الثلاثى وان لم يأخذ شــكلا رسميا ، وكان هناك الى جانب التعاون الســياسى مجهودات مشتركة تبذل فى تخطيط التنمية الاقتصادية وفى عمل دراسات تمهيدية لتأميم بعض المرافق العامة مثل شركة سيارات أبو رجيلة وشركة فرغلى للأقطان .. الخ .

من هنا يتضح أن الشيوعيين كان لهم دور يتنامى فى الحركة الوطنية والاجتماعية فى مصر .

وعلى الصعيد العربى تصاعدت حركة التحرير الجزائرية ، وتزايد دور مصر فى دعمها ومســاندتها ، كما تصاعد المد القومى

العربي بوحدة مصر وسوريا وتكوين الجمهورية العربية المتحدة رغم نواقصها الديمقراطية وقامت ثورة العراق وانهار حلف بغداد ·

كان التصور أن حركة التحرير كسبت المعركة نهائيا وأن قوى الاستعمار والرجعية قد اندحرت ولن تستطيع رغم تحفزها أن ترفع رأسها مرة أخرى للتأثير على القرار الوطني ·

ولكن التطورات في النصف الثاني من عام ١٩٥٨ جاءت معاكسة للمقدمات ، لقد تبدلت الصورة استطاعت القوى الاستعمارية والرجعية أن تفتعل الأزمات لتفريق القوى الوطنية ، فصورت الأمور على أن الاستعمار قد زال ولم يصبح خطرا ولا عدوا رئيسيا ، وأن التناقض معه قد تضاءل وأصبح التناقض الاجتماعي بين الطبقات هو التناقض الرئيسي الذي يجب أن يوضع في المقدمة وتعبأ له الجهود ، وبذلك تضرب القوى الوطنية بعضها بعضا ·

ولقد تورطت القوى اليسارية داخل الحركة الشيوعية في هذا المأزق خاصة تيار (ع · ف) فلعبت هي الأخرى دورها في تطور الأمور واحتدام الأزمة بالتصور أن الحكم يمثل البرجوازية الاحتكارية ، وأن التناقض الرئيسي قد أصبح بينه وبين الطبقة العاملة ، بل لقد وصل ببعضهم الى القول بأن الحكم شريك أصغر للاستعمار ، ورفعوا شعار الاسقاط ·

ومن المفارقات الغريبة أن تيار (ع · ف) في الفترة السابقة على الثورة وفي سنواتها الأولى غلب على نشاطه العمل النقابي أكثر من السياسي ، وقد مارسوا نشاطهم من خلال الطليعة الوفدية ، فكانوا أقرب الى الوفد منهم الى الشيوعيين ، وكانوا دائما على يمين التنظيمات الشيوعية الأخرى وقد أطلقوا على تنظيمهم الديمقراطية

الشعبية (د . ش) ثم فجأة يتحولون الى عبث الأطفال اليسارى بعد وحدة ٨ يناير ١٩٥٨ .

لقد بالغوا فى قوتهم ولم يكونوا بخطهم اليسارى التصفوى قادرين على مواجهة المحنة التى شـــاركوا فى صنعها ، ويعترف « فخرى لبيب » بأنهم لم يكونوا مؤهلين لذلك فيقول :

« لم يكن الحزب بوضعه وانكشـــاف أعضـــائه مؤهلا لمعركة طويلة المدى ، كان عليه أن يتراجع الى الخلف ليعد نفسه الاعداد الذى لم يكن قد تم انجـــازه ، دون أن يظهر نفســـــه بأكثر من قوته » (٣) .

لقد كان عبد الناصر قبل اتمام الوحدة مع سوريا حذرا من التورط فى شكل من الوحدة لم تنضج ظروفه الموضوعية ، فاعترض على الوحدة الفورية بين البلدين وفضل عليها قيام اتحاد فيدرالى لمدة خمس سنوات على أن يعاد النظر فى أمر تلك الوحدة المقترحة بعد انتهاء تلك المدة .

وكتب وكيلا المخابرات المصرية ، شعراوى جمعة وأمين هويدى الى الرئيس جمال عبد الناصر أن « الفروق كبيرة والواقع مختلف ، وقبول الوحدة محفوف بالخطر ، والنصيحة هى التأجيل » .

وكان أغلب أعضاء مجلسى قيادة الثورة السابقين الذين عرض عليهم جمال عبد الناصر الأمر ضد قيام الوحدة الاندماجية فورا ، ويفضلون عليها قيام اتحاد بين البلدين (٤) .

---

(٣) د. فخرى لبيب . الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

(٤) مذكرات عبد اللطيف بغدادى ، ج ٢ ، نقلا عن د. فخرى لبيب : الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ١ ، ص ٥٣ .

وقد وافق مجلس النواب الســـورى بالاجماع على الاتحاد الفيدرالى مع مصر ، وأعلن فيه خالد بكداش ـ وكان عضوا بالمجلس ـ موقف الحزب الشيوعى السورى بقوله :

« لقد دعونا دائما الى أن يؤخذ فى كل مشروع أو سعى الى الوحدة الظروف الموضوعيـــة فى كل بلد بعين الاعتبـــار ، ولانزال عند رأينا ، فحتى بعد ازالة الاقطاعية والبورجوازية الكبيرة من الحكم ، تبقى لكل بلد ظروفه الموضوعية ، وان تغير محتواها ، أو طرأ عليها بعض التعديل من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، وعلى كل حال يجب التمهيد للوحدة العربية باقامة علاقات اجتماعية أخوية بين البلدان العربية المتحررة ، تخلق جوا من الثقة المتبادلة التى يجب أن تتعاظم خلال التعاون السياسى والثقافى والاقتصادى » .

كما قال أيضا : « لقد أبدى حزبنا ، من زمن طويل ، رأيه بأن شـــعار الوحدة العربية ليس وليد نشـــاط أو دعاية حزب من الأحزاب ، بل هو منبثق من الواقع الموضوعى للبلدان العربية ، فتحليل الوضع فى العالم العربى ، على أساس الماركسية الليثينية يؤدى حتما الى اعتناق شعار الوحدة العربية ، فهو اذن شعار تمليه علينا مبادئنا نفســـها ، وكل ادعاء آخر حـــول موقفنـــا ـ نحن الشيوعيين ـ من الوحدة العربية هو كلام باطل » (٥) .

وكان حزب البعث الاشتراكى السورى يرى أن يكون الاتحاد فيدراليـــا .

---

(٥) قصة ثورة ٢٣ يوليو ج ٣ لأحمد حمروش نقلا عن د. فخرى لبيب : الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ١ ، ص ٥٣ .

ولكن عبد الناصر يتحول موقفه الى الوحدة الشاملة وليس الاتحاد الفيدرالى حتى تتجمع كل خيوط الدولة الجديدة فى يده وتحت قيادته ، ويرجع هذا التحول الى الأسباب الآتية :

١ ـ التيار الشعبى الشديد المؤيد للوحدة مع سوريا .

٢ ـ اجماع العسكريين السوريين على الوحدة ، وقبولهم قيادة عبد الناصر بلا تردد .

٣ ـ الخوف من انتشار الشيوعية فى سوريا ومصر .

٤ ـ الطموح الى ظهور أول تحقيق عملى للقومية العربية ممثلا فى أول دولة (٦) .

ويقرر عبد اللطيف بغدادى : « اضطررنا للاستجابة تفاديا لنفوذ الشيوعيين المتزايد فى سوريا » .

وقد اشترط عبد الناصر على السوريين لقبول الوحدة حل الأحزاب وابتعاد ضباط الجيش عن الاشتغال بالسياسة (٧) .

ثم قامت الثورة العراقية فى ١٤ يوليو ١٩٥٨ فساندها عبد الناصر وعمل على دعمها دوليا ، فقد علم بها وهو فى عرض البحر عائدا من بريونى بيوغسلافيا فقطع رحلة العودة وتوجه فورا الى الاتحاد السوفيتى للحصول على دعمه للثورة العراقية .

---

(٦) قصة ثورة ٢٣ يوليو ج ٣ ، لأحمد حمروش نقلا عن د فخرى لبيب : الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ١ ، ص ٥٤ .

(٧) مذكرات عبد اللطيف بغدادى ، ج ٢ ، نقلا عن د. فخرى لبيب : الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ١ ، ص ٥٤ .

ولكن القوى الاستعمارية والرجعية سعت الى احداث الانشقاق بين العراق والجمهورية العربية المتحدة لاغراق المنطقة فى صراع داخلى تستطيع من خلاله أن تنتهز الفرصة للانقضاض على النظام نفسه والمكاسب الوطنية والاجتماعية التى تحققت ٠

وساهم الحزب الشيوعى العراقى فى هذه الأزمة بسياسته اليسارية التى كانت ترى أن هناك قطبين فى السياسة العربية قطب رجعى تمثله مصر الناصرية وقطب تقدمى ثورى تمثله بغداد ولعب الكل على وتر الديمقراطية وحل الأحزاب ونفخوا من روح التعصب القومى وضخموا من دور عبد الكريم قاسم ، وارتفعت من هنا راية العداء للشيوعية حتى تستطيع القوى الرجعية تحت ظلالها من هدم كل شيء ٠ واستغلوا الشعارات الحمقاء التى رفعها بعض اليساريين فى مصر « زى قاسم ياجمال » كما عملوا على افساد العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتى واستغلوا تصريح خروشوف فى موسكو فى فبراير ١٩٥٩ الذى رد به على تورط عبد الناصر فى حملة العداء للشيوعية وهجومه العنيف على الاتحاد السوفيتى وعلى الشيوعيين فى العراق وسوريا ومصر والذى يقول فيه عن عبد الناصر : « انه شاب حدث أمامه أن يكتسب خبرة طويلة » وأكد خروشوف فى نفس الخطاب الدوافع الوطنية المختلفة لدى القادة الوطنيين وعلى رأسهم جمال عبد الناصر ، وحذر من أى شقاق بين القوى الوطنية وأن هناك دوائر معينة تستخدم سلاح العداء للشيوعية للوقيعة بين القوى الوطنية العربية (٨) ٠

ولكن القوى الرجعية والاستعمارية أغفلت كل ذلك وركزت على قول خروشوف ان عبد الناصر شاب حدث أمامه أن يكتسب خبرة طويلة ٠

(٨) د٠ فتحى عبد الفتاح : شيوعيون وناصريون ، ص ٢٥ ٠

وبدأت صحف أخبار اليوم وصوت العرب حملة عنيفه ضد الاتحاد السوفيتى والشيوعيين ٠

وفى تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المصرى (الراية ، ع ٠ ف) فى ١٩٦٤/٨/١ اعتراف بأن الفكر اليسارى والقيادة اليسارية هى المسئولة عن أزمة ١٩٥٩ وليس نظام عبد الناصر ٠ فعن الفترة من ١٩٥٩ الى عام ١٩٦١ يقول التقرير : « كان الخطأ اليسارى الذى وقع فيه الحزب هو خطأ المبالغة والتعميم ، ذلك أن النفوذ المتزايد للأجنحة اليمينية البرجوازية على السياسة المصرية قد حجب عن الحزب ـ فى ذلك الوقت ـ أن التناقضات لاتزال قائمة بين البرجوازية القومية كطبقة وبين الاستعمار ، وأن هذه التناقضات لا يلغيها اشتداد حدة التناقضـات بين البرجوازية وبين العمال والفلاحين والشعب الكادح عموما ٠٠ أخطأ حزبنا عندما قدر ـ فى هذه الفترة ـ أن البرجوازية الحاكمة ككل قد انعزلت نهائيا عن مجرى الثورة ، ومن هنا جاء التحليل الذى قدمه الحزب وانتهى فيه الى أن التمثيل الطبقى لحكومة عبد الناصر قد تغير فلم تعد تمثل البرجوازية القومية ككل بل جناحا منها هو جناح البرجوازية الكبيرة بما فى ذلك البرجوازية الاحتكارية ٠٠ ان هذا الخطأ يعكس عدم ادراك لحقيقة أن التناقضات الثانوية بين القوى الثورية يمكن ـ اذا لم تعالج بالحكمة اللازمة ـ أن تبلغ أبعادا بالغة الخطورة تهدد ـ موضوعيا ـ مستقبل الثورة ومنجزاتها ، كما أن الخطأ يعكس عجزا عن التمييز بين العارض والجوهرى فى الظواهر المتشـابكة والمعقدة التى تميزت بها الثورات التحريرية فى البلدان المسـتقلة حديثا ٠٠ وقد قامت الفكرة القائلة بأن مضمون السلطة قد تغير

وأن حكومة عبد الناصر تمثل الاحتكار ـ على خلط بين من بيده السلطة بالفعل وبين الفئات التى تستفيد منها نتيجة لظروف معينة أو لسياسة خاطئة » (٩) ٠

بعد حوالى شهرين من قيام ثورة العراق بدأ التراشق بالاتهامات مستترا بين قيادة الجمهورية العربية المتحدة وبين القيادة العراقية ، ثم احتدم الصراع فالقيادة العراقية تهاجم الجمهورية العربية المتحدة كما لو كانت دولة استعمارية ، والجمهورية العربية المتحدة تهاجم العراق بنفس العنف ، وتفشل محاولات التهدئة ، وتستمر المعركة بين الناصريين والبعثيين والماركسيين ، صارت كلمات ناصرى وبعثى وماركسى تحمل معانى كريهة فى بعض البلاد العربية ، ففى العراق يوصف الناصرى بأنه ناصر للاستعمار والبعثى بأنه عميل وانتهازى وفى مصر يوصف الماركسى بالخيانة والعمالة وتهاجم الصحف فى العراق عبد الناصر وتصف نظامه بأنه دكتاتورى توسعى ينسق مع الإستعمار خاصة الولايات المتحدة الأمريكية ، وفى مصر وسوريا يوصف نظام عبد الكريم قاسم بالشيوعية والعمالة والعداء للعروبة والتبعية للاستعمار البريطانى ٠

حملة صحفية واذاعية شرسة على الجانبين لم توجه لاسرائيل أو للمصالح الاستعمارية ، وانما دارت بين القوى الوطنية التى تجمعها مصالح مشتركة ، وكانت بالأمس القريب تجمعها وحدة الشعارات والعمل ، ووقفت القوى الرجعية والاستعمارية التى عانت من الهزائم فى السنوات الماضية ترقب المعركة فى سعادة غامرة ، فقد تنفست الصعداء ٠

---

(٩) د٠ فخرى لبيب : الشيوعيون وعبد الناصر ، جـ ٢ ، ص ٤٩٥ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ٠

لقد مثلت هذه المعركة الدعائية فى مصر ارهابا فكريا باسم مكافحة الشيوعية ، وكانت تمهد لمعركة دموية شهدتها السجون والمعتقلات لأكثر من خمس سنوات ٠

لم يكن هناك من حمل السلاح ضد النظام حتى يردع بحملة دموية ، ولكنه العجز عن مواجهة الفكرة بالفكرة والخوف من الرأى الآخر حتى ولو كان متفقا معه لأنه ان قبل اليوم بحق الرأى الآخر فى الاتفاق فذلك قبول بحقه مستقبلا فى الاختلاف ٠٠

لم يطق النظام الحوار ولم يتعود عليه فقد نشأ تنظيم الضباط الأحرار فى صفوف الجيش فكان لابد أن يتسم بأقصى درجة من السرية والانضباط والطاعة المطلقة التى لا تقبل نقاشا ، لذا كانت الديمقراطية فى داخله نوعا من الترف لا يتحملها ٠٠ وكان للطبيعة العسكرية هذه تداعياتها حين تنتقل الى التعامل مع المجتمع المدنى ، فتعمل قيادة الضباط الأحرار على تعميم التجربة على الشعب بمحاولة عسكرة الجماهير ورفض أى تنظيم آخر غير تنظيمها وبالتالى رفض الرأى الآخر وعدم القبول أو الاعتراف بأى شكل جبهوى ٠

من هنا ألغت قيادة يوليو الدستور والأحزاب وأدى بها ذلك الى أن ترفض القوى التى معها والتى هى فى حاجة الى مساندتها ٠

لقد وقعت الحركة الشيوعية والتقدمية والديمقراطية ضحية لهذا الواقع المتأزم فتلقت الضربات القاسمة وساعد على نجاح هذه الضربات التى شملت الآلاف من الشيوعيين :

١ ـ انكشاف الكثير من العناصر أثناء أحداث الانقسام داخل الحركة الشيوعية الذى أهدر كثيرا من أسرارها ٠

٢ ـ التمثيل النسبى فى اللجنة المركزية بعد الوحدة لكل تنظيم من التنظيمات التى اتحدث بحسب تعداد أعضائه فأسرع الجميع الى التوسع فى تجنيد الأعضاء الجدد دون تحرى الدقة فى الاختيار ٠

٣ ـ دخول الشيوعيين انتخابات عام ١٩٥٧ أتاح لهم التوسع فى العضوية ، ولما حانت حملة الاعتقالات لم يكن كثير من هؤلاء الأعضاء قد تصلب عودة وتقوى ايمانه ٠

٤ ـ لقد ترهلت بعض القيادات وانفصلت عن مسار الثورة وتلاقت مصالحها مع الفئات العليا فانتصرت لديها قيم الثروة على الثورة وعملت على تصفية القوى الثورية وازاحتها من الطريق ٠

اعتقالات رأس السنة :

بينما العالم يحتفل بليلة رأس السنة وبداية السنة الجديدة ١٩٥٩ انطلقت خفافيش الظلام وزوار الليل يطرقون آلاف الأبواب يروعون الأطفال والأمهات والزوجات من نومهم لاختطاف المناضلين من أحضان أبنائهم وأسرهم والزج بهم فى غياهب السجون والمعتقلات ٠

فى المدرسة اليونانية ببورسعيد :

وهنا نتوقف قليلا قبل أن نواصل حديث السجون والتعذيب ٠

فى امتحان الفرقة الرابعة فى يونية ١٩٥٨ أديت الامتحان وحصلت على الليسانس ، ولأننى مفصول سياسى من الوظيفة أعرف

أنه سيعترض على تعييني في أى عمل حكومي ، لذلك لم أتقدم بمسوغات التعيين للكلية ـ كما هو متبع بالنسبة لطلبة الفرقة الرابعة ـ والتى تقدمها بعد ذلك لوزارة التربية والتعليم لاصدار قرارات تعيين المدرسين من الناجحين فى امتحان الليسانس باعتبارهم تربويين ومؤهلين للتدريس ٠

كان على أن أبحث عن مدرسة خاصة للتدريس بها ، كان مجال العمل محدودا ، طرقت أبواب المكتب الفنى للتعليم الأجنبى وكان مقره بمدرسة دار المعلمات بالعباسية بمصاحبة صديقى الأستاذ أحمد مجاهد المحامي وكان على معرفة بالأستاذ الخولى المفتش الأول للغة العربية ـ حيث كانا عضوين بالحزب الوطنى ـ وكان المطلوب ترشيحى للتدريس باحدى المدارس الخاصة فأرسلنى الى المدرسة الألمانية بالزمالك فذهبت اليها وكان الأمل فى وجود مكان خال بها ضعيفا فعدت الى المكتب الفنى ٠٠ ومصادفة كان مدير المدرسة اليونانية ببورسعيد ـ الأستاذ فيليب ـ موجودا لطلب مدرس للغة العربية لمدرسته فرشحت لها وسافرت الى بورسعيد ، وحررت المدرسة عقدا معى بمرتب خمسة عشر جنيها فى الشهر وهو مبلغ لا بأس به فى ذلك الوقت فليس قليلا وليس كثيرا ٠

ويمكن معرفة قيمة هذا المبلغ اذا قارنته بما عرضته على مدرسة أخرى خاصة بالزيتون بشارع سليم الأول وهو ستة جنيهات ٠٠ وقد رفضت عرضها رفضا ممزوجا بالأسى والسخرية من هذا الابتزاز العلنى ٠

كان الجو السياسى فى القاهرة متوترا ينبىء عن عواصف بسبب الصراع العنيف فى العراق بين أجنحة القوى التى قامت بثورة ١٤ يوليو ، وقد أجج هذا الصراع حزب البعث فى العراق وسوريا

وشد عبد الناصر اليه بدعوى الصراع بين الشيوعيين والقوميين ونفخ الاستعمار فى هذا الصراع وتورط اليسار فى المعركة بشعارات صبيانية ، وشغل العرب بأنفسهم وتصاعد الصراع بينهم الى مرتبة التناقض الرئيس وهاجم عبد الناصر الشيوعيين فى العراق وسوريا ومصر ٠

دفعنى هذا الجو الى مغادرة القاهرة فى أول أكتوبر ١٩٥٨ وقمت بالعمل بالمدرسة اليونانية بشارع الثلاثينى ببورسعيد وهى خاصة بأبناء الجالية اليونانية تدرس علومهم بلغتهم غير أن وزارة التربية والتعليم المصرية قد فرضت على مثل هذه المدارس تدريس اللغة العربية لتلاميذها ٠

كانت قناة السويس فى ذلك الوقت مفتوحة للملاحة فقد أعيد فتحها فى ١٠ ابريل عام ١٩٥٧ بعد أن أغلقت عقب العدوان الثلاثى، حين قام المصريون باغراق بعض السفن والكراكات بها ــ بزعم أن ذلك حدث بسبب غارات طائرات العدو ــ وذلك حتى لا يستخدمها الغزاة بأساطيلهم فى المساعدة على عملية العدوان ٠ ورغم افتتاح القناة فقد كانت المدينة شبه مقاطعة والملاحة ضعيفة بها فأثر ذلك على الحركة التجارية بالمدينة ، فعانت من الركود الاقتصادى ، وضعفت الحركة بها وانخفضت الأسعار ٠

كانت المدينة جميلة ونظيفة ٠٠ سكنت أول ما نزلت بها فى منطقة الملاحات ببورفؤاد بعد مساكن الشركة ومكثت بها شهرا ثم نقلت الى بيت مجاور للبيت الحديد يطل على كازينو جونيلا بالحى الافرنجى ــ كنا أربعة مدرسين استأجرنا حجرتين عند سيدة فى شقتها بالدور الأول العلوى وفى نهاية العام الدراسى استأجرت شقة بشارع ابراهيم ــ وهو شارع القنصليات ومتفرع من شارع

الجمهورية وميدان الشـهداء ، وكان يسـكن معى مدرس آخر هو الأستاذ أحمد جودة .

فى بداية عملى بالمدرسة طلب منا استخراج تصريح للعمل فى الهيئـات الأجنبية وكان هذا التصريح يسـتخرج من وزارة الداخلية ولما كنت أعلم أن وزارة الداخليـة سترفض طلبى ، وفى نفس الوقت كنت حريصا على أن لا يعرف مكان عملى حتى لا أتطوع بنفسى فأصبح محل مراقبة أو مطاردة من الأمن أو منعى من العمل بالمدرسـة .

من هنا فكرت : ما العمل ؟ حتى أؤجل هذه المشكلة أو أجد لها حـلا .

حضرتنى حيلة أن أرسل ظرفا بداخله ورقة بيضاء خالية من الكتابة وأسجله فى مكتب البريد وأقدم ايصـال مكتب البريد للمدرسة التى تضعه فى ملفى ، وتتعلل به المدرسة أمام مندوب الأمن اذا حضر لمتابعة استحضار تصاريح العمل بحجة أن التصريح لم يصل بعد من الداخلية ، وهذا هو ايصال ارسال طلب التصريح .

كنت معروفا فى القاهرة لدى أجهزة الأمن باسم السيد يوسف فلما سافرت الى بورسعيد اختصرت اسمى على : السيد أحمد محمد ولم أذكر يوسف وكثيرا ما يعتبر « السيد » لقبا وبهذا الاسم سجلت الخطاب بالبريد للداخلية .

فى عيد النصر فى ٢٣ ديسمبر ١٩٥٨ خطب عبد الناصر فى استاد بورسعيد وهاجم عبد الكريم قاسم والشيوعيين العرب عموما ، وبدا الجو مكفهرا وأننا مقبلون على محن لا يعلم سوى الله مصيرها كنت موجودا بالاستاد يومها وأحسست بالخطر القادم ، فسافرت

الى القاهرة فى أواخر ديسمبر لجس النبض ومحاولة البحث عن واسطة للحصول على تصريح العمل من الداخلية فذهبت بصحبة الأستاذ أحمد مجاهد المحامى والعميد صــــلاح مجاهد الى وزارة الداخلية وسأل العميد صلاح مجاهد بعض الضباط عن زميله العميد حسن مصيلحى أحد كبار ضباط مكافحة الشيوعية ولكنه لم يكن موجودا ، كانت هنــــاك حركة فى المكاتب يبدو منها الاستعداد لشىء ما . خرجنا ولم تحقق الزيارة شيئا .

أحسست أن بقائى فى القاهرة لا داعى له وكانت النية أن أنتظر بضعة أيام وأن أبيت ليلة رأس السنة عند صديقى محمد عمارة فى شقة للمحترفين ، ولكن الصدفة دفعتنى للسفر للقرية ولم أنتظر بالقاهرة .

وفى يوم أول يناير ١٩٥٩ سمعنا فى القرية عن مداهمة الأمن للبيوت مع فجر العام الجديد ومنها الشقة التى كنت سأبيت فيها ، وعن موجة اعتقالات واسعة شملت صديقى محمد عمارة ، كما سمعنا عن قوائم جديدة معدة لاعتقالات أخرى .

سافرت وزميلى عبد السلام خشان الى القاهرة خلسة لنتتبع الأخبار فوجدنا المطاردات على قدم وساق وكثيرا من الكوادر التى لم تطلها حركة الاعتقال — تتحرك فى خفاء وتبحث عن مكــــان آمن . فأسرعت للانفلات من القاهرة الى بورسعيد .

كانت مأساة للحركة الوطنية والقومية والتقدمية ، هذا الصراع فى غير معركة وفى غير ميدان ، وبدلا من أن يبدأ العام الجديد ببشـــائر خير وتصاعد فى الحركة الوطنية والتقدمية صار نذير شؤم طرب له الأعداء وشجعوه .

مكثت بقية العام الدراسى بالمدرسة ، أشعر بأننى محاصر فى جزيرة لا أستطيع مبارحتها ورغم أنه كان يوجد ببورسعيد من المدرسين بعض من هم زملائى فى الدراسة ومن دكرنس ممن لهم انتماءات سياسية أخرى أولا انتماء لهم ، فقد تعمدت ألا أقيم علاقات معهم حتى لا يتسرب نبأ وجودى ببورسعيد وحتى لا تعرف المباحث العامة ذلك ، وكنت قد عملت على أن يشاع فى القرية أننى سافرت الى الكويت ، وقد زرت أمى واخوتى بالقرية سرا وكانت المقابلة تتم فى قرية مجاورة عند أختى لأطمئن عليهم ويطمئنون على وفى الفجر أنهض وأمشى سيرا على الأقدام ـ يودعنى أحد أقاربى ـ الى محطة بعيدة عن دكرنس لعلها مراقبة لأركب منها عائدا الى بورسعيد ..

كنت فى بورسعيد أقضى وقتى بين عدد محدود من مدرسى المدرسة وأولياء الأمور اليونانيين .

.. كان صديقى حامد الموجى خريج كلية أصول الدين فى بلدة « السرو » بلا عمل فأرسلت اليه بالحضور الى بورسعيد حين عثرت له على عمل بالتدريس بالمدرسة اليونانية الابتدائية ببورفؤاد فحضر وسكن معى فكان وجوده مما خفف على الوحشة ، كما كان يؤنسنا صديق ثالث خفيف الظل هو الأستاذ أحمد جودة وقد تخرج معى من دار العلوم وعمل ببورسعيد مدرسا بمدرسة أجنبية ، كان زميلا متدينا فى اعتدال ومهذبا ، لين المعاملة وبه روح شاعر ، تأثر بنا دون أن تكون له صلة بالسياسة ، كان يبدى اعجابه بى وبالأستاذ حامد الموجى ، كما كان شديد الاعجاب بثقتى واعتزازى بنفسى فى تعاملى مع الآخرين ، كان يقول انه يجد فينا شيئا آخر غير الناس .. كان معنا فى السكن مدرسان آخران مختلفان اختلافا بينا عنا فى المزاج والقيم وكانا مثالين للتفاهة والسطحية والمراوغة والكذب والادعاء وفقدان القيم ، تخرجا معى من كلية دار العلوم ، ولم أكن

على صلة بهما وتعرفت عليهما فى بورسعيد من خلال الاجتماعات التى كان يعقدها موجة اللغة العربية مع المدرسين وكانا يعملان بمدرسة خاصة أخرى ، كانت علاقتنا معهما هامشية جدا ، تعايش عن بعد وكان أحمد جودة ينحاز لنا ويتحاشاهما .

كنا نقضى وقتنا فى المدرسة وفى مقهى « اللوفر » ونتجول على القناة والشـاطىء واللسـان الذى يقع فى بداية القناة يفصل بينها وبين البحر ويقام عليه تمثـال « ديليسبس » الذى حطمته جماهير بورسعيد بعد تأميم القناة كرمز للاحتلال وللخديعة ..

توثقت علاقتى بادارة المدرسة وببعض أولياء أمور الطلبة من اليونانيين ، وكان همزة الوصـل معهم زميل يونانى مصرى هو الأستاذ باسيلى حنا ناشد أبوه مصرى صعيدى وأمه يونانية . كان مدرسا بالمدرسة ويتقن اليونانية ويترجمها الى العربية وبالعكس ، وكان مسئولا عن شئون الكتب بالمدرسة ، كنا نقضى أوقاتا طويلة معا ومعنا زميل مصرى آخر كان يدرس بالقسم الابتدائى هو الأستاذ عمر وينضم الينا أحيانا الخواجة ينى سـكرتير الجمعية اليونانية التى تتبعها المدرسة والكنيسة وهو يونانى وقسيس الكنيسة وقد اتفقت مع الأخير على أن أعلمه اللغة العربية ويعلمنى اليونانية ، ولكن لم يتم ذلك بسبب التطورات اللاحقة التى ستأتى بعد .

فى بعض الجلسات التى يحلو فيها الكلام وينطلق الانسان على سجيته يحكى عن نفسه ، فهمت من الأستاذ باسيلى أنه على اتصال بالماسونية وكان يعبر عنها بالبنائين الأحرار متفاخرا .. كانت هذه الجمعية فى ذاكرتى تحيط بها الشكوك منذ قرأت عن نشاط جمال الدين الأفغانى فى مصر ؛ فبدأت أتنبه وأتسـاءل متجاهلا — ما أهدافها ؟ وكيف يتعرف الأعضاء على بعضهم البعض ؟

كما عرفت من خلال حديثه أنه طلب مرة فى مباحث بورسعيد أيام العدوان الثلاثى ووجهت اليه بعض الأسئلة التى تثير بعض الشكوك حوله بعد أن ترك هناك ساعات طويلة دون أن توجه اليه أسئلة ، ودون أن يعرف لماذا استدعى ، مما أثار فى نفسه الفزع من مستقبل غامض ٠

كانت علاقاتى قد توطدت مع المدرسة فرشحتنى لأكون وكيلا لها مسئولا عن المواد القومية مع بداية العام الدراسى تنفيذا لقرار وزارة التعليم عام ١٩٥٨ بضرورة وجـــود مشرف مصرى للمواد القومية بالمدارس الأجنبية ، فضلتنى بهذا الترشيح رغم وجود زميل آخر أكبر وأقدم مني وكان معارا الى المدرسة فلم تجدد اعارته لجفاء بينها وبينه ٠

زاد دخلى المادي من هذه المدرسة لأن أولياء الأمور كانوا يطلبون منى اعطاء دروس لأبنائهم وقد يسر ذلك أن أقوم بارسال بعض المساعدة المالية لأمي واخوتى وكانت حالتهم المالية فى تدهور عما كان الحال عليـــه سابقـــا بسبب بعض المغامرات فى مشروعات خاسرة ٠

يعرف عن أهالى بورسعيد أنهم يحتفون بالضيف خاصة اذا كان شابا غير متزوج وتأمل الأسرة أن تزوجه ابنتها وهم فى هذا يضحون كثيرا ٠

فى المنزل الذى سكنته ببورفؤاد كانت صاحبته عندها بنت حاصلة على شهادة متوسطة وتعمل فى أحد البنوك وتذهب اليه بالدراجة حتى المعدية ثم منها الى البنك وبالعكس فى العودة ٠

احتفت بى صاحبة البيت كثيرا ، كنت أخرج من المدرســـة وأذهب الى البيت بعد أن أكون قد تغذيت فى مطعم أو أحضرت معى

طعامى ، فأجدها قد أعدت لى غذاء شهيا من السمك المتعدد الأصناف ومن الأرز — لم أكن أحب الابتزاز والعيش على حساب الآخرين وأجد هذا نقصا يخل بكرامة الانسان ، وأحرى بى أن أتنزه عنه ، فكنت أصـدها عن ذلك وحين أجدها فى النهاية مصرة اشترط أن أدفع لها ثمن ما اشترته ٠

كانت تحدثنى عن أملاكها ومنها مبنى مدرسة ببورسعيد وهذا المنزل الذى أقيم به وبه بعض الشقق المؤجرة كما كانت تحدثنى عن ابنتها الموظفة بالبنك ، وكنت أشم رائحة تحويجات كانت تطحنها مستعينة بسيدة متخصصة فى ذلك وتقوم بعمل القهوة التى تصر على أن أحتسيها ، ولما كنت لم أضع الزواج فى خطتى فى ذلك الوقت ولا أؤمن بالخرافات المنتشرة بين الناس عن الأحجبة والأعمال وأنها مجرد أوهام لا أثر لهـا ، فقد كنت أحيـانا أجد نفسى مضطرا — للمجاملة — الى شربها ، وان كنت أجد لها طعما غريبا ٠

كانت تتعجب من هؤلاء الخواجات الذين يأتون الى المنزل — وهم يلبسون البرنيطة — وينادون على من الشـارع وكنت أنزل وأذهب معهم الى بورسعيد ولا أعود الى المنزل الا متأخرا بعد منتصف الليل ، وتتندر على أبناء القاهرة الذين يسهرون خارج البيوت الى هذه الساعات المتأخرة ٠

حين نقلت الى مسكن ببورسعيد بعد شهر أحست السـيدة بغصة وأبدت حزنها على تركى السـكن وشـعرت بأن طيرا قد أفلت منها ٠

أما عن العمل السياسى ببورسعيد فقد كان متوقفا تقريبا فى تلك الفترة — كنت على علاقة شخصية محدودة بزميل من بورسعيد

·· قطعت الاعتقالات الاتصالات بين الكثير ممن لم تسملهم حركة الاعتقال ·· كان الأمن لا يكف عن التقاط العناصر التي يعثر عليها ، أو يتركها ليتتبعها لتكون مصيدة للآخرين ·

حاولت مع زميلي حامد الاتصـــال بمن نعرفهم في الدقهلية والشرقية ، وتمت بعض الاجتماعات وأصـــدرنا بعض التكليفات ، وحاولنا اصدار مجلة وطبعها على الرونيو ، وكتبت أنا وحامد أغلب مادتها ، وحاولنا الاتصـــال بالقاهرة ، فذهب الزميل حامد اليها لمحاولة العثور على خيط ، ولكنه وجد الأمور مفككة ·· الضربات المتتالية قد فرقت العقد · ومن بقي من الناس أفراد فقدوا الاتصال ببعضهم فلا جامع بينهم ، وبـات في لوكاندة بالسيدة زينب فوجد نفسه مراقبا فتظاهر بأنه يستخرج « فيش وتشبيه » وذهب ووقف في الصف ثم تسلل وعاد الى بورسعيد ، ولكن لم يتأكد ان كان قد تمت مراقبته ومتابعته أم لا ·

واحتياطا منا افترقنا في السكن ·· ثم حدث بعد ذلك أن اعترض موجه اللغـة العربيـة على تدريسه للغة العربية ـ مع أنه يدرس في المرحلة الابتدائية ـ بدعوى أنه ليس متخصصا ، فهو متخرج من كلية أصول الدين وليس من دار العلوم أو كلية اللغة العربية مع أنه درس اللغة العربية في الأزهر تسع سنوات ـ وهي أكثر بكثير من حيث مادة الدراسة في اللغة العربية مما يدرسه خريجو مدرسة المعلمين الذين يعينون بالمدارس الابتدائية ·

كان الدافع الحقيقي وراء هذا الاعتراض هو آفة التعصب التي كانت تسيطر على بعض موجهي اللغة العربية ضد الخريجين من غير دار العلوم وكلية اللغة العربية بل كان هناك تعصب من خريجي دار العلوم ضـــد خريجي كلية اللغة العربية ، والعكس صحيح أيضـــا ·

ترك الأستاذ حامد الموجي المدرسة الابتدائية اليونانية وبحث عن عمل آخر ثم وجده في مدرسة خاصة أخرى قضى فيها بقية السنة الدراسية ثم عاد الى بلده في الاجازة الصيفية ٠

في المدرسة اليونانية كانت الفصول مشتركة بين الطلبة والطالبات وكثيرا ما يتخذ بعض الطلبة من المدرس الذي يعجبون به مثلا أعلى لهم ٠٠ وحدث أن تعلقت بي طالبة فجعلت مني مثلها الأعلى وحرصت على تنفيذ أوامري ، وكانت حساسة لأي كلمة تصدر عني ، ولم أتنبه لذلك ٠ الا عندما أشعرتها مرة باستحسان تخفيض وزنها عندما ناديت عليها بقولي : « يا تخينة » فما كان منها الا أن قللت كثيرا من طعامها وبالغت في ذلك فهزلت وكانت وحيدة أمها وأبيها ، فضغطوا عليها لتأكل فرفضت وباحت لهما بما قلته لها فجاءا الي وتوسلا أن أضغط عليها حتى تعود الى تناول طعامها العادي ، فحدثتها في ذلك وطلبت منها التوسط وعدم المبالغة فاستجابت ٠٠ كانت تشد والدها معها وتحوم حول المنزل الذي أسكنه ، ودعوني لزيارتهم في منزلهم وكان أبوها تاجرا ببورسعيد ٠

كان الحاحها هذا قد ترك في نفسي لها مكانا ، دفعني الى أن أحوم أيضا مرة أو مرتين حول منزلها وأن يكون شارعهم ضمن شوارع تجوالي في المدينة ٠

في الاجازة الصيفية سافرت مع أبيها وأمها في زيارة الى اليونان على أن يعودوا في نهاية الصيف عند استئناف الدراسة ٠٠ وفي يوم سفرها صباحا ذهبت الى الميناء لأشاهد السفينة التي حملتها وأودعها ٠٠ ومن يومها لم أرها فقد اعتقلت قبل عودتها . وحين عادت لم تجدني ، وحين خرجت من المعتقل بعد خمس سنوات

كانت قد غادرت مصر نهائيا الى اليونان قبل خروجي بقليل ولكنها تركت في قلبي الخالي ذكرى ٠

لاحت أطيافها بخواطري في ليالي المعتقل السوداء ٠٠ في معتقل القلعة كتبت قصيدة عنها ، حفرتها على جدران الزنزانة مع قصيدة أخرى كتبتها عن سفينة الفضاء السوفيتية ٠٠ ولكن لم يبق منها في ذاكرتي غير مطلعها الذي يقول :

أتذكريني كلما لاح لي ذكراك

وهفهف النيل العظيم على محياك ٠٠ أتذكريني

أثناء الاجازة الصيفية بقيت ببورسعيد أتردد على شاطىء بورفؤاد في كثير من الأيام ، وتسللت مرة أو مرتين لأزور أمي واخوتي ليلا في قرية مجاورة ولم أنزل قريتي ٠

في سبتمبر عام ١٩٥٩ جاءني زوج أختي ليخبرني أن أخي أحمد قد قبض عليه كما قبض على زميل آخر من القرية هو عبد الحميد عبد الرازق ومعه أصول المجلة المعدة للطبع كما قبض معهما على الزميل الشاعر سمير عبد الباقي وتم ذلك بارشاد أحد الأعضاء الذي أرهبته المباحث واستقطبته ليكون مرشدا لها ٠

أحسست أن القبض علي يقترب وفعلا بعد أيام قليلة وفي الساعة الثالثة صباحا من يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٥٩ وكنت أسكن في الشقة الجديدة بشارع ابراهيم بالحي الافرنجي ، طرق الباب زميلي المدرس المصري اليوناني « باسيلي حنا ناشد » فصحوت من نومي — كان يشكن معي بالشقة الصديق أحمد جوده وكان يومها مسافرا الى بلده « تلا » وبالصدفة بات معي ضيف جديد في هذه الليلة وهو مدرس التحق بالمدرسة في نفس اليوم وعزمت عليه ليبيت معي فالشقة خالية ٠

كانت مهمة الأستاذ باسيلى أن يدل المباحث على منزلى ويطرق الباب ويعرفنى أنه هو الطارق حتى أفتح وتتم عملية القبض فى هـــدوء .

انتهى دور الأستاذ باسيلى وتركوه ليعود الى منزله ودخلت القوة الشقة .. سألت : من أنتم ؟ أجابوا : نحن يا أستاذ سيد ضباط المباحث جئنـــا لتفتيش الشقة وأخذك معنا لوقت قصير . فسألت : هل معكم أمر تفتيش ؟ فردوا بالايجاب .

قاموا بعملية التفتيش ولم يجدوا شيئا ، وأعددت حقيبتى وأخذتها معى ، فقالوا لا داعى ، قلت : الأحوط أن تكون حقيبتى معى فخبرتى معكم تحتم على ذلك فقد سبق أن طلبتمونى لخمس دقائق فمكثت فى المعتقل ما يقرب من السنتين .

علمت بعد خمس سـنوات حين خرجت من المعتقل وقابلت الأستاذ باسيلى أن المباحث بحثت عنى فى عدد من المدارس ، وحين وصلوا للمدرسة اليونانية وسألوا تطوع الأستاذ باسيلى بحسن نية وذكر لهم أنه يعرف سكنى فأخذوه معهم وأودعوه فى مكتب المباحث بقية النهار وجزءا من الليل ، فامتلأ خوفا وفزعا ، واستدعى هذا فى ذاكرته ما حدث له أثناء العدوان الثـــلاثى من استدعائه وسؤاله عما اذا كانت له صلة بالانجليز أو بعملائهم ، ولكنهم أعادوه الى منزله ونبهوا عليـــه ألا يخرج من المنزل فى تلك الليلة ، وحين حلت الساعة الثالثة صباحا ذهبوا اليه وأخذوه ليدلهم على شقتى ، وكان المنزل الذى أسكن فيه بالقرب من منزله وفى نفس الشارع ، وحين طرق الباب وفتحت له أطلقوا سراحه .

أخذونى الى قسم البوليس ومكثت هناك الليلة بمكاتب القسم ثم أودعت الحجز عدة أيام حيث علم أهلى فجاء أخى الحاج محمد ومعه بعض الاقارب وزارونى بصحبة أحد ضباط المباحث .

ثم جاء أمر القاهرة بترحيلى الى وزارة الداخلية ومنها الى معتقل القلعة .

معتقـــل القلعـــة :

القلعة بناء شيده صـــلاح الدين الأيوبى على طراز القلاع الصليبية مثل قلعة الكرك ببيت المقدس . وقد بناها كمدينة على شكل قلعة على جبل المقطم حتى يتحصن بها من بقايا الأسرة الفاطمية وأنصارها . فى مصر ، ومن الصليبيين فى فلسطين ، وقد أصبحت منذ ذلك التاريخ مقرا لحكم الأيوبيين ثم المماليك ثم العثمانيين ، وحينما غزا الفرنسيون مصر بقيادة نابليون عام ١٧٩٨ م ودخلوا القاهرة ، أقاموا بالقلعة حامية كبيرة لهم ، واستخدموها فى ضرب الأزهر بالمدافع أثناء ثورة القاهرة الأولى عام ١٧٩٩ كما كانوا أول من استخدمها معتقلا للوطنيين .

وفى عهد محمد على قام ببناء توسعات واضـــافات للجناح الشمالى الشرقى ، كما أقام بها وليمة للمماليك ودبر لهم المذبحة الشهيرة ، وجعلها مقرا لحكمه ، واستمر ذلك فى أسرته حتى كان حـكم الخـديو اسماعيل الذى نقل مقر حـكمه الى سراى عابدين عام ١٨٧٥ م .

وبعد احتـــلال الانجليز لمصر أقاموا بالقلعة حامية كبيرة لهم لاحكام سـيطرتهم على القاهرة كمـا اسـتخدموها سـجنا حربيا لجنـــودهم .

وفى عهد عبد الناصر اسـتخدمت القـلعة معتقلا سياســيا للشيوعيين والديمقراطيين والنقابيين وأنصار السلام ، وبعد أن كان هذا أثرا تاريخيـا يطـل على القاهرة ويجذب اليـه السـياح

والمواطنين لمشاهدة معالمه وشواهد ماضيه والاعجاب بعطره التاريخي، أصبحت سمعته فى جزء منه كريهة وكئيبة ، لقد غدا تخشيبة تشرف عليها المباحث العامة ، ومعتقلا للمناضلين المصريين ، ومحطة تجميع وتوزيع على السجون والمعتقلات الأخرى فى الفيوم والواحات. كما كان مستودعا تستدعى منه المباحث من تريد التحقيق معه .

ففى مستهل عام ١٩٥٩ فتحت أبوابة الخلفية ليستقبل الدفعات الأولى من حملة الاعتقال البربرية التى شملت أخلص العناصر الشريفة من الوطنيين ، ثم توالت الدفعات الداخلة اليه والراحلة منه الى المجهول .

هذا الجزء من القلعة له بوابة ضخمة ، خلفها فناء صغير يؤدى الى باب لحجرة الضباط المناوبين والتى يتم فيها تفتيش المعتقلين تفتيشا دقيقا ، ثم تسجل أسماؤهم وأماناتهم فى سجلات خاصة وتقود هذه الغرفة الى باب آخر يؤدى الى زنازين وعنابر السجن .

بناء السجن غريب ، فقد جمع بين الماضى والحاضر ، فهو يشتمل على دهليزين أو مستطيلين أحدهما أعلى من الآخر بثلاث درجات ، وكل دهليز يضم عدة زنازين ، والدهليز الأعلى يلى حجرة الضباط ، وبناؤه حديث ، وعلى جانبيه زنازين متلاصقة بكل زنزانة سرير ، وفى هذا الدهليز تقع دورة المياه الوحيدة ، أما الدهليز المنخفض ، فهو يلى الأول ويتقاطع معه فى نهايته على شكل زاوية قائمة وهو قديم تحت الأرض بثلاث درجات من عهد الاستعمار الانجليزى ، يحمل طابع القدم وقسوة الماضى ، وتقع على أحد جانبيه زنازين مساحة كل منها ٢ × ٣ متر وجدرانها مصمتة ولكل زنزانة باب مزدوج أحدهما من الخشب السميك المطعم بالحديد به ثقب يتلصص منه الحارس على ما بداخل الزنزانة

والباب الآخر من القضبان الحديدية على شكل أعمدة متقاطعة ، والسقف عالي الارتفاع به كوة ذات فتحتين مستطيلتين متجاورتين تعلوها تعريشة خشبية ، وهذه الكوة هي المنفذ الوحيد للسماء والهواء ، ومن تلك الكوة يتلصص الحراس على المعتقلين بالزنازين من أعلى يحصون عليهم أنفاسهم وما يفعلون ، ويقال ان ثعابين قد أسقطت على النزلاء من هذه الكوات ، وبكل زنزانة فتحة ضيقة في أحد أركان الحجرة تستخدم في ادخال الطعام الذي يسمى بالتعيين للمسجين بدون الحاجة الى فتح باب الزنزانة .

وعلى الجانب الآخر من هذا الدهليز يمتد عنبران بطولهما ويقع أحدهما فوق الآخر ، ويغطس العنبر السفلي تحت الأرض بحيث يصبح مستوى أرض طرقة الدهليز في مستوى شبابيك العنبر السفلي ، وكل عنبر يتسع لعشرات النزلاء وهي من عهد محمد علي ، وكانت تستخدم في التعذيب ، وطرقة الدهليز عريضة ومبلطة ببلاطات حجرية .

كان سجن القلعة أقرب الى سجون العصور الوسطى ، اذا استثنينا بعض العنابر الحديثة البناء .

زرت القلعة وأنا صغير مع أبي وأمي فقد كان من عادتهما بعد موسم جني القطن أن يسافرا الى طنطا لزيارة السيد البدوي ثم يواصلان السفر الى القاهرة لزيارة أولياء الله الصالحين : الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة والامام الشافعي .. الخ وزيارة بعض معالمها ومنها القلعة .

في احدى زياراتنا للقلعة أذكر أنني شاهدت طابورا من القوات الانجليزية يقوم ببعض التدريبات .. كان الجو حارا ، ولفتت

نظرى وجوههم شديدة الحمرة .. ورأيت جنديا انجليزيا يسقط على الأرض من شدة الاعياء والحرارة ، وقد أسرع زملاؤه لحمله الى حيث اسعافه .

كانت مشاهداتى للقلعة مصحوبة بالدهشة والاعجاب لعظمة ارتفاعها وما بها من مبـــان تتسم بالجلال وعظمة التاريخ وعطره ولا سيما جامع محمد على وقصر الجوهرة . كان ذلك وأنا حر صـــغير .

أما فى هذه المرة فى سبتمبر ١٩٥٩ فلم أر مظاهر العظمة والوقار لأن السيارة التى نقلتنى كانت مغلقة فلم أشاهد ما حولى فى الطريق ، لكننى أدخلت فجأة على مكان له بوابة واسعة وممرات ودهاليز مخيفة ، بعد التفتيش وتسجيل الاسم والأمانات صحبنى عسكرى الى زنزانة بالدهليز القديم المنخفض ترتفع درجة عن الطرقة جدرانها مصمتة وشاهقة الارتفاع ضيقة وخالية من النوافذ سوى كوة السقف .

أغلق الجندى الزنزانة خلفى .. كانت خالية تماما الا من جردل للبول والبراز وجردل للماء ، وسرير مكون من حمـــالتين (حمارين) من الحديد عليهما ألواح خشبية طويلة ، وفوقها مرتبة قذرة من القش وبطانية .

مكثت بهذه الزنزانة ثمانية عشر يوما لا أخرج منها الا لمدة عشر دقائق فى الصباح ومثلها فى المساء لدورة المياه وبصحبة عسكرى ، وكان هذا يتم بين الزنازين بالتعاقب . فقد كان الحبس انفراديا طوال اليوم كان كل نزيل يشغل الزنزانة وحده ، بل أحيانا كان

يفصل بين النزيلين زنزانة خالية حتى لا يتم بينهما حديث أو تبادل رسائل بالطرق على الحوائط الفاصلة بين الزنزانتين ٠

حرمت من حرية التنقل أو الاختـــلاط بالزملاء الموجـــودين بالمعتقل ، لعل مؤانستهم والحديث معهم يخفف بعضا من المعاناة ٠٠ كنت أشعر أننى قادم الى سجن بناه الانجليز لكبت حرية المصريين واخضاعهم لسطوة الاحتلال ، وأننى أخطو نحو مستقبل مجهول ٠٠ كيف يتم ذلك فى ظل حكم مصرى وطنى ؟!!

لم يكن هناك فى ذلك الوقت عدد كبير بالسجن ، فقد تم ترحيل الدفعات الســـابقة الى معتقل عزب الفيـــوم والى معتقل الواحـــات ٠

فى الدقائق المعدودة لفتح زنزانتى لم يتح لى أن أتجـــاوز المساحة الواقعة أمام الزنازين والممتدة لدورة المياه ٠٠ كانت العنابر المواجهة لصفنا خالية من المعتقلين فى ذلك الوقت ، ومع ذلك عرفت بعض الأخبار عن تعذيب تعرض له بعض المعتقلين ، كما علمت صدفة بوجود بعض الزملاء وكان منهم الزميل والصديق المرحوم محمد فريد سيد أحمد وقد قبض عليه من وســـط الحقول فى قريته التابعة لمركز الســـنبلاوين ، ولفقت له قضية حيازة سلاح غير مرخص ، طوال فترة وجودى بالقلعة حرمت من الحمام ومن حلاقة الذقن ومن تغيير ملابسى فمكثت بالملابس التى قبض على بها ، ولكن الطعام لا بأس به ولم تكن هناك وسيلة لطلب شىء من الادارة سوى الطرق على باب الزنزانة ، والنداء على الشاويش ، كان مما يثير الازعاج طوال الليل حركة الحراس فوق السقف وطرقعة أسلحتهم وصيحاتهم (واحد تمام ٠٠ اثنين تمام ٠٠) ٠

وفى لحظات سكون الليل القليلة كان يطرق أسماعنا من بعيد صرير عجلات الترام عند المنحنيات وغناء أم كلثوم أو عبد الوهاب من أجهزة راديو المقاهى الساهرة بحى القلعة والسيدة عائشة فتهتز مشاعرنا لهذه الأصوات ويشدنا الحنين الى مظاهر النشاط هذه النابضة بالحيوية والحركة وينسينا هذا الخيط من الحياة ــ لفترة ــ ما نعيشه من جمود وموات ، كنا نحيا فى خيالات الماضى الحية ما نتجاوز به مأســـاة خمول السجن ، وكان يقطع هذه الخيالات ويذكرنا قسوة السجن شعر مهران السيد الذى يطرق أسماعنا حين ينشده أحد المعتقلين من زنزانة قريبة يقول : أين المهرب ·· ياعقرب ·· يالصا أجرب ·

كان بالزنزانة المجـــاورة زميل لم أكن أعرفه وهو : اكرام محارب ، حاول كل منا التعرف على الآخر والتسلى بالحديث معا من خلال فتحة ضيقة ليست مستقيمة على المثلث المشترك بين الركنين المتقابلين بين الزنزانتين ، لم يكن الواحد منا يستطيع رؤية أكثر من زاوية بسيطة من وجه الآخر ولكنه يستطيع أن يسمعه اذا اقتربا منها ·· كنا أحيانا نتكلم ونتبادل ما قد ســمعه أحدنا من نداءات أو أخبار أو قصص تعذيب قاسية تمت فى المباحث العامة بالضرب أو استعمال أدوات كهربائية أو كلاب بوليسية أو تغطيس فى مياه أو أصوات مزعجة أو اشعاعات مبهرة أو احراق بالسجائر ·· الخ ·

الحزن الخصب يدفع الانسان لأن يغنى للحياة ·· هكذا تركت ساعات التأمل الطويلة فى النزنزانة العنان للذكريات وللخيال ، فانطلقت أقول شعرا وأكتبه بالحفر على جدران الزنزانة ·· تذكرت الطالبة اليونانية التى أعجبت بمدرسها وترك الحاحها فى نفسه شيئا من الود والحنين رغم فارق السن فكتبت قصيدة عن فراق

الأحبة ولوعته وعن الصواريخ وسفينة الفضاء التى أطلقها الاتحاد السوفيتى فى ذلك الوقت مفتتحا آفاقا جديدة للعلم وللانسان فى معرفة الكون المحيط بنا .

منذ قبض على وحتى نهاية فترة وجودى بالقلعة لم يحقق معى ولم توجه الى أسئلة .

بعد ١٨ يوما فى القلعة ، وفى المساء سمعت النداء بالاستعداد للترحيل مع مجموعة من المعتقلين ، وفتحت الزنازين وخرجنـــا لاستلام أماناتنا ـ لم نكن ساعتها نعرف الى أين الرحيل .

الفصـــل الســـادس

بداية التعذيب فى الفيوم

الترحيلة من القلعة للفيوم :

بعد تصفية الأمانات وفى منتصف الليل جلسنا فى صفوف متراصة فى ممر الدهليز العلوى ، ولسعات البرد تكاد تجمد أطرافنا ، ولم تكن ملابسنا الرقيقة بقادرة على حمايتنا منه والاحتفاظ بدفء أجسادنا ٠

كان الحراس يحيطون بنا ، والصمت يلف الجميع ، ولسان حال كل منا يتساءل ٠٠ الى أين ؟

ويقطع الصمت الرهيب ما هو أكثر رهبة وازعاجا ، سمعنا رنين الحجلات الثقيلة التى تشد العبيد بالوثاق ، وقيد كل اثنين فى كلابش داخل الحجلة التى تضم ثلاثين فردا ، وفى نهاية كل حجلة يربط عسكرى بقفل ، وهذه المجموعة هى حمولة عربة من عربات السجون المغلقة ٠

ونسمع صوتا من احدى الزنازين يتناغم مع هذا الجو :

زعق الوابور على السفر ٠٠ أنا قلت رايحين فين

رايحين تغيبوا سنة ٠٠ واللا تغيبوا اتنين ٠٠ !

وبدأنا نخرج من بوابة المعتقل كل مجموعة على حدة لنجد ضباطا وعساكر آخرين يتلقفوننا وترتفع أوامرهم وصرخاتهم المفتعلة ، وكل مجموعة تشحن في عربة ، ونجد صعوبة شديدة حتى نتمكن من الجلوس داخل السيارة .

ومن خلال أوامر قائد الترحيلة عرفنا أننا ذاهبون الى معتقل عزب الفيوم ، وحذر القائد من أن أى تمرد سيواجه بضرب النار .

وتحركت قافلة العبيد يتقدمها ويسير وراءها رتل من اللوريات التى تحتشد بالحرس المسلح ، وفى المقدمة سيارات ضباط المباحث العامة وأيضا فى المؤخرة .. حالة طوارئ واستعدادات عسكرية كأننا مقدمون على معركة حربية ، لو تم مثلها فى المواجهة مع العدو الصهيونى لحققنا انتصارات متوالية على طول الخط ، ولكن الاستعدادات الخطيرة تلك قاصرة على أبناء الوطن الشرفاء ، وفى الطريق عند الجيزة وبعد الهرم وعلى مشارف الفيوم ترابط قوات أخرى ترافق الرحلة حتى تسلمها للقوة التالية ، بعد توقف لاعطاء لتمام عن سير الركب .

هذه الترحيلة وان ذكرتنا بعمال التراحيل فى قرى مصر ، وهم يعانون الذل والسخرة مقابل قروش محدودة ، غير أنها تفوقها فى المهانة والاذلال والجهل بمداه ، فترحيلة الفلاحين تمتد لشهرين أو ثلاثة ، أما ترحيلتنا هذه فلا أحد يعرف مداها ونهايتها ، ولا عجب فى ذلك فعناصر هذه الترحيلة يستشعرون ما يعانيه الفلاح والعامل الزراعى ، وكل ذنبهم أنهم رصدوا حياتهم لتحرير الفلاح من السخرة والاستغلال ، وعتقه من ذل الرق وبؤس الترحيلة .. من هنا استحقوا من السادة أن تسلب حريتهم ويحرموا من الحياة ، وأن يصلبوا أو يقتلوا أو ينفوا من الأرض حتى تستمر معاناة الفلاح وتدوم قصة عمال التراحيل .

فى سرية تامة والناس نيام اخترقت القافلة شوارع القاهرة الخالية الا من طراق الليل وبعض السابلة الذين يعودون الى بيوتهم فى وهن من أعمالهم آخر الليل ٠

كانت الأضواء خافتة وسرعة السيارات تدفع لفحات الصقيع لترتعش أجسامنا ، من يرفع يده ترتفع الأيدى كلها معه وتئن السلسلة وتزمجر ، واذا حرك أحدنا يده بحركة لا ارادية التوى معصمه وتورم وتورم معه معصم زميله وسرى الألم حتى يعجزا عن الحركة ٠٠ حفر الانهاك بصماته على الوجوه الشاحبة الباهتة ٠٠

وكرد فعل للمقاومة والتماس الدفء ارتفعت الأصوات فى كل العربات تغنى نشيد :

بلادى بلادى بلادى ٠٠ لك حبى وفؤادى

مصر يا أم البلاد ٠٠ أنت غايتى والمراد

ورغم صرخات وأوامر الحرس كانت الأصوات تزداد ارتفاعا ٠

بعد رحلة طويلة محاطة بالارهاب العملى والنفسى وصلنا مبكرا الى معتقل العزب بالفيوم وانتظرنا فى العربات حوالى ثلاث ساعات ، نعانى من ثقل الحجلة وضيق المكان وبرودة الفجر والخلاء والشعور بالملل حتى حضر مع الصباح ــ فى الساعة الثامنة ــ ضباط المعتقل ٠

نزلت كل مجموعة واصطفت على حدة ، وجدنا جوا يختلف عن القلعة ٠٠ وجدنا وجوها متجهمة قاسية تعودت على الشتائم والاهانة ، قوبلنا بمعاملة قاسية وتحرش بالشتم والسب ، ووزعنا على العنابر ٠

في معتقل العزب بالفيوم :

هذا المعسكر بناه الانجليز ليكون معتقلا للأسرى الايطاليين في الحرب العالمية الثانية ، وهو أشبه بالمعتقلات النازية « أوشفيتز » و « بوخنوالد » التى أقامها النازى فى بولندا وألمانيا ، باستثناء غرف الغاز الشهيرة ·

وفى عهد عبد الناصر تحول هذا المعسكر ليكون معتقلا لتجار المخدرات ، ثم أخلى منهم ليستقبل ما يقرب من الأربعمائة من الشيوعيين والديمقراطيين والاشتراكيين وأنصار السلام ، ومن أصحاب الرأى والفكر الذين يختلفون مع رأى الحكومة أو يؤيدونها من مواقف استقلالية بل وممن لا رأى لهم ·

المعسكر ذو طابع انجليزى يحيط به من كل جانب سوران من عروق الخشب الطويلة التى تملأ الأسلاك الشائكة فيما بينها ، وبين السورين منطقة محرمة تجوبها حراسة مسلحة يرتفع صراخها باستمرار ، واحد تمام ·· اثنين تمام ، ويستمر النداء حتى آخر الحراس ليبدأ أولهم من جديد ·

وعلقت على العروق الخشبية مصابيح كهربائية ذات أضواء شبحية تزيد من رهبة المكان ، وفى الأركان الأربعة وما بينها من السور ثبتت أبراج حراسة من عروق الخشب علقت عليها كشافات دائرية مبهرة تتحرك طول الليل لتكشف كل جزء داخل المعتقل من الأسوار والعنابر وما بينها ، وكذلك تكشف الأرض المحيطة بالمعسكر ، وبجانب كل كشاف جهز مدفع رشاش سريع الطلقات معد للانطلاق فى أى لحظة ، وفى خارج المعسكر وعلى مسافة من بوابته توجد محطة حراسة أمامية تتحكم فى الطريق المؤدى اليه ·

بوابة المعتقل من الأسلاك الشائكة ، وعلى يمين الداخل منها مبانى الادارة وحجرة السلاحليك وزنازين التأديب ، ثم أمام هذه المبانى ما يشبه الفناء ٠

يلى ذلك صفان من العنابر تمتد بالعرض على الجانبين ، أربعة فى الجهة اليمنى وأربعة فى الجهة اليسرى يشكل كل منهما بلوكا مستقلا عن الآخر ، ثم يلى العنابر دورة مياه لها ثمانى فتحات بدون أبواب ، ويفصل بين البلوكين سوران من الأسلاك الشائكة بينهما منطقة حرام تجوبها الدوريات المسلحة لمنع اختلاط أو محادثة نزلاء أحد البلوكين للآخر ٠

والعنبر على شكل مستطيل بطول حوالى خمسين مترا وبعرض خمسة أمتار ، وسقف العنبر على شكل جمالون خشبى ، والحوائط بالطوب الأحمر الذى تغطيه الأملاح من الرطوبة والنشع وبكل عنبر عشرة شبابيك مسورة بأسياخ الحديد المتشابكة ، وليس بها زجاج ، وهى مفتوحة دائمــا ليل نهــار شتاء وصيفا لتمكن الحراس من الخارج من مراقبة المعتقلين طوال الوقت ٠

رصت الأسرة داخل العنابر متلاصقة فى صفين متقابلين على امتداد الحوائط الطولية والسرير عبارة عن حمالتين (حماريتين) من الحديد تعلوهما ثلاثة ألواح خشبية بالطول ، وعليها مرتبة من قش الأرز الذى تجمد كالحجر ٠

باب كل عنبر يتوسط جداره المقابل لمبنى الادارة ، ويوجد بجوار الباب جرادل البول ومياه الشرب ٠

عدد المعتقلين بالمعسكر ليس ثابتا حسب الوارد والمرحل منه لذلك يتراوح سكان كل عنبر ما بين أربعين الى سبعين معتقلا ٠

ويغلق العنبر ثلاثا وعشرين ساعة فى اليوم مما ينتج عنه أن تنفذ مياه الشرب ، وتمتلئ جرادل البول حتى تفيض على أرض العنبر ، فتصبح رائحته بشعة لا تطاق .

لم تتغير ادارة المعسكر منذ أن كان يضم تجار الحشيش ، وكانت الادارة تستفيد منهم كثيرا كان الضابط لا يقل دخله اليومى عن ثلاثين جنيها والعسكرى العادى ثلاثة جنيهات ، هذا خلاف الهدايا والرواتب الشهرية ، وبذلك تحول وضعهم مع المعتقلين السياسيين الذين لا يملكون مالا ـ تحول الى كارثة أثارت الحقد فى نفوسهم على هؤلاء السياسيين ، وزاد منه تعليمات المباحث العامة بسوء المعاملة ، وتحريضها عليهم ، ومحاضراتها للضباط والجنود ، ومزاعمها عن المعتقلين واتهامها لهم بالكفر و الالحاد وخيانة الوطن .

من هنا كان ابتذاذ العساكر والادارة للمعتقلين واستيلائهم على أماناتهم وسرقة الطرود والغذاء بالاتفاق مع المتعهد .

وعرف من أسماء ادارة المعتقل قائده المقدم أحمد منير غالى ويبدو أنه مرقى من تحت السلاح والملازم أول حمدى والملازم ثان محمد حلمى العيسوى والصول همام والصول عبد العظيم والشاويش محمد غطاس .

اتسعت قوائم الممنوعات فى المعتقل التى بدأت بالورقة والقلم الذى يعد جرما كبيرا ، وامتدت الى حرية التنقل داخل العنبر الواحد ، كان الملازم أول حمدى البدين يقول « كل واحد على سريره » بمعنى أن ينام المعتقل ويجلس ويتحرك فى مساحة السرير فقط ، والهمس بين زميلين ينامان على سريرين متجاورين مخالفة جسيمة عقوبتها الجلد .

كان الجو فى المعتقل متوترا بشكل دائم ، شتائم مقذعة من الضباط والعساكر الذين يتلصصون علينا من الشبابيك ويمنعون أى صوت أو حركة بالعنبر ، ويتصيدون بل يفتعلون أى شىء حتى يخرجوا عددا من المعتقلين لضربهم بالشوم وبالفلكة ٠

كنا محرومين من الفسحة ومن الشمس بل ومن الحركة ، وقد عبر فؤاد حداد الذى كان معتقلا معنا عن هذا الجو المأساوى فقـــال :

الصمت ينصت يابوى للصمت بالساعات
ولا عمل للعيون واليد بالساعات
يارب يللى خلقت القمر والشمس
يارب طالب من الدنيا شوية شمس
يارب وسمعنى من البشائر همس
بالســـاعات ٠

كما يعبر عن الأمل فى الحرية والانعتاق من اسار السجن فى هذا اللحن الراقص :

يا سليمان يا قائم على أربع قوائم
اسمك من قوائم السجن انشطب
السجن انشطب

كما يعبر عن الحرمـــان والســـخرية من غلو قيمة العمل اليدوى ، وبخس قيمة الشعر فيقول معلقـا على ما يحصـــل عليه الفنان زهدى من سجائر مقابل تماثيل يصـــنعها من لباب الخبز او الجبس :

الله يلعن الشعر اللى ماله سعر فى العنبر
لو انحت جبس لاشرب بيبسى بالعنبر

لم يكن هذا الجو القاتم هو الصورة الوحيدة ، بل كانت هناك صفحات من الصمود والمقاومة وتحدي هذا الارهاب ، كانت مباراة بين الادارة والمعتقلين الذين استطاعوا فى الفترة التى سبقت ترحيلى لهذا المعتقل أن يكسروا حدة الارهاب ، فنظموا شبكة اتصال عبر النوافذ بين العنابر كلها ، وما يحدث فى عنبر من العنابر سريعا ما يعرفه سكان العنابر الثمانية فى نفس الليلة ٠٠ فرضوا حرية الحركة داخل العنابر كأمر واقع واستحضروا بعض الصحف والمجلات وبدأوا فى العنابر المختلفة تنظيم الجلسات والندوات الثقافية والترفيهية ٠٠ هذا يحكى بعضا من القصص العالمية والمصرية لهمنجواى وشولوخوف وجوركى وتشيكوف وتولستوى وطه حسين ونجيب محفوظ ٠٠٠ الخ وآخر يعرض مسرحيات لتوفيق الحكيم وبريخت وشكسبير ونعمان عاشور والريحانى وتشيكوف ٠٠ الخ وثالث يعرض بعضا من الأفلام وخامس وسادس يعرض كتبا لمفكرين عالميين واسلاميين كهيجل وماركس وانجلزولينين وفولتير والأفغانى ومحمد عبده والكواكبى وهناك من يغنى لعبده الحامولى وسيد درويش وعبد الوهاب ٠٠٠ الخ ٠

اتصلت المعارك مع الادارة ، فهى ان سكتت يوما فاجأت المعتقلين بتصيد بعض الأسباب وافتعال أى مبرر لضرب هذا وجلد ذاك ٠٠ عثر أحد الضباط على بعض الأوراق فقام ومعه مجموعة من العساكر بضرب المهندس فوزى حبشى بالشوم وجريد النخل وجلدوه على العروسة حتى فقد الوعى ووصل الى حافة الموت ، وأحيانا تجمع الادارة مندوبى العنابر وتقوم بضربهم وجلدهم لتشيع جو الارهاب ، حتى المرضى لم يسلموا من الجلد والضرب بالشوم وجريد النخيل ٠

وأمام هذا الارهاب المتجدد استخدم المعتقلون من أساليب الرفض والمقاومة الامتناع عن استلام الطعام ٠

فى يونيو ١٩٥٩ وأمام اصرار كل المعتقل على هذا الموقف استغاث قائد المعسكر فى اليوم التالى بوكيل المحافظة ، فحضر ومعه فرقة من العساكر ، وافتعلوا بعض الحركات والأوامر للارهاب وفرض استلام الطعام ، واستخدموا كثيرا من وسائل الضغط والتخويف دون جدوى ، وأمام الاصرار استجاب وكيل المحافظة لبعض المطالب مثل تغيير المتعهد لتحسين الطعام واستلام الخطابات وطرود الأغذية والأدوية من الأهالى ، ونقل الضابط حمدى والجاويش غطاس من المعتقل وأوقف الضرب والجلد ، وحصل المعتقلون على جزء كبير من المطالب الأخرى بالممارسة ٠٠ ورغم ذلك فقد كانت هذه المطالب بين أخذ ورد ومد وجزر لم تثبت دائما على حال واحدة ٠

حين وصلت الى الفيوم فى منتصف اكتوبر ١٩٥٩ كان جو الارهاب قد خف نوعا ما ولم يحل بيننا وبين ندوات الحوار السياسى والصراع الفكرى حول أزمة الحزب وما كان يعرف بالتكتل والانقسام والموقف من الوحدة العربية ومن الطبيعة الطبقية للحكم ، وكنا نحتفل بالمناسبات المختلفة وننشد الأناشيد الجماعية الحماسية والوطنية التى ترفع من معنوياتنا متحملين فى سبيل ذلك ما قد ينجم من تكدير جماعى أو تعذيب فردى ٠

أحيانا كانت احتفالات العنابر الأخرى تصل الينا ، كما كانت بعض الأغانى تطرق أسماعنا من عنابر البلوك الآخر ، وفى سكون الليل سمعت لحنا يمتزج فيه الشجن بالأمل فى غد يفيض بالحرية والسعادة :

يا اللى انت بينى وبينك سور
بكره العيون حتشوف النور
بكره يا روحى .. الهنا
حيفيض على الدنيا
وقبل ما تفــوت ســـنة
حنعيش فى حــرية

كانت خطابات أسرنا ممنوعة عنا والمسموح به فقط أن نكتب فى الشهر مرة خطابا مفتوحا لا يتعدى القول بأننا بخير مع تحديد مكان وجودنا ، وكانت هذه الخطابات تراقب بدقة حتى لا يخرج خبر عما تعانيه من قسوة وحرمان وكانت الزيارة ممنوعة .

مكثت بالفيوم ما يقرب من الشهر ثم فى يوم ٨ نوفمبر مساء نودى علينا للاستعداد للرحيل ، ترددت فى العنابر أناشيد بلادى بلادى بلادى لك حبى وفؤادى .

الفصـــل الســـابع

التعذيب والأشغال الشاقة بأبى زعبل

الترحيل من الفيوم والتشريفة على أبواب أوردى ليمان أبى زعبل :

فى معتقل العزب وفى الســاعة الحادية عشرة من مســـــاء الثامن من نوفمبر عام ١٩٥٩ نودى على أسماء الدفعة التى سترحل كنا ١٤٥ معتقلا استعد كل منا فارتدينا ملابسنا وأعددنا حقائبنا بينما الأناشيد الوطنية والحماسية تتعالى فى كل العنابر ، ووقفنا فى فنـــاء المعتقل وقيد كل اثنين معـــا كان معى فى كلبش واحد المستشار سعيد الخيال ، وكل منا يحمل حقـائبه ، وشـحنا فى اللوريات ووقف على الباب الخلفى لكل لورى عدد من الحراس بأسلحتهم ، وبعد منتصف الليل تحركت الترحيلة يتقدمها ويسير خلفها رتل من لوريات الحرس المســـلح ومن سيارات النجــدة والاسعاف ويتم هذا تحت اشراف المباحث العامة .

وقد اخـلى الطريق من المرور الا من قوات رابطت فى بعض مواقعه لترافق الرحلة الغامضة الى حيث تسلمها للرباط التالى ــ لم نكن نعرف الى أين تتجه بنا الترحيلة .. كنا نسير نحو المجهول

·· سارت الترحيلة فى اتجاه القاهرة ولا أحد يعرف أنها متجهة الى أوردى ليمان أبى زعبل الا عندما اقتربنا منه ·

كانت السيارات مغطاة بكبوت من قماش تيل سميك ·· كان الهواء شديد البرودة وزاد من قسوته سرعة السـيارات ودفعها للكبوت فيصطك بحديد السـيارة وتنصب كميـات هائلة من هذا الهواء البارد على أجسامنا الضعيفة التى لا تسترها ملابس ثقيلة فتصيبنا بالارتعاش لم أستطع أن أتحمل قسوة البرد ، أحسست بمغص فى جنبى وتملكتنى حـالة قيء ــ أنا والكثيرون ــ طـوال الرحـلة ·

ومع الفجر وصلت بنا السيارات الى خلاء بالقرب من الأوردى ــ الذى اعتقلت به فترة ٥٤ ــ ١٩٥٦ ــ كان هذا الخلاء يشبه ميدان رماية لضرب النار ، أو ساحة اعدام ·

أنزلنا ــ والقيود فى أيدينا ــ فى هذا الخلاء الذى تحيط به بعض أكوام الطين والسباخ والحجارة والزبالة والذى تحاصره فرقة من الجنود الشاهرى السلاح وجنازير تحمل المدافع الرشاشة وخيول يمتطيها ضباط السجن ويختالون بها وفى أيديهم الكرابيج وكأنهم فرسان فى ميدان حرب وأبطال مغاوير ! وعلى الأبراج رشاشات مشهرة ، وعلى بعد دوريات متحركة ، كان الأمر مفاجئا لنا ·· شلت عقولنا عن التفكير وتولت الغريزة مواجهة الموقف ، الأوامر تتوالى بالجلوس القرفصاء وبخفض الرءوس : اسكت يا ابن الكلب ·· وطى راسك فى الأرض يا ابن القحبة !!

ويمر عساكر وشاويشـية وصولات يأمرون وينهون مقرنين ذلك بالسباب والشتائم وضرب الشوم التى تقسم الظهور والأعناق

وتصنيب الانسان بفقدان الوعي للحظات ـ استمر هذا العذاب عدة ساعات ، أحسسنا أننا مقدمون على مرحلة جديدة ومستقبل مجهول وغامض ..

كنا في الفجر وكان البرد والصقيع يلفح وجوهنا ويجمد أطرافنا ، طالت علينا هذه الجلسة المرهقة فنملت أرجلنا وتململت أجسامنا .. تحركت في مكاني وبحركة تلقائية رفعت رأسي ففوجئت بشومة تنزل على قفاي ففقدت الوعي وكدت أسقط مغشيا علي ، وحين بدا مني ما يوحي بالتذمر نكالبت العصي علي جسدي .

كان الجنود حولنا مدججين بكل أنواع الأسلحة والسجانة يحملون الشوم وعساكر الدرجة الثانية أو عساكر الكتيبة يحملون القوايش .

سمعنا أصوات بروجي تحية لواء ، وبعدها ظهر كبار الضباط ، لواءات وعمداء ورتب مختلفة بعضهم في الزي الرسمي وآخرون في زي مدني .

بدأوا أخذ التمام ، وبدأ ضابط يمر على المعتقلين لمعرفة ان كانوا يحملون أشياء ثمينة فيتناولها ويقوم كاتب بتسجيلها وتسجيل اسم صاحبها : ساعة يقال انها ماركة كذا .. قلم حبر يقال انه ماركة كذا نظارة يقال انها ماركة كذا ، دبلة يقال انها من الذهب .

كانت الشمس قد أشرقت وأرسلت بأشعتها الى المكان ، وبدا يظهر لنا جزء من الطريق الصخري المترب الموصل الى باب الأوردي .

لم نكن نرى ماذا أعد لنا أمام الباب لأننا كنا نجلس بعيدا بمحازاة الجانب الشمالي من سور الأوردى ، وكانت الخطة تعتمد على المفاجآت فى كل خطوة بحيث لم تترك لنا الفرصة لتوقع ما هى المفاجأة التالية ، كانوا يسحبون اثنين اثنين ، وكان الباقون لا يعرفون ولا يشاهدون ما حل بمن سحب ، فهناك منعطف فى الطريق الى بوابة السجن تنفصل بعده الرؤية عن بقية الفوج ٠

كنا لازلنا مقيدين ، كل معتقل مقيد مع زميله بقيد حديدى ، وحين ينادى على كل اثنين معا يسحبان ، ويطلب منهما أن يحملا حقائبهما ـ وهما مقيدان معا ـ ويجريا لمسافة حوالى كيلومتر ، ويتكرر النداء « اجر يا ابن الكلب !! » ٠٠ نودى على وعلى الأستاذ سعيد الخيال وهو مقيد معى ، بدأنا السير ، كنت مقيدا بيد والأخرى تحمل حقيبتى ، وكان مع الأستاذ سعيد حقيبتين كبيرتين ، حاولت أن أساعده فى حمل واحدة منهما فرفض وحمل حقيبة فى يد وحمل الأخرى باليد المقيدة ، كان يتعثر فى الطريق بحقائبه وكنت معه أيضا أتعثر بتعثره بالحمولة وبالقيد ٠٠ كان يجرى وراءنا عدد من العساكر يضربوننا بالشوم وكلما تعثرنا زاد الضرب ، كما كان يلاحقنا ضابط يركب فرسا يطاردنا ، وعندما يلحق بنا ـ وكثيرا ما يفعل ـ يضربنا بسوطه ويزحم علينا الطريق بخيله ، وأحيانا يقفز فوقنا ـ حين نتعثر ـ حتى كان يدهسنا ، وأحيانا يميل علينا فيدفعنا الى صعود أكوام السباخ حتى نتفادى سنابك الخيل التى تكاد أن تنغرس فى أحشائنا ، وتتناثر حاجياتنا ونحاول أن نجمعها، بينما الضرب يتوالى وصراخ الجند والضباط وسبابهم لا يتوقف ٠

استمرت هذه المطاردة حتى وصلنا ـ ونحن نلهث ـ الى بوابة السجن ، وفوجئنا بفرقة أخرى من الجنود يحملون الشوم وعصى من جريد النخل ، البعض يفك القيد والبعض الآخر يلهبنا بالسياط

وحين تتكسر العصى يجعل من يده الخشنة الثقيلة سيفا يحز العنق ، وهناك آخرون مشـــغولون مع الضرب بتمزيق ملابسنا الخارجية والداخلية ، والنداء علينا بخلعها حتى أصبحنا عرايا كما ولدتنا أمهاتنا ، لا ندرى كيف تم ذلك ، أمرونا مع الضرب بترك حقائبنا والركوع أمام حلاق من المساجين الجنائيين الذى يجز الشعر بشكل مشوه كما يجزه للحمير ــ والضرب بالشوم لا يتوقف .

لم تكن هناك فرصة لالتقاط الأنفاس ورؤية ماذا سيحدث فى الخطوة القادمة ، كل ما استطعت أن أراه خطفا مشهد عروسة منصوبة على يمين البوابة وعددا من العسكريين على يسارها وعلى رأسهم اللواء اسماعيل همت ــ وكنت قد رأيته قبل ذلك فى حملته التترية علينا عام ١٩٥٥ فى الأوردى ونحن مضربون عن الطعام كان صوته يرتفع بالشتائم واصدار الأوامر بتشديد الضرب والتلذذ من مشاهد العراة وتعليقات ساخرة ماجنة غاية فى الانحطاط ، كان يقف بجانبه اسماعيل طلعت مدير الليمان وضابط المباحث العامة صلاح طه ، وقائد المعتقل حسن منير كما عرفته فيما بعد ، وعدد من الضباط ورجال المباحث وطبيب السجن .

كما كان هناك كاتب السجن يجلس الى منضدة ليســـجل الأسماء .

كان همت يتابع عمليات التعذيب ويشـــارك بانتقاء البعض وجلدهم على العروسة فيقيد الضحية عليها ويصبح ظهره أمام الجلاد بدون مقاومة ، وكانت أداة الجلد عبارة عن يد خشب أو جلد بها عدة ضفائر من الكتان المجدول والمغموس فى مياه مالحة جدا ، وكان همت يضحك بصوت مسموع متلذذا من تعذيب الضحايا ولا يعف عن تعليقاته الفاحشة عن أجساد العرايا .

بعد حفلة الحلاقة قذف بى عريانا مصلوبا ملوى الذراعين بين اثنين من العساكر الى بوابة السجن وأمامى وخلفى عساكر آخرون يواصلون الضرب على الجسم العارى كيفما اتفق ٠

كان يقف على البوابة حيوان متوحش ، انمحت من سلوكياته أى ذرة من الانسانية وهو الضابط عبد اللطيف رشدى وقف بجسمه الضخم وصوته المدوى يمارس الضرب وأقذع ألوان السب والشتم بلذة وثقة وحب فى التعذيب بشكل شاذ ليس له مثيل ويشدد على العساكر بمضاعفة الضرب كان ينافس الضباط الآخرين فى ابتكار ألوان التعذيب واطالة مدته ليثبت لهمت ولاءه وكفاءته النادرة وليرضى ساديته المريضة ٠

وقف على باب الأوردى ومعه مجموعة من السجانة يواصلون الضرب ، يطلب من كل معتقل أن يذكر اسمه مصحوبا بالشتائم المقذعة واللكمات والصفعات ، وبعد أن يفعل يطالبه بالتكرار وبرفع صوته ، ثم يطلب منه أن يقرن اسمه فى النهاية بكلمة « يا أفندم » وسواء أصاب المعتقل فى ذكر اسمه وانهائه بكلمة « يا أفندم » أم أخطأ و لحن فعليه أن يعيد ذلك مرات وأن يرفع صوته لأن المطلوب هو ن تطول حفلة التشريفة ويتضاعف العذاب والشتائم التى تتناول لأم والأب والدين والأهل مما يندى له الجبين ، وفى حمى الضرب ذكر الاسم على بوابة الأوردى كسرت نظارتى وتناثرت شظاياها على الأرض ٠٠ غامت الدنيا أمام ناظرى ولم أتبين بوضوح ما أمامى ٠

طلب منى أن أحمل نمرتى ، ورغم أننى دخلت السجن والمعتقل قبل ذلك مرتين فلم أتبين المقصود لم أتعامل مع هذه المصطلحات قبل ذلك ٠٠ كان المقصود بهذا المصطلح الغامض البرش الملفوف

أمامى وبداخله بطانية واحدة وملابس السجن وقروانة ألمنيوم ، وتتكون الملابس من سروال وقميص أصفر ترابى يشبه الخيش ومكتوب عليها نمرتى هذا بالاضافه الى تاسكنه (بريطة) للرأس من نفس القماش واللون ووردروبة تشبه البردعة ٠

لم أكن أعرف أن الانسان فى هذا السجن ــ وقد انتزعوا منه على البوابة اسمه ــ مطلوب منه أن ينسى هذا الاسم لأنه تحول الى مجرد رقم من الأرقام ٠

فى أول يوم خرجنا فيه الى الجبل قال لنا عبد اللطيف رشدى : منذ اللحظة عليكم نسيان أسمائكم ، أنتم هنا مجرد أرقام ، أنتم الآن لا اسم لكم ثم رقموا ملابسنا ٠

ألغيت الأسماء الخاصة واندمج الجميع فى اسم واحد « كلب ابن كلب ابن قحبة » !!

وحتى اكتشف المقصود بنمرتى ، وأتبينها أمامى بعد كسر النظارة وزغللة العين ، وأحملها ، كان قد مر وقت تلقيت فيه طريحة مضاعفة من العصى والشوم والركلات والشتائم ٠

محمد السودانى عامل من ميت غمر لمح وهو يضرب دخانا متصاعدا من مدخنة المغسلة فظن أن هناك أفرانا سيحرق فيها فخر ساجدا ناطقا بالشهادتين ، فضربه عبد اللطيف رشدى بحذائه قائلا له « قم يا ابن القحبة ، انت جاى تموت هنا » !!

كان استقبال الفرد الواحد يستغرق فترة من الضرب والتعذيب وحين يحمل نمرته ويصبح داخل السجن لا يرى أحدا من الزملاء

الذين سبقوه ، وقد تصـــور بعض الزملاء أن هناك عمليات قتل جمـــاعى ٠

لم تنته حفلة الاستقبال بحمل النمرة ، بل على المعتقل أن يجرى الى العنبر المعين له ، وهو لا يدرى أين يقع هذا العنبر ضمن العنابر الستة التى يحتويها المعتقل ، وحتى يهتدى اليه يكون قد نال طريحة أخرى من الشوم وجريد النخل من العساكر المنتشرين بين العنابر ومن سجان العنبر الذى لا ينسى أن يضع بصمته على الظهر الدامى ٠

استمرت حفلة الاستقبال حتى الساعة الثالثة بعد الظهر ، ويتعجب الانسان كيف لم ينل التعب من هؤلاء وكأنهم كانوا فى حفلة عرس يتلذذون بمشاهدها ومشاربها ٠

فى هذه الســاعات الدامية لم يمتهن شرف وكرامة وأجســاد رجال هم من خيرة رجال هذا الوطن فحسب بل امتهن شرف مصر الحديثة ، وسجل الجلادون بجريمتهم وصمة عار لطخوا بها تاريخ مصر وحضارتها ٠

وصلت الى عنبر ثلاثة ، وحين دخلت تعثرت فى مصطبة الطرقة فانكفأت على وجهى وجرحت ركبتاى ويداى ووجهى وسقط البرش وتناثر ما بداخله فنهضت وجمعت ما تناثر ٠

كان منظرا مضحكا مبكيا وشر البلية ما يضحك ٠٠ أتينا من معتقل عزب الفيوم وكل منا يستر جسمه ويلبس بدلته المدنية ، فاذا بنا فى العنبر فى وضع آخر ٠

جسم عار بعوراته من أى ستر يستره ، يدخل العنبر فى حالة محمومة ، يراه من بالعنبر هكذا فيتملكهم الضحك ، وهو يراهم أشخاصا آخرين غير الذين كانوا معه قبل قليل ، يراهم مسخا من البشر ، لم أتعرف على أحد منهم ، فكلهم له نفس الوجه والملامح والملابس ، مجموعة من الجرحى تلطخهم الدماء التى تسيل من الوجوه والأجساد يتلوون من كسور فى أطرافهم ، يلبسون بدلة السجن وهى هلاهيل بالية التصقت بالجسم الدامى عندما لامسته ، ليست على مقاس الواحد منهم ، فهى اما ضيقة محزقة واما فضفاضة واسعة يغرق فيها وهى اما طويلة طولا بينا أو قصيرة قصرا واضحا ، كأنها « شورت » يلبسون فوق بدلة السجن « وردروبة » تشبه البردعة للحمار ويضعون على رءوسهم كاسكته لها رفرف أمامى ·

كانوا وقوفا ووجوههم الى الحائط ، لم أعرفهم فى البداية وظننت أنهم مسجونون جنائيون ولما حاولت أن أتفحص الوجوه التى أمامى ودققت النظر عثرت من بينهم على ملامح الفنان حسن فؤاد والفنان زهدى والشاعر فؤاد حداد ·

أسرعت الى ارتداء ملابس السجن التى حملتها ، يساعدنى على محاولة التعرف على ارتدائها من سبقنى وارتداها ، وانضممت اليهم فى تتبع كل من يدخل علينا بهذا المنظر الذى كنت عليه · أضحكتنا وأبكتنا المآسى التى نراها ·

فى عنبر ٢ دخل الزميل منصور محرم بعد أن فقد نظارته ، فلما وجد الوجوه الغريبة ذهل من المنظر ، وظن من به مساجين جنائيين من عملاء الادارة ، فأخذ يذكر لهم أن الحكومة تتحمل مسئولية وجودهم فى السجن وأن النظام الاجتماعى هو سبب نكبتهم ، وأننا مناضلون ضد الاستعمار وندافع عن العمال ، وكان لازال عاريا فقال له الزميل محمد فريد سيد أحمد : البس ملابسك يامنصور أنا محمد فريد ، فعرف أن من معه بالعنبر زملاء ·

دخل « برق » العنبر وهو يصيح : هدومى ‥ أين هدومى ‥ فقال له أحد الزملاء : هدومك معك ، وأخذ يصرخ فى حالة ذهول : هذه فاشية ولعن المثقفين والخط الوطنى ٠

لاحظنا أن أحدا لم يوزع على عنبر واحد ، ولم نعرف أن به زملاء قضية د٠ فؤاد مرسى الا فى اليوم التالى وأنهم سبقونا الى الأوردى بيومين — ٧ نوفمبر ١٩٥٩ — وواجهوا نفس الاستقبال ولكن بشكل مخفف كثيرا ٠

كانت المعاملة الغالبة هى الشتائم والسباب ‥ انزل ياولد — اجر ياولد ، اخلع ملابسك ياابن الكلب ‥ ارم حاجتك ياابن الكلب ‥ اركز على ركبتيك ياابن الكلب ، طأطأ رأسك ياابن الكلب ، والحلاق يجز الشعر ، ثم أمام بوابة الأوردى : ما اسمك ياابن الكلب ‥ ارفع صوتك يا ابن الكلب وخلعت ملابسهم حتى صاروا عرايا ٠

حين لم يجدوا مقاومة تذكر للمهانة تجرأوا وصعدوا التعذيب فكل دفعة تالية كانت تلقى استقبالا أكثر شراسة وقسوة ودموية ، حتى أنه أحيانا كان التصعيد يتم فى الدفعة الواحدة ، فأواخر الفوج يعانى تعذيبا أشد من بدايته حتى وصل التعذيب الى السحل والقتل ٠

وهكذا تطورت جميع صور التعذيب وتصاعدت عملية التفتيش داخل العنابر ‥ وفى طابور التمام ‥ طابور الرياضة ‥ العمل فى الجبل ‥ طابور اليمك ، كل أشكال التعذيب تصاعدت ‥

ورغم أن دنيا السجون مقيتة فقد واجهنا حياة أشد مقتا وبشاعة وأكثر سوادا ، بحيث تصبح دنيا السجون المعتادة نعيما بالنسبة لما عانيناه ٠

في الدفعة التي جاءت بعدنا من الفيوم بيومين ارتفعت جرعة تعذيبها ففي الساعة الثانية بعد منتصف الليل من يوم ١١ نوفمبر ١٩٥٩ وصلت الدفعة الثانية والأخيرة من معتقل الفيوم وكانوا ثمانين معتقلا وضعوا جميعا في عنبر واحد ، وفي الساعة الخامسة فتح عليهم باب العنبر ثم باب المعتقل وآخرجوا جميعا الى الساحة الخلاء لينالوا حقهم من تشريفة الاستقبال الذى فاق ما قبله حتى أصبحوا عاجزين عن الوقوف ، يعانون فقدان الوعي والانهاك البدني وتجاوزت حالتهم كل احتمال .

كان التصعيد يعني أن أحسن الأحوال هو ما مر ، أما الأسوأ فلم يحن ميعاده بعد .

كان العنبر كما تركناه في يونيو عام ١٩٥٦ — وقد سبق وصفه — ونحن الآن في نوفمبر ١٩٥٩ .

على المصاطب على جانبي العنبر كان كل منا يضع برشه ملفوفا وبداخله البطانية وعلى البرش توضع القروانة ، ويجلس على الأرض على حافة الطوار أمام نمرته في المكان المحدد له بترتيب الأرقام كما هو يكنسف العنبر دون أن يفرش البرش أو البطانية ، ويبقى البرش مطويا طوال النهار ولا يفرشه الا في المساء .

هذه التعليمات ألقاها علينا أحد السجانة بعد أن تكامل دخولنا العنابر ، قال : بعد الخامسة مساء يفرد كل واحد نمرته والقروانة هي المخدة ، تحضرها معك لتتركها وتأخذ أخرى بها اليمك وكذلك عند استلام يمك العشاء ، ومن يجلس على النمرة قبل الخامسة يعرض نفسه للضرب . مفهوم يا أولاد الكلاب ؟!

ومع ذلك فبعد الخامسة مساء فى اليوم الأول ـ نظرا للفترة الطويلة التى استغرقتها التشريفة ـ فتح باب النعبر ودخل الصول مطاوع ، نادى : انتباه ، ولم يتحرك أحد ، فتقدم خطوة داخل العنبر وقال : لما تسمعوا انتباه يقف الجميع بسرعة ، ومن لم ينفذ سيضرب بالفلكة والشومة ، وكرر النداء فوقف الجميع ، ودخل أربعة من السجناء العاديين يحملون جراكل اليمك للعشاء وصبوا لكل واحد نصيبه من اليمك فى طبقه ـ وهذا اليمك هو سائل به بعض ثمار البطاطس بقشرها وقطعة من الجلد يقال انها لحمة ، ثم قالوا كل واحد له ثلاثة أرغفة فى اليوم وألقوا بها على احدى مصاطب العنبر ، ثم قدم مسجون آخر طبقا صغيرا به قطعة من الجبن الأبيض محجرة كالجير للفطور فى الصباح التالى ٠

فى اليوم التالى فرضوا علينا نقل كميات من الحجر الجيرى الوارد من محاجر ليمان طره وكانت ملقاة فوق شريط السكة الحديد حتى يفسحوا الطريق للناحية الأخرى من الجبل استعدادا لما كانوا يدبرونه لنـا من أعمال شاقة فى تقطيع البازلت فى الجبل ، كان مطلوبا من البعض أن يحمل بعض الأحجار على كتفه ومن البعض الآخر أن يملأ مقاطف الكاوتش بالحجر الصغير ، وفى أثناء ذلك كانوا يتصيدون أى كلمة أو تصرف يصـدر من زميل ليضربوه بالشوم ، طلب أحد المعتقلين من زميله أن يساعده فى رفع المقطف فنال أربع شومات على كلمة « زميل » !!

كان للعنبر نوافذ مرتفعة عليها قضـبان من الحديد ، وهى مفتوحة دائما وليس بها شيش أو زجاج وكان العنبر يضم ما يقرب من السبعين معتقلا ٠٠ كانت أعضاؤنا ترتجف من البرد القارص الذى يسرى من خلف هذه القضبان ، والذى قبع فى الأرض الصلبة يتسلل الى أجسادنا من أقدامنا العارية اذا تحركنا ، ومن ظهورنا وجنوبنا اذا جلسنا أو استلقينا ٠

لم تكن المأساة فى النوافذ والأرض الأسمنية فقط بل كانت أيضا فى السقف الذي حللته الشمس والأمطار فأصبح كالغربال لا يصد مطرا ولا يعزل قيظا ٠

الهدف من التعذيب وخططه :

كان الهدف من التعذيب في أوردي ليمـــان أبى زعبل هو التصفية السياسية والفكرية والتنظيمية للشيوعيين ، وبشكل خاص تصفية أى شكل تنظيمى مستقل حتى ولو كان متجاوبا أو مؤيدا للحكومة لأن التسليم بحقه اليوم فى التاييد هو قبول بحقه مستقبلا فى الاختلاف فالمطلوب محو أي ارادة خاصه أو تنظيم خاص لا يكون من نبت وغرس الحكومة ، فهى تحتكر الفكر والسياسة والتنظيم ولا تقبل بغير الطاعة العمياء ٠

لقد دفع الغباء وعمى الألوان بالثورة الى هدم المعبد على نفسها فحطمت كل القوى التى تساندها والتى تعتبر رصـــيدها عنـد الأزمات ، وتصورت أنها وحدها التى تملك الحقيقة ، ورفضت أى حوار وأى اختلاف معها واحتكرت الحكمة وحدها ، جاهلة أنها بذلك تحفر قبرها بيدها وتسلم لأعدائها مصادر قوتها ، فهى فى انتصارها على الشيوعيين وكل القوى الوطنية والتقدمية والسلامية قد هزمت نفسها وكشفت ظهرها لعدوها ليتمكن منها ويصفى كل المكتسبات التى حققتها ٠

كانت مرحلة أبى زعبل هي قمة التصعيد فى حمي التعذيب ، فهى مرحلة التعذيب البدنى والنفسى الى أقصى الحدود ، مرحلة حيـــاتك أو عقيدتك ، مرحلة القتل الفردى والجمـــاعى ، مرحلة استرخى فيها الكابوس على صدر مصر ، فتشر الرعب والخوف

فى جميع أركان الوطن ، وقتل الروح النضالية عند كل مصرى ونشر السلبية واللامبالاة ، وذبح روح المبادرة والابداع ، وأجهز على كل رأى مستقل ، لقد اسود صبح النهار وتلطخ وجه التاريخ بالخزى والعــار بارتكــاب هــذه المذابح الاجرامية فى أوردى أبى زعبل •

كان الارهاب المتواصل والانهاك البدنى والعزل الكامل وسائل اقتبسها المخططون للارهاب والجلادون من أساليب النازى لتحقيق التصفية السياسية •

يقول « كولين ولسن » فى وصف أسلوب رجال العاصفة الهتلرية فى معتقلات النازى : « فرض نظام سموه (لم يعد انسانا) فالانســان بالتعذيب والقهر المتواصل يتراجع عن انســانيته حتى حيوانيته أى الغريزة ، والغريزة هنا هى غريزة البقاء ، والتى تخنق وتمحو كل ما عداها من غرائز » •

أو كما ذكرت ملفات محاكمة مجرمى الحرب فى نورمبرج : « تحويل الانســـان الى كائن دون ارادة ، اذا ما كان قادرا على التحرك ، فهو يتحرك كالآلة ، واذا ما عجز ليسقط فهو غير قادر على الاتيان بأى حركة أو انفعال ، يمكنك أن تطأ جسده فلا تهتز له شــعرة لأن شيئا فى الحيــاة لم يعد له قيمة ، لا اعتراض •• لا صرخة •• لا ألم •• رجال دون انفعال أو فكر •• أجساد بدون أرواح » (١٠) •

ومن هذا المفهوم النـــازى الاستعمارى العنصرى تربى تلاميذ أغبياء وجلادون حمقى تجاهلوا أننا دولة نامية لازالت فى مرحلة

---

(١٠) الهام سيف النصر : فى معتقل أبو زعبل ، ص ١٨٦ •

الثورة الوطنية تكافح بقايا الاستعمار والاقطاع ، .وتطورها رهن بوحدتها الوطنية ، وتساند جميع قوى الشعب العامل لتحقيق تنمية شاملة تمحو بها الفقر والجهل والمرض ، وتنطلق الى رفع مستوى الجماهير التى طال استعبادها وقهرها .

نسى هؤلاء الجلادون واقع وطننا وشربوا من آبار النازية فراحوا يفرقون الجماعة ويفتتون الوحدة الوطنية ويفككون النسيج الوطنى ويطاردون الطليعة المناضلة يؤدبون بها الجماهير ، ويشيعون فى صفوفها الرعب والفزع حتى يكفر الجميع بأمانى الوطن فلا يفكر أحد بخارج حدود نفسه .

من هنا خططوا لأهدافهم ، وكلما فشلت مرحلة لم يتملكهم اليأس ، وأنما واصلوا التخطيط لمرحلة أخرى مع ابتكار وسائل جديدة .. اننا لا نستطيع أن نبرىء هؤلاء من علاقات مشبوهة بقوى رجعية فى الداخل واستعمارية فى الخارج ، وليس الهدف ضرب القوى الوطنية والتقدمية فى مصر فحسب بل محاصرة وضرب تلك القوى الوطنية والتقدمية داخل الثورة نفسها .

كان التخطيط أن يشمل التعذيب البدن والنفس لانهاء الانسان كانسان والقضاء على المقاتل كارادة .

فمن الناحية البدنية كان الضرب والتجويع والحرمان من العلاج والانهاك البدنى بالعمل الشاق فى الجبل وطوابير التمام وما يسمى الرياضة واللف للتفتيش ، كما كان حسن منير يكلف المعتقلين بأعمال مرهقة مذلة لنقل أحجار الجير الضخمة وكنس مياه الأمطار وتنظيف البكابورتات وتنقية رمال أرض المعتقل من الحصى والحجارة ، وفى سخرية مخنثة يقول للمعتقلين : كل واحدة من

هذه المهـام يا أولاد صنعة سـوف تنفعكم عندما تخرجون من السـجن !

ومن الناحية النفسية :

١ ـ كانت المفاجـأة التى تذهل العقل وتفقده القدرة على التفكير والمواجهة .

٢ ـ العزلة عن الأسرة والمجتمع وأحداثه والعالم وما يدور فيه ، فخطابات وزيارات الأهل ممنوعة والورقة والقلم والصحف والمجلات والاذاعة محرمة .. ويمتد العزل الى النقابات والجمعيات والحزب والجماهير ، وهى الهيئات التى يستمد منها المناضل قوته والرئة التى يتنفس من خلالها ، بل يمتد العزل الى من يتواجد معه فى المعتقل فممنوع عليه حتى أن يتحرك أو يحادث جاره فى العنبر أو سجانه فى المعتقل ، انهم يقتلون فيه المشاعر الوجدانية ويصيبونه بالجدب ويشعرونه بالنقص والتلاشى ، ويمحون عنه انسانيته وينمون فيه الجانب البهيمى لتشكيل هياكل فاقدة الارادة خاضعة ذليلة لكل ما تؤمر به .

٣ ـ المهانة والاذلال بالشتائم والسباب المقذع الذى يندى له الجبين .

٤ ـ التصعيد المتصـل لكل صـور التعذيب فى الاستقبال والعنبر والفناء والجبل لزرع الاحسـاس بالتوتر الذى يفضى الى الاحباط والانهيار .

٥ ـ تحطيم القدوة باذلال وتحقير العنـاصر القيادية لنزع الهيبة عنها وافقادها القدرة على القيادة ، مما يسمح بتحلل النسيج التنظيمى وتحطيم روح المقاومة .

لقد خططوا لتصاعد التعذيب على ألا تتجاوز الجرعة الحد الفاصل بين الحياة والموت مع الاستمرار أطول فترة ممكنة والحفاظ على المعتقل فى أسوأ حالة من الجوع والانهاك ٠

كانوا يقدرون أن يستمر الأوردى عدة سنوات كمعتقل للتعذيب ، ولكن كانوا يقدرون وتضحك الأقدار ، فلم يستطيعوا الحفاظ على الشعرة التى تفصل الحياة عن الموت ، بل أغرتهم متعة التعذيب فتجاوزوا الشعرة وقتلوا ، فكانت نهايتهم ومأساتهم !!

التعريف بجهاز التعذيب ومن لعبوا دور الجلادين :

كانت هناك جهات عديدة وعناصر مختلفة لعبت دورها ودفعها الحقد والعداء للشيوعيين والاشتراكية والديمقراطية ليس الى مجرد القبض والتحفظ على من له صلة بهذه الاتجاهات ، بل التحول الى عملية تأديب وتعذيب وقتل مستغلة فى ذلك الظروف الهستيرية والمناخ الذى صنعه الاستعمار والرجعية وعملاؤهما فى اشاعة موجة العداء للشيوعية وتحويل الخلاف الفرعى الى خلاف أساسى بين الوطنيين ٠

كانت هناك عناصر فى قمة السلطة كزكريا محى الدين وعبد اللطيف بغدادى اشتركت فى وضع الخطوط العامة لتعذيب الشيوعيين يساعدهم بعض المستشارين من رجال المخابرات الأجنبية الأمريكية « مالزكوبلان » الذى عمل فى فترة هذه السنوات كمستشار لزكريا محى الدين للأمن الداخلى ومحاربة الفكر اليسارى وهناك آخرون كعبد الحميد السراج ، هؤلاء تقدموا بخبراتهم وحقدهم لدفع عجلة الانتقام ٠

كان زكريا محى الدين معاديا للديمقراطية والاشتراكية وممالئا أبدا للغرب وأسلوب الحياة الأمريكية فى عام ١٩٥٩ واتته الظروف ليضرب اليسار ، وضرب معه القوى الديمقراطية كلها فى مصر •

وفى عام ١٩٧٢ وقف ضد سيادة القانون وطالب بعودة وصاية مجلس الثورة القديم وحل مؤسسات الشعب الدستورية ، ورسم مشــكلة مصر فى بيان الجبهة الوطنية على أنها مشــكلة الوجود السوفياتى ، وليس مشكلة الاحتلال الاسرائيلى لأرض مصر (١١) •

كانت هناك عناصر أخرى لعبت دورها فى التخطيط والتنفيذ : شمس بدران ـ صلاح نصر ـ حسن عليش ـ أحمد صالح ـ حسن طلعت ، قائمة طويلة تجبرت وتصورت أن الســلطة ستدوم لها فانطلقت فى أعمالها المخزية القذرة ، وهناك من وضعوا أنفسهم فى خدمة هذه المخططات بحماس زائد ، يدفعهم اليه تطلعــاتهم غير المشروعة فى مناصب ومكاسب لا يستحقونها ، بعضهم اتخذ من القانون رداء يبرر به قسوة مظالمهم ، وبعضهم هتك ستار القانون متحصنا بقانون الغابة •• من هؤلاء : على نور الدين من النيابة العامة وقد بدأ حياته فى خدمة الملكية وفاروق ثم قدم نفسه فى عهد الثورة خادما مطيعا ، حتى تم عزله لكثرة فضائحه •

ومنهم الفريق الدجوى رئيس المحكمة العسكرية الذى حكم بأحكام قاسية وغير عادلة ضد الشيوعيين ، هذا الدجوى انهار وهاجم مصر عندما أسره اليهود أثناء عدوانهم وكان وقتها حاكما لغــزة ••

---

(١١) الهام سيف النصر) فى معتقل أبو زعبل ، ص ٤٥ •

وهنـــاك الفريق هـــلال عبد الله هـــلال قائد المدفعية حـــاكم الشيوعيين ثم نسى أنه ضابط وقاض فترك المتهمين وهم على ذمته فى أيدى المباحث ، يعلم ما يحدث لهم من تعذيب ويغمض عينيه ويتهرب من رؤية زوجات المتهمين وأطفالهم وأهلهم وهم يستنجدون بشرفه العسكرى وشرفه كقاض بعد أن حمل مسئولية القضاء ، ثم حكم عليهم بأحكام قاسية تتنافى مع العدل والانصـــــاف ٠٠ ولكن عدالة السماء كانت له بالمرصاد ، فلم تمض غير سنوات حتى عزل من الجيش اثر نكسة ١٩٦٧ كأحد المسئولين عنها ٠

وهناك حمزة البسـيونى قاد عمليات التعذيب فى الســجن الحربى ، ولكن جبنه وهروبه أمام العدوان الصـــــهيونى قاده الى السجن ولم تشفع له وحشيته وتاريخه الملوث بدماء الضحايا ٠

لقد استأسد هؤلاء أمام الضحايا من أبناء وطنهم ٠٠ « أسد على وفى الحروب نعامة » ٠

فليس غريبا أن يكون الجلادون جبناء أمام العدو المســـلح شجعانا والضحية مصرى أعزل وحيد أمام قطعان البربرية (١٢) ٠

لقد انكمش هؤلاء وكان مصيرهم مزبلة التاريخ ٠

واذا انتقلنا من التخطيط الى التنفيذ ، وبالتحديد الى المكان الذى شـــهد أقسى ألوان التعذيب وحشـــية وبربرية ، وهو أوردى ليمان أبى زعبل ، وقام بالاشراف عليه ضباط كانوا مؤهلين وعلى استعداد كامل لتنفيذ المهمة ــ فاننا نستطيع أن نقول ان الأوردى

---

(١٢) الهام سيف النصر : فى معتقل أبو زعبل ، ص ٣٠ ، ١٣٠ ٠

يتبع مصلحة السجون من الناحية الادارية ، ولذا كان يجب أن تطبق فيه لوائح السجون التى تحدد حقوق وواجبات نزلائها .

وحيث أن مثل هذه الأوضـاع القانونية فى النظم الشـمولية لا تحترم ، لذا وضع الأوردى تحت متابعة واشراف المباحث العامة من خلال ضباط كانوا مستعدين ومؤهلين لأن يضعوا أنفسهم فى خدمة أجهزة القمع والارهاب ، ضـاربين بلوائح السـجون عرض الحـائط .

ولقد وجدت المباحث العامة ضـالتها فى هذه المجموعة من ضباط السجون التى نفذت عمليات التعذيب بحماسة فاقت المخططين لها ، حتى تفوقوا فى بعض الأمور على أساتذة النازى فى معتقلات داخاد وبوخنوالد وأشفيتز .

ولا عجب فى ذلك فقد استمر هؤلاء ثمانية أشهر متصـلة يعذبون المعتقلين فى أوردى أبى زعبل طوال الأربع والعشرين ساعة ، ويمارسون أساليب وحشية لم تخطر لأحد على بال ، يحدث هذا فى داخل العنابر وفى طوابير ما يسمى بالرياضة ، فى فناء السجن وحول العنابر وفى الجبل .. فى الذهاب لاستلام اليمك أو العودة منه .. حين يشكو أحدهم من مرض .. صورة بشعة لا يمكن أن يتصورها عاقل ، وقاموا بهذه الأعمال الاجرامية دون أن تنبض لهم ذرة من انسانية ، بل ودون أن يملوا هذه القسوة أو تكل أجسادهم فكأن كل منهم قد قد من حجر .

طبيعة شاذة لا يمكن أن تصدر الا من شواذ انعدمت منهم القيم ومات فيهم الضمير وسيطرت عليهم حالات هستيرية من السادية والتلذذ بآلام البشر .

١ ـ كان المخطط والمفكر الأول وواضع خطط التعذيب والمشرف على تنفيذها هو اللواء **حسن المصيلحى** خدم فى المباحث العامة منذ أن كان ملازما حتى رتبة اللواء ، فهو الوحيد الذى قضى خدمته كلها فى جهاز حساس من طبيعته تغيير الضباط اذا ما تغير نظام الحكم أو اختلفت الظروف السياسية ولكنه عاصر الملكية وخدم فى قسم مكافحة الشيوعية بالقلم المخصوص وتتلمذ على ابراهيم امام الذى أقام البوليس السياسى ، والجزار وتوفيق السعيد لخدام **الملكية ، ثم استمر وتدرج فى وظائف المباحث العامة بعد الثورة** وزامل أحمد صالح داود وعشوب حتى وصل الى رتبة اللواء والمدير لادارة مكافحة الشيوعية ثم المدير العام للمباحث العامة وفى نفس الوقت المستشار للأمن الداخلى .

زجل داهية ثعبانى قدير على حبك المؤامرات ، يبدو سلسا مرنا هادئا لكن فى مكرودهاء صوته منخفض وكلامه ناعم وحديثه مبتسم ، شخصية جذابة ، يصر على أن يقدم لك فنجان قهوة وسيجارة وفى عزمه أن يلفق لك التهمة التى تبرر الحكم عليك بالأشغال الشاقة ، فهو يقتل بقفاز حريرى ، يدعى أنه غير مسئول عن أعمال القمع والتعذيب وأنه ضد القسوة ، بينما يكلف غيره بهذه المهمة حتى يتجنب أن يضع أصابعه فى دماء الضحايا فلا تصبح مسئوليته مباشرة تخصص فى مكافحة الشيوعية وخدم أكثر من سيد ، ويبرر ذلك بأن عداءه للشيوعية عداء فكرى ، وهو مغرور يتفاخر بأنه لو كان فى كوبا لما كان هناك كاسترو ، ولما وجد حزب شيوعى ، ولو كان فى فيتنام لما شهدت حزبا كحزب هوشى منه ، ولما شهد جنوب شرق آسيا انتشار الفكر الشيوعى ، يزعم أنه يعرف معظم الشيوعيين المصريين بالاسماء والملامح معرفة تكاد تكون هواية وأنه راقبهم بنفسه ، وكان مرشدوه على صلة شخصية به فقط .

ارتبط اسمه بالتعذيب والالحاح على استكتاب الاستنكارات وحارب وتآمر حتى آخر لحظة ليؤخر الافراج عن المعتقلين والمسجونين الشيوعيين ، ودفعه غروره والقوى الداخلية والخارجية التى تسانده لأن يتحدى السلطة التى خدمها ، ورغم حذره لم يستطع أن يبقى بعيدا عن عمليات التعذيب التى كان يأمر بها حتى انتهى به المطاف الى النقل لمصلحة الجوازات عقابا له على تحديه لأوامر عبد الناصر بالافراج عن المعتقلين ومحاولة التهرب من تنفيذها ، ثم هرب الى جنيف بسويسرا ليعين فى منصب كبير بشركة أجنبية كبرى ومشبوهة يصعب أن يناله مصرى لا يتقن اللغات الأجنبية ولا يعرف شيئا فى الصناعة أو التجارة .

٢ ـ كان على رأس الجلادين أيضا **اللواء اسماعيل همت** وكيل مصلحة السجون ، وهو الذى أشار الى اختيار الأوردى وصلاحيته لتصفية الشيوعيين .

واذا تعرفنا على ملامح شخصيته فلن نعجب من شذوذ أعماله ، فهو طموح ولكنه يريد أن يحقق طموحاته لأعلى المناصب لا عن طريق الترقى العادى بل بالطرق غير الشرعية ، واختار أقذرها وهو أن يصبح جلادا للمعتقلين السياسيين ، وهو شخصية محدودة الأفق مجنون بالمظاهر ، لا يعرف الثقافة ولا يحبها ، وحفل تاريخه بعمليات غير نظيفة ، فقد أحرق كتب المسجونين السياسيين بسجن جناح بالواحات الخارجة قبل نقلهم للسجن الجديد بالمحاريق ، كما أحرق خيامهم وملابسهم واعتدى عليهم بالضرب ، وقبل ذلك قاد حملة تترية على المعتقلين بأوردى ليمان أبى زعبل فى يوليو عام ١٩٥٥ واعتدى عليهم بالضرب ، وكنا مضربين عن الطعام فى اليوم التاسع ودمر حاجياتنا وسمح للعساكر بنهب ملابسنا وبطاطيننا ونظاراتنا وبقية حاجياتنا ، وجلد الكثيرين منا ـ وكنت واحدا منهم ـ وتكسرت

عظام بعضنا وتلطخت أجسامنا بالدماء ، وشحن المضربين عن الطعام الى زنازين التأديب بالليمان ، كما قام بحملات التعذيب الوحشية والمتعددة بأوردى ليمان أبى زعبل وليمان طره وسجن الواحات الخارجة بالمحاريق أعوام ٥٩ ـ ١٩٦٠ ٠

وهو شخص ناعم الصوت رقيق الجسد أحمر الوجنات تركى الملامح والجذور ، شديد القسوة فى معاملته للرجال ، وكأن بينه وبينهم ثأر ، ولديه ولع مجنون بتعذيب من يتوسم فيهم رجولة مكتملة ثم الاصرار على أن يقول الواحد منهم بأنه امرأة ٠٠ حكايات تروى عنه بانتمائه الى الجنس الثالث الذى هو ليس بين الرجال أو بين النساء ٠

وهناك نظرية عن التفسير السيكولوجى للشخصية النازية تقول : ان مثل هؤلاء غالبا ما يعانون من شذوذ جنسى يؤدى بهم الى كراهية عميقة لأنفسهم وللناس وللحياة ويعيشون دائما فى حالة انتقام ٠

يكاد الدم يتفجر من خدود همت الحمراء المكتنزة ، وهو يضحك بينما جسده كله يهتز ونحن نخلع كل ملابسنا لنقف عراة أمامه ٠

كان الدكتور محمود القويسنى ضابطا فى سلاح الفرسان حتى سنة ١٩٥٤ ، وكان اسماعيل همت أيامها قد فصل من الجيش لمسائل أخلاقية فى بداية ثورة ١٩٥٢ ثم أعيد ضابطا فى مصلحة السجون وكان الدكتور الويسنى يعرفه جيدا ويعرف نقاط ضعفه ، وطالما تذلل اليه همت ليتوسط له لاعادته الى الخدمة (١٣) ٠

---

(١٣) د٠ فتحى عبد الفتاح : شيوعيون وناصريون ، ص ٨٦ ـ ٩٩ ٠

أراد أن يحقق طموحاته بتعذيب الشيوعيين ، ولكن انتهى أمره الى الاستيداع بعد استشهاد شهدى عطية .

٣ ـ **الرائد حسن منير** : مأمور الأوردي أنيق المظهر وجهه أبيض سمين ، ممتعض لا يبتسم ، ينظر الى الدنيا باستعلاء ، يلبس بنطلونات محذقة ونظارة سوداء على عينيه ، ويستقر الكاب النازى على رأسه ، صوته ثعبانى ناعم ، لكن فى أعماقه وحشا ساديا مجنونا ، مخنث ، يحمل كل جنون وذكاء القاتل المريض نفسيا ، يأمر ويتابع عمليات تعذيبنا الوحشية دون أن تختلج له عضلة ، يقتل ويتهم القتيل بأنه هو القاتل ، كان المنفذ المخلص لخطط التعذيب .

بعد مقتل شهدى وأثناء التحقيق حاول أن يتهرب من مسئولية القتل والتعذيب ، فدخل الى الحمام ونزل بآلة ثقيلة على ذراعه فأحدث بها كسرا وقام بتضميد ذراعه ودخل الى المحقق وذراعه معلقة الى رقبته ، يدعى أن شهدى اعتدى عليه وأحدث بذراعه كسرا فاضطر العساكر الى الدفاع عن مأمورهم ، وفى معركة الدفاع هذه قتل شهدى دون تحديد من القاتل من بين هؤلاء العساكر ، وانتهى التحقيق بنقله الى مصلحة الحدود .

٤ ـ **الرائد عبد اللطيف رشدى** : وكيل السجن طويل ضخم الجثة وحشى المعاملة بارد النظرات ، لا يبتسم ، تصدر الأوامر من يده أكثر من فمه ، فارس ماهر لا يأبه بحرقة الشمس ، يستطيع أن يظل على جواده عدة ساعات ، ينفذ ما يطلب منه بصرامة وقسوة دون انفعال وهو رجل التعذيب الأول ، الحراس يخشونه ، ومجرد وجوده يضاعف التعذيب ، لم أتمن شيئا كما تمنيت ـ ونحن فى قمة التعذيب . أن أضع رأسه فى الأرض وأسحقها حتى يسكن

للأبد .. أثناء التحقيق فى مقتل شهدي بدت عليه علامات الانكسار وضاعت سطوته ، حاول التقرب من المعتقلين محاولا تبرير اجرامه بأنه كان ينفذ تعليمات ولكنهم أعرضوا عنه .

بعد التحقيق نقل مأمورا لأحد مراكز أسيوط ، وحاول هناك أن يمارس أسلوبه الوحشي في المعاملة الذى لم يختلف عن سلوكه وهو ضابط سجون فلقى هناك مصرعه علي يد أبناء المركز فقد ضرب رجلا – له مكانته – على رجليه أمام قريته ، فدبرت له القرية هجوما على المركز الذى يسكن فوقه بعد منتصف الليل ، وصعدوا الى مسكنه وقتلوه وقيدت الحادثة ضد مجهول .

٥ – **النقيب مرجان اسحق** : صوته ناعم رفيع وحركاته ملساء مؤنثة .. شعره طويل مجعد بقصة ، أظافره لامعة .. وجهه يخلو من شعر الذقن وشعر الشارب ، جسده مسترخ دائما حتى وهو على جواده يهتز وكأنه يركب جملا .. ملابسه أنيقة غارقة بروائح الكولونيا يلبس دائما بيريه كاكى ، خجول يخفى خجله بصراخ حاد وأوامر متشنجة بالضرب والعنف المستمرين ، لا يهابه السجانة ، ولكن غضبه مفاجيء ، وأوامره عنيفة ، اشترك مع زملائه فى عمليات التعذيب والقتل دون أن يشعر بالندم .

٦ – **الملازم أول يونس مرعي** : نحيل وطويل يبتسم ويضحك ويقهقه ويصرخ في نفس الوقت في صوت هستيري وكلمات نابية ، مستهتر سبق ضبطه فى غرزة حشيش ، يحقد على كل من يحمل شهادة علمية ، كان لاعبا بالفريق القومى لكرة القدم وهو الذى قام بضرب الدكتور فريد حداد حتى الموت .

٧ – **السيد منصور** : ضابط فى سن الثلاثين ذو جسم قوى رياضى أسمر خمرى يلبس فى رسغيه جلدا مطعما بالحديد النيكل

الأبيض اللامع ، لم يوجه اليه أحد اتهاما أثناء تحقيقات النيابة فى مقتل شهدى ، سماه البعض واحة الديمقراطية ، لعدم تورطه فى الحماس للتعذيب ، وتحويله الى اجراء شكلى حين ينفرد بقيادة المعتقل أو الجبل .. كان أسلوبه الهادىء العاقل شـــذوذا فى هذا الجو الوحشى المجنون وقد فسر البعض سلوكه بأنه مجرد غطاء يخفى العفن أو أسلوب أمريكانى فى تقسيم العمل ، شخص يعذب وآخر يتبرم ويتأفف من التعذيب .

أما السجانة فانهم يختارون ممن لهم ملفات مليئة بتهم وجنح وجنايات الاعتداء على المسجونين حتى يتفادوا خطر التأثر بالمعتقلين ، فهم يختارون من أسوأ السجانة شراسة وخلقا وجهلا وانحرافا . وأغلبهم من مدمنى المخدرات .

ومن أجل ضمان استجابتهم لأوامر التعذيب أقيمت لهم مدرسة وأعدت لهم المحاضرات ، واستغل جهلهم لحشو عقولهم بأن هؤلاء المعتقلين خونة وملحدون وكفرة ويهود وليســوا مصريين ، فدمهم حـــلال .

وبسبب تعبئتهم وتحريضهم وبســـبب الخوف من المأمور والضباط والصول استجاب السجانة لأوامر التعذيب ، فشارك بعضهم فيه بحماس ، بينما كان القليلون يتحينون الفرص للمشاركة الشـــكلية .

كان الصول مطاوع من أكثرهم حماسا للقسوة ، ويحمل ملفه عدة جرائم خطيرة أساسها الرشـــوة والشـــذوذ الجنسى وادمان الأفيـــون .

بعد جرائمه العديدة فى أبى زعبل واستشهاد شهدى نقل بعد فترة الى الواحات وهناك قاطعه الزملاء ، مما كان له أثر رهيب على نفسيته ، ثم أصيب بانفجار فى الزائدة الدودية وأصبح فى حالة خطرة لا تتحمل نقله الى المستشفى ، ولم ينقذه من الموت سوى زميلنا الدكتور حمزة البسيونى فقد أجرى له جراحة عاجلة فى بطنه بأدوات بدائية دون بنج ، وخاط بطنه بابرة وخيط عاديين ، ولكن الزملاء واصلوا مقاطعته ، فلم يحتمل ، وطلب من المأمور نقله الى سجن آخر وقام باجازة مرضية ثم خرج الى المعاش وتوفى بعد ذلك بمدة قليلة .

وكان العساكر عبد السلام المتربس ـ عبد الصادق المجنون ـ الجاويش عبد الحليم عوكل والأمباشى عبد اللطيف والأمباشى حسن عليوه ، ومن العساكر أيضا : عابد عبد الله ـ أبـو الوفا دنجل والعسكرى دومة .

لم يكن الضباط والسجانة من الأسوياء ، انما كانوا مجموعة من الشواذ تتسلط عليهم السادية ، وتناثرت قصص شذوذهم بين الجنـــود .

.. لم يكن من المعقول أن يقـــوم بمثل هذا التعذيب انســـان طبيعى .

كان يحلو للبعض منهم أن يمر على العنبر ويطلب من الجميع الوقوف ووجوههم الى الحائط ، ثم يقف وراء كل واحد ويسأله عن اسمه ومنصبه فان وجده ذا شأن شتمه وضربه على رأسه متباهيا بذلك بل وأمره ببعض الأعمال الشاقة .

فى أحد الأيام مر يونس مرعى على عنبرنا ــ عنبر ٣ ــ واخذ يسأل حتى وصل للدكتور لويس عوض فسأله عن اسمه فقال له : دكتور لويس عوض فعقب يونس مرعى : « دكتور ايه ياابن القحبة » ثم سأله عن وظيفته ، فقال له : مستشار بوزارة الثقافة ٠ فضربه وطلب منه أن يأخذ جردلا ويمسح العنبر ٠

صور من التعذيب فى يوم كامل

التفتيش داخل العنابر وكيف تطور :

اذا كان اليوم يبدأ رسميا فى الأوردى بالنسبة للادارة فى السابعة صباحا حينما يفتح باب العنبر ويصرخ النساويش « دوغرى » ، فهو بالنسبة للمعتقلين يبدأ قبل ذلك بساعات مليئة بالقلق والتوتر مع اشعاعات الفجر الأولى ، بل هو يبدأ عند البعض قبل ذلك متوغلا فى ساعات الليل السابقة حين يجفو النوم عيونهم من شدة الجوع والبرد ، ويصبح الليل طويلا مشحونا بالخوف مما سيأتى به النهار ٠

الفجر بالأوردي همجية غادرة تبحث عن صيد خلف القضبان، موت متحفز بالباب ، مجهول كالغول ينشب أنيابه فى الأبدان ، الفجر هناك بلا تفاؤل ، الفجر تساؤل : الام يدوم الحال ؟ وما المآل ؟!

لكن الجميع لابد أن يستيقظوا مبكرين من نومهم المكدود ، لابد أن يكونوا على أتم استعداد لطريحة التفتيش والضرب ، فينهض كل فرد بما يلزمه ، وينهض العنبر كله باعداده وتنظيفه حسب

التعليمات .. لذا يتزاحم سبعون معتقلا بالعنبر على مرحاضين ليقضوا حاجتهم بسرعة ويغتسلوا دون صابون أو مناشف وقد يقل الماء أو ينعدم ـ أما عن الفطور فالكثيرون لا يجـدونه لأنهم تناولوا طعام اليوم كله مرة واحدة بالأمس ـ وأنا واحد منهم ـ وعليهم أن يتضوروا جوعا حتى ميعاد حضور الغذاء ، ولا يوجد سوى أفراد قليلين أسرع كل منهم الى قضم كسرة خبز وبقية من لحسة عسل مشربة بالفنيك أو قطعة جبن عطنة أخفاها فى بطانيته من اليوم السابق يخطف ذلك خطفا .

وعلى من بالعنبر أن يسرعوا فى جمع الأطباق وغسلها وكنس العنبر ورشـــه بالماء ، ثم يلف كل معتقل برشه وبداخله يطبق بطانيته وفوقهما يضع قروانته وطبقه مغســـولين ويرص كل ذلك بنظام أمام نمرته ثم يجلس أمامها على طوار الرصيف حتى يسمع صرير بوابة الأوردى وهى تفتح فى السابعة ، ونداءات التمام تتوالى عالية كنعيق البوم ، فى هذا السكون ، معلنة يوما جديدا كئيبا من الآلام لا يعرف أحد من سيكون من ضحاياه .

الكل ينتظر فى توتر ، يفتح باب العنبر .. يزعق الشاويش « دوغرى » ، فيقف الجميع كل أمام نمرته ووجهه الى الحائط ، وفى لحظة يتـــدفع الى داخل العنبر عدد كثيف أكثر من عشرين مهاجما هم خفر الليل وحراس النهار والسجانة والصول والضابط النوبتجى ، وهم يحملون العصى والشـــوم وجريد النخل وأحيانا يصاحب المأمور هذا الحشد فيتضاعف الضرب .

لقد تطورت عملية التفتيش داخل العنابر من تفتيش الفراش الى اثارة الفوضى فى كل شىء ثم التفتيش مع الضرب ، ثم التفتيش الذاتى مع خلع الطاقية وفتح الفم ثم التفتيش مع الانحناء نحو الحائط

ليكون الظهر والرأس والقفا جاهزا للضرب بالشوم والقوايش ، ثم الانحناء واللف للتفتيش ، ثم اللف والدوران السريع المتصل مع الضرب فى أى موضع بطريقة عشوائية والشتائم والسباب البذىء ، ثم نسمع « انتباه — قف » فيتوقف التفتيش •

وقبل أن تصبح هذه التعاليم المتطورة روتينا يوميا فوجئنا فى أحد الأيام بدخول الصول مطاوع العنبر ومعه مجموعة من الحراس والسجانة يعلمنا مراسم التفتيش داخل العنبر وينذرنا بأن من لم ينفذ هذه التعاليم سيجلد على العروسة •

صاح للخلف در ، وهنا انهال العساكر الذين انتشروا فى كل العنبر بالضربات بالجريد والشوم والأكف والأحذية الغليظة على كل جزء من أجسامنا وهم يصرخون : اسمع كلام حضرة الصول يا ابن الكلب •

ثم أوقف الضرب لينادى : لما أقول تفك الحزام تفك حزام نطلونك فورا ، وتقف على كعب قدمك اليمنى ، ثم تركع وعند سماع نداء لف للتفتيش تلف وانت راكع على كعب رجلك بأقصى سرعة ممكنة ، وأومأ للسجانة فانهالت عمليات الضرب من جديد ، ثم أوقف الضرب ليكرر التجربة وعد حتى ثلاثة فبدأت عملية اللف للتفتيش مع الضرب على القفا والرءوس والظهور والكل يمسك بدكة سرواله ، وتصادمت الرءوس وداخ البعض فارتمى على الأرض وسقطت بعض السراويل وانكشفت العورات بين ضحكات وقهقهات المأمور وضباطه ، ويعجب المأمور بالمشهد فيأمر مطاوع أن يعيد التجربة لأن بعض المساجين لم يتقن التمرين ؟!! ويتصاعد الضرب وتتضاعف معدلاته ولا يتوقف الا عندما تسمع « انتباه — قف » •

ولكن هناك جرعات اضافية لأى عنبر ضبط متلبسا بجريمة الحديث أو الضحك ليلا فينكل به لأنه مارس الخلاعة وانتهك هيبة الأوردى ، وينتهى الحصاد بجروح وكسور ولكن دون علاج .

وامعانا فى الارهاب والتعذيب يحاول الضـــابط أن يلتقط شخصا أو أكثر بأى حجة يفتعلها ليضربه بالفلكة أو يخرجه من العنبر ليتكفل به بعض الجنود لتكديره ، واذا صرخ يزيد له الضرب ليرهب به الآخرين ، أما اذا صبر وتحمل تركه حتى لا يصبح قدوة يثير روح التمرد داخل المعتقل .

وبعد أن تتم هذه الحفلة الصباحية يقومون بحصر عدد المعتقلين ثم يخرجون ويغلقون العنبر .

طابور التمام والهتاف :

بعد التفتيش والضرب داخل العنابر فى وجبة الصباح نخرج الى فناء السجن بين صفين من الجنود حراس الليل وجنود النهار يطاردوننا بالضرب والســباب ، وهم مزودون بالشــوم والقوايش وقحوف النخيل وسيور السيارات حتى نصطف على شكل مربع فى فناء السجن وكل سجان أمام عنبره ، ويقف قائد المعتقل وضباطه فى وسط المربع لتلقى تمام الصباح ثم يبدأ الهتاف للجمهورية .

ثم يعود المعتقلون الى عنابرهم جريا بين نفس الصفين من السجانة يتلقون نفس التحية ، وتنتهى بذلك مهمة حراس الليل ، فيذهبون الى عزبة السجانة ولا يبقى فى الفناء سوى عنبر واحد وهو الذى عليه الدور فى طابور الصباح .

أحيانا كان العنبر لا يأخذ مكانه فى مربع طابور التمام الا بعد أن يطاردونه بعد خروجه من العنبر فى الفناء وفى طرقات المعتقل بين العنابر ، يلفون به المعتقل كله وينهال عليه العساكر بالشتائم والسباب والضرب العشوائى بكل ما فى أيديهم وفى كل اتجاه ، ثم يستقرون به فى طابور التمام بعد أن يكون العساكر قد أتعبوا أنفسهم من الضرب وأصيب الكثير من المعتقلين بالجروح والكسور ولطخت أجسامهم بالدماء .

لم يعترض أحد من المعتقلين على الهتاف للجمهورية ولكن كانت المشكلة فى الهتاف لعبد الناصر وفى نشيد الله أكبر .

امتنع د. اسماعيل صبرى عن النشيد فضرب فأثار هذا بلبلة واسعة وتمردا فى صفوف الحزب الشيوعى المصرى (ع.ف والراية) هل يهتفون أم يمتنعون أم يتمتمون (يظهرون الهتاف ولا يهتفون) أم تهتف الصفوف الأولى وتمتنع الصفوف الخلفية ؟؟!! أم تترك الحرية لكل فرد يتصرف حسب ما يراه ؟

واتخذ قرار من القيادة بالرأى الأخير فأثار اعتراضات فصدر قرار بأن يهتف من بالصفوف الأولى ويصمت من بالصفوف الخلفية فرفضه البعض فعادوا للقرار الأول .

ثم تخلت الادارة عن النشيد والهتاف لعبد الناصر واستمر الهتاف للجمهورية .

طابور ما يسمى بالرياضة :

كان الهدف دائما فى كل حركة هو الأنهاك والتعذيب حتى الرياضة التى تعمل على تقوية الجسم وتحسين صحة الانسان ،

أساءوا اليها وحولوها الى ارهاق وآلام متصلة خاصة مع حالة التجويع التى عشناها ، فقد سرت اليها خطة تصعيد التعذيب من الخطوة السريعة الى الجرى الى تمرينات رياضية عسيرة ومرهقة ، الى تصعيد الضرب أثناء تلك التمرينات .

وبسرعة تركز طابور الرياضة على التمرينات المرهقة ، فهى تبدأ بتمرين الضغط الذى يعنى الانبطاح على الأرض والارتكاز على اليدين وأمشاط الرجلين ثم ضغط الصدر هبوطا وصعودا فى حركة متوالية مستمرة لا تتوقف حتى يأمر الصول بالتوقف وأحيانا يأمر بعدم التوقف حتى يأتى الضابط ، عملية تعجيز تنتهى بسقوط الكثيرين اعياء حيث لا يستطيعون رفع أجسادهم من على الأرض ، وهنا يأمر الضابط السجانة بأن يسيروا بأحذيتهم الغليظة على ظهورهم ويضغطوا بها على رءوس المعتقلين ليمرغوا أنوفهم فى التراب حتى تمتلىء أفواههم به ، وأحيانا يستخدمون الجريد فى ضرب المعتقلين وهم منبطحون على الأرض ، وسموا هذا بلعبة « البيانو » واذا أصيب البعض بالاغماء تضاعف ضربه حتى يفيق .

وتتوالى التمرينات : ما سمى بتمرين « شادية » وهو النوم على الظهر مع رفع الساقين فتحا وغلقا ، ثم تمرين الحجل على رجل واحدة مع وضع اليدين فى الوسط والجرى مع الدوران فى حلقة ضيقة حتى تتقطع الأنفاس ، ثم تمرين جلوس القرفصاء فوق أمشاط الأقدام مع رفع الذراعين الى أعلى والسير مع الحفاظ على هذا الوضع ويضرب من يمس كعب قدمه الأرض ، ويسمى هذا التمرين « بمشية الأوزة » أو « الزحف المقدس » ويتجه هذا الزحف بهذا الشكل الى العنبر ، وقبل بابه بمسافة يقف صفان من السجانة يتناولون المعتقلين وهم فى طريقهم اليه بالشوم وجريد النخل ليضعوا على ظهورهم البصمات الأخيرة لطابور الصباح .

العمل فى الجبل أشغال شاقة :

بعد طابور الرياضة وغلق الأبواب ، ينادى الصول مطاوع على العاملين فى الخدمات بالمعتقل : المغسل والترميم ·· الخ للخروج من العنابر الى أعمالهم داخل أسوار المعتقل وهم المصابون بعاهات قائلا : الاولاد العاملين فى المغسل دوغرى ·· الأولاد العاملين فى الترميم دوغرى ·· الأولاد العاملين فى البياض والمحبارة دوغرى ··

فاذا انتهى من ذلك ينادى على الباقين فى العنابر للخروج للأشغال الشاقة بالجبل ، فرضوا علينا الأشغال الشاقة فى تكسير حجارة البازلت ستة أيام فى الأسبوع ونحن حفاة الأقدام حتى تيبس بطن أقدامنا فأصبح مثل خف الجمل ·

بدأ العمل فى الجبل فى الأسبوع الثانى من نوفمبر عام ١٩٥٩ ، وحتى لا تحدث معارضة أو تمرد فقد بدأ بحفلة مضاعفة من الضرب فى العنابر ، ثم أمر بالخروج فى صفوف ، اجتزنا بوابة الأوردى أمرنا بالجلوس القرفصاء ووجوهنا الى الأرض دون حركة فى صفوف متراصة كل صف مكون من أربعة ، وكل عنبر على حدة وأمامه سجانه ، وشكلت العنابر الستة ست مجموعات ·

فى هذه الجلسة تمت عملية التمام ، ثم ارتفع نداء الصول مطاوع « دوغرى » فوقفنا وسرنا نحو الجبل كان أول الطابور عند السكة الحديد وآخره عند باب الأوردى ، وكان المشى للجبل يستغرق نصف ساعة نقطع خلالها مسافة ١٥٠٠ متر ·

كان يشرف على الطابور ضابطان يركب كل منهما فرسه واحيانا كان يصاحبهما حسن منير قائد المعتقل راكبا صهوة جواده ·

كان الطريق الى الجبل متخما بحراسة مكثفة من العساكر المدججين بمختلف الأسلحة والعصى والشـــوم فعلى جانبى الطريق جنزيران من عساكر الكتيبة : الأول الملاصق لنا مسلح بالشوم والآخر الذى يقع على بعد منه يحمل البنـــادق المسلحة ، ثم توجد وراءهم وعلى بعد منهم نقاط ثابتة مسلحة بالمدافع الرشاشة سريعة الطلقات فى مواقع تمكنها من التحكم والسيطرة التامة على مجمل المنطقة ·

وعلى طول الطريق لا يخلو الأمر من ضرب بالعصى أو بالأيدى أو ركل بالأرجل مع الشتم والسب واعلان يتكرر من الضباط أو الصـــول بأن أى محاولة للهرب تعنى الضرب بالنار فورا فى المليـــان ·

كان شريط السكة الحديد يتقاطع مع طريقنا للجبل وأحيانا نرى القطار من بعيد مقبلا ، فنؤمر بالوقوف وإعطاء ظهورنا للقطار، ولكن منظر العبيد وأسرى الحرب الذين يرتدون هلاهيل ممزقة ويسيرون حفاة الأقدام ، فى جو قارص البرودة ، يتساندون على بعضهم ، وفيهم من يمشى مقوس الظهر أو محمولا على الأعنـــاق للكسور والجروح التى أثمرتها حفـــلات التفتيش وطوابير التمام والهتاف والرياضة الصباحية ··· كان هذا المنظر الذى ينتمى للعصور الوسطى المظلمة لابد وأن يلفت أنظار ركاب القطار ، كانت أعناقهم تشرئب من النوافذ وأبواب القطار ، وكان سائقو القطارات يقللون من السرعة حتى يتأملوا طابور السخرة هذا ·

كان المشهد يحتوى على تنـــاقض صـــارخ بين جموع منهكة ترتعش من شدة البرد والجوع وبين ضباط فى أبهة فوق جياد مطهمة ووجوههم تطفح حمرة وحيوية ، يلبسون ملابس ثقيلة تقيهم زمهرير الشتاء ، وحتى السجانة كان كل منهم يرتدى معطفا طويلا

ثقيلا ، وفوق رأسه طربوش عليه غطاء برفرف أمامى وذيل طويل ينساب على الظهر ، وكل منهم يمسك بشومته أو خيزرانه ٠

يستأنف الطابور سيره - بعد مرور القطار - وقبل موقع العمل ينحدر الطريق ثم ينحنى لندخل بطن الجبل ٠

سبقتنا مجموعة من الجند يقودها الصول الى موقع العمل ، وأخذت في تفتيشه بحثا عن أسلحة أو رسائل مهربة ، انهم وهم فى موقع القوة يخافون أن تكون هناك خطة للانقضاض عليهم ٠

موقع العمل فى بطن الجبل عبارة عن حفرة واسعة فى شكل اسطوانة تكونت من عمليات التفجير والتكسير ونقل الأحجار ، وتمتد لعدة كيلو مترات وهى محاطة بالتلال التى ترتفع أمتارا عديدة ، وفوق هذه التلال يرابط جند الكتيبة بالسلاح ، وهؤلاء عندما يشتد الضرب تسرى اليهم العدوى فيجرون ويصرخون بأصوات مسعورة ويشتركون فى السب والشتم وقذف الأحجار على المعتقلين من أعلى الجبل ٠

على يمين هذه الحفرة حفرة مماثلة هى مكان عمل المسجونين الجنائيين الذين يلبسون ملابس زرقاء ويعملون على آلات تكسير حديثة ٠٠

نزلنا الحفرة من فتحة فيها ٠

لم يحدث ضرب يذكر فى اليوم الأول ولم توقع عقوبة على المقصرين رغم أنهم فى البداية بالغوا فى تقدير المقطوعية ، طلبوا ستة غلقان من البازلت فلم نورد الا ثلاثة ، ونزلنا بمقطوعية التراب الى عشرين غلقا وكان المطلوب الضعف ٠

بعد اليوم الأول بدأ التصاعد في الضرب والتعذيب ، فحمل التراب بالخطوة السريعة وصف من العساكر للضرب ، ومن نفذ المقطوعيـــة لا يتوقف عن العمل بل يجلس في الدائرة يكسر . وعندما يخفت صوت التكسير يصرخ الضابط متسائلا : ان كان المساجين قد ناموا ، وتكون هذه اشـارة لينقض العساكر علينا بالشوم .. كان الضباط يتابعوننا من أعلى الجبل بعدسات مكبرة ويصرخ الضباط في العساكر لرفع حمية الضرب والتعذيب ..

بعد ذلك تصاعد الضرب في كل خطوة بل ومن أول خطوة نخطوها في بطن الجبل حيث نتلقى عشرات الشوم والعصى التي تنهال علينا من الحرس الخارجي لليمان ، ثم تدوى صفارة لنتجمع ونجلس القرفصـاء ثم تتكرر عمليـة المطاردة والتجميع ثم يقوم السجان بالتتميم على عنبره ليبلغه للصول وهذا يبلغه للضابط الذى يبلغه لقائد المعتقل ان وجد .

بعد ذلك يأخذ كل معتقل غلقا وكاسورا صغيرا أو شاقوفا كبيرا لمن يعملون في تكسير القطع الكبيرة ، ويجلس كل عنبر في شكل دائرة ليكسر البازلت وينفذ كل فرد المقطوعية المقررة وهي ثلاثة غلقان مليئة .

كل زميل يضع أمامه كتلة من البازلت يكسر عليها مقطوعيته، وعليه أن يحمل كتلا من البازلت تسمى التماسيح ويضعها أمامه ليكسرها الى قطع صغيرة لا تزيد عن خمسة سنتيمترات ثم يضع ما يكسره في غلقه فاذا امتلأ حمله الى سجان العنبر ليسجل في كشف العنبر أمام رقمه نقطة ثم عليه أن يذهب بالغلق مسافة تزيد عن المائتى متر في نهاية الحفرة لموضع التشوين ليفرغ الغلق في المصطبة التي يحددها الصول ثم يعود الزميل الى الدائرة لاستكمال المقطوعية بهذا الشكل .

وعملية تكسير البازلت فى الجبل لها خطوات تبدأ بالعتلة التى تفصل الكتل الضخمة من البازلت ، وهذه مهمة فنية يقوم بها المسجونون الجنائيون ، ثم تقوم فرقة من المعتقلين بحفر ثقوب بعمق ٧٠ سم فى تلك الكتل باستخدام الدبورة لحشو هذه الصخور بالديناميت لتفجيرها حتى تنشطر الى كتل أصغر تسمى التماسيح ، ثم تقوم العنابر فى دوائرها بتكسيرها الى قطع صغيرة وتقوم بالمهمة الأولى فرقة من كل عنبر مكونة من أربعة أفراد أقوياء الجسم يختارهم سجان العنبر وتسمى فرقة الحجارة ، وهذه تقوم بتكسير الكتل الناتجة عن التفجير بواسطة الشاقوف ٠

وبقية العنبر هم فريق الكسارة ٠

وعملية الحفر فى كتل البازلت عملية شاقة وخطرة وتحتاج لوقت طويل ، فالدق يقوم به زميل بواسطة مرزبة من الحديد الصلب تزيد عن أكثر من خمسة كيلو جرام على رأس عتلة من الحديد طولها ١١٠ سم يمسك بها زميل آخر ، واذا أفلتت المرزبة الى يد الزميل فلابد أن تحدث له عاهة مستديمة فى يده ، وقد حدث هذا فعلا معى وأصيب فيها الزميل عبد العزيز الصباغ وأحدثت له هذه العاهة ، وحدث هذا مع آخرين ولم تعط ادارة المعتقل اهتماما لعلاج هذه الحالات ٠

لم تكن لنا خبرة سابقة ولم ترشدنا ادارة السجن الى الصواب فى عملية التكسير ، فتتناثر البازلت شظايا حادة وسامة أدمت وجوهنا وأيدينا وأرجلنا وأقدامنا الحافية ، واستمرت القروح شهورا دون علاج ، فكل انسان اعتمد على مقاومته الذاتية ، وبالتجربة والخطأ تعلمنا كيف نقلل الخسائر ٠

رغم ذلك فقد كانت المعاناة من الصخر أقل هولا وايلاما من قسوة ادارة المعتقل فقد كان الضرب والتنكيل والسب والشتم من عساكر الكتيبة ومن السجانة يصاحب كل حركة داخل الجبل ، تضرب ونحن نتجه الى موقع الكتل البازلتية لنحمل منها ما نكسره قطعا صغيرة ، وتضرب ونحن نحمل الغلق لاثبات مقطوعيتنا عند شاويش العنبر ، نضرب ونحن نتجه للتشوين لافراغها ، نضرب ونحن عائدون لدائرة العنبر .

وفى نقل التراب كانت المطاردة بالضرب ونحن نملأ الغلقان بالتراب ثم ونحن نحملها على أكتافنا ممتلئة ونجرى بها مئات الأمتار لنفرغها فى طرف حفرة الجبل بعد أن يكون جزء كبير من هذا التراب قد تساقط على أجسامنا وملابسنا من ثقوب الغلقان ، وفى العودة يحدث نفس الشيء ، وأحيانا كان يطلب منا أن نعيد التراب مرة أخرى الى مكانه الأول فالهدف هو الضرب والانهاك وتحطيم الروح المعنوية وتسفيه قيمة الرجال . وعلى طول طريق الذهاب والعودة يقف صفان طويلان من الحراس يضربون أجسادنا بهراواتهم وشومهم والضباط يطاردوننا بخيولهم ، بينما تسيل الدماء من أقدامنا الحافية من وخز شظايا البازلت الحادة والسامة ، والويل لمن يتعثر فى الطريق فسوف تتكالب عليه الذئاب المفترسة ، ويمد فى الفلكة ويضرب بالشوم على رجليه حتى يتورما .

ومن يعجز عن اتمام المقطوعية يعاقب بالضرب بالفلكة وبركلات الخيل وأحذية الضباط وبالحرمان من جزء من جراية الخبز .

لقد كان أمرا مفزعا أن نرى دماءنا تسيل وتلطخ كل مكان فى موقع العمل بالجبل .

وهناك تعذيب آخر وهو التعذيب بالعطش ، فالجهد المضنى والحرارة فى الصيف يدفعان الى الظمأ ، وقد كنا نحمل جرادل المياه معنا الى الجبل حتى نرتوى منها رغم ما فيها من شوائب حيث لا نجد غيرها ، ومبالغة فى ايذائنا كان بعض الضباط أو السجانة يعمدون الى هذه الجرادل فيضربونها بأرجلهم ويفرغونها على الأرض ، وأحيانا مع حرارة الشمس الشديدة كانوا يأمروننا بخلع الطواقى حتى نصاب بضربة شمس ٠

كان منظرنا فرجة تسر كبار المسئولين الذين كانوا يزورون الجبل وتلتقط لنا الصور التذكارية التى تؤكد قدرتهم على تنفيذ مخطط الانهاك والابادة ، وكانت حفلات التعذيب تتضاعف فى مثل هذه المناسبات ، كانت الصور تلتقط لنا ونحن فى الطابور الى الجبل نحمل كتل الحجر الجيرى التى جلبت من محاجر ليمان طره الى أبى زعبل ، نحملها من حول خط السكة الحديد ونمشى بها حتى بطن الجبل لبناء حجرات هناك لضباط الحراسة لايهامنا أن الحبسة ستطول عدة سنوات ، كما كانت تلتقط الصور ونحن نكسر البازلت فى بطن الجبل وسط حملات الضرب المسعورة ٠

يأتى العسكرى الجديد وهو يحمل لنا مهابة واحتراما تكفه ن الاقدام على ايذائنـا لأنه يعلم ان كثيرا من المعتقلين أسـاتذة جامعات ومثقفون وكتاب وزعماء نقابات واتحادات طلاب ، ولكن سريعا ما يتبدد هذا الاحترام عندما ينهره الضابط ويأمره بالضرب ويهدده بالعقاب ، وعندما يرى زملاءه القدامى قد اعتادوا على الضرب وأصبحت ممارسته شيئا عاديا ، وقد عبر أحد العساكر عن هذا حين أخذ يشتم فينا ويقول ان الضرب أصبح عادة يلازمه حتى فى نومه فهو يحلم بأنه يضرب واذا به يضرب زوجته أو ابنه وهو نائم بجواره ٠

من الأيام التى تضاعف فيها التعذيب يوم ١٦ فبراير ١٩٦٠ وسمي بيوم الأربعاء الدامي لقسوة التعذيب كما كثر عدد من شملهم الضرب على الأقدام بالفلكة ، وحدث حوار حاد بين د. اسماعيل صبري والضابط عبد اللطيف رشدى ولم يصب الارهاق المعتقلين فحسب بل أصاب السجانة أنفسهم للجهد الكبير الذى بذلوه فى الضرب حتى أن السجان عبد الصادق الذى لقب بنخاس العبيد ، لأنه كان أشد السجانة قسوة أصابته أزمة قلبية ، فقد أصيب بحالة اختناق وتصبب جبينه عرقا فذهب الى حجرة الملاحظة بالأوردى وما ان رأى ضحاياه من المصابين الذين تكسروا من ضرباته يتجهون الى هذه الحجرة حتى أخذ يصرخ ويوجه شتائمه اليهم « يا أولاد الكلاب يا اللى ما فيش فى قلوبكم رحمة » ؟!!

في أحد الأيام ضرب الدكتور لويس عوض فى الجبل ضربا شديدا وأراد الأستاذ حسن فؤاد أن يسرى عنه ويخفف عنه آلامه فقال له معلهش يا دكتور « النهارده عدس » لأن العدس كان أهم وجبة اذا قيست بغيرها ، فقد كان الطعام سيئا للغاية .

بعد الأربعاء الدامي بيومين وكان الضرب قد خف نوعا ما سأل أحد المعتقلين الشاويش عبد الحليم « عوكل » الضرب خفيف النهارده ليه يا شاويش ؟ ! قال : والله احنا زهقنا من الضرب ومن وجودكم هنا ، كنا مرتاحين ونسينا حكاية الضرب دى ، وصلتم لنا ، واحنا بنفذ الأوامر ، قلت له ولكنك تنفذ الأوامر بشدة . فقال : مش انتم عاوزين تبقوا حكومة ؟ اخرج من هنا وهات لى حسن منير وأنا أضربه لك ، بل هات هنا جمال عبد الناصر نفسه ، وقل لى اضربه ، اضربه ، أنا هنا أنفذ كلام الحكومة ، ومن قبل الثورة وأنا هنا أعمل فى هذا السجن ، وياما ورد علينا قبلكم ، وياما حيورد بعدكم ، واللى يجوز أمى أقول له يا عمى .

هذا الحوار يوضح حالة الطاعة العمياء وانعدام الوعى الكامل بوظيفة السجن ، وعدم وجود حدود او التزام بلوائح أو حقوق للمسجون أو المعتقل ، انما هى الأوامر والطاعة الصماء التى تقود هذه الآلة الجهنمية الى ارتكاب الجرائم والقتل دون خوف من رادع قانونى .

لم يمنعنا هذا التعذيب الاجرامى والملاحقة التى لا تتوانى من أن نفكر فى السياسة ونتبادل الحوار خطفا حول ما يصلنا من أخبار نادرة عما يدور فى الوطن أو العالم من أحداث .

وصلنا خبر تأميم بنك مصر ، فأثار حوارا حادا داخل العنابر وفى الجبل ، كان الحزب الشيوعى المصرى (حدتو) يرى فى هذا الاجـراء ما يؤكد خطه فى وطنيـة النظـام وتقدميته ، بينما ترى « الراية » أنه ضرب للرأسمالية الكبيرة ولكن تنقصه الديمقراطية ، أما (ع . ف) فتراه لصالح بنك مصر نفسه ، فهو لصالح الرأسمالية الكبيرة الاحتكارية ، ويرفعون شعار اسقاط النظام ، ويهاجمون من يؤيدون مثـل هذه الاجراءات الوطنيـة ويصفونهم بلاعقى أحذية البورجوازية .

فى الجبل يؤخذ التمام على المعتقلين ثلاث مرات خوفا من أنه يكون أحد قد تمكن من الهرب المرة الأولى عندما نصل فى الصباح الى بطن الجبل ، والثانية حين ترتفع صفارة الصول فى الساعة الثانية عشرة ، وتتجمع كل العنابر ونجلس القرفصاء ووجوهنا الى الأرض وتتم عملية الحصر ، ثم دوغرى وننصرف الى العمل ، ثم فى الساعة الثانية والنصف تجمع عدة العمل فى أماكنها ويؤخذ التمام للمرة الثالثة استعدادا للعودة الى الأوردى .

كان مشهد الطابور العائد فى حالة يرثى لها مما يثير الأسى والحزن ، الأقدام كسيحة وقد تهشمت ضـلوع وأطراف ..

الجميع جريح ، والجراح بعضها نسيل منه الدماء والبعض الآخر قد تقيح ، الشفاه جفت من العطش ، والبطون جائعة تتلوى .. بعض الطابور محمول لأنه يتعذر عليه أن يحمل نفسه ، والبعض يسير متكئا على آخرين .. كثيرا ما نعود حاملين جرحانا الذين ضربوا بالفلكة وتورمت أقدامهم ، أو جرحوا جروحا تعوقهم عن المشى ، ولا زلت أتذكر مشهد الأستاذ محمود أمين العالم وقد حمله الزملاء على أعناقهم لعجزه عن المشى بعد ضربه بالفلكة ضربا مبرحا فى الجبل لاحتجاجه أمام الادارة عن التعذيب الذى نعانيه .

وأمام الأوردى يجلس الجميع القرفصاء ، ليعاقب المقصرون عن تنفيذ المقطوعية بمدهم على الفلكة وضربهم أربع شومات على أرجلهم ، ثم يؤخذ التمام مرة أخرى ، ثم يسرع الجميع ركضا الى العنابر لتغلق عليهم بين ضجيج من الضحكات الساخرة التى ترحب بالزنزانة وتجد فى جدرانها أمانا من المهانة والتعذيب ولأول مرة لا تثير الزنازين الضجر بل يكون صوت المفتاح فى الأبواب كنعيق الغربان .

وخوفا من طلوع الفجر وفتح الزنزانة وبداية يوم جديد من التعذيب يصرخ فؤاد حداد :

مش عايز الفجر يطلع .. مش عايزه يطلع يا عالم
دا كل ما الفجر يطلع .. أنا أنا البنى آدم
بيضربونى فى أبويا وبيضربونى فى أمى
ما طرح ما بسنى أبويا وما طرح ما بستنى أمى
والضرب زى الشتيمة على حشاكى الأليمة
كان ليه تشيلينى فى حشاك وتضرعينى عشاك
كان ليه بتندهيلى باسمى بيندهولى بنمرة

مكتوبة فوق الطاقية والبرش والبطانية
كان ليه يا أمي بنقرأ .. كان ليه أروح المدارس
واتعلم الابجديه ..
كان ليه الكتب والفهارس والامتحان والعديه
كان ليه يا أمي أمارس مبدأ من الانسانية
قولى لأبويا اللى غارس أكتر من العلم فيه
عبد اللطيف رشدى وارث ابنك فى جملة عبيده
عبد اللطيف رشدى سيده
عبد اللطيف رشدى فارس راكب حصان الحكومة
راسم على وشه بومة
تمشي وراه الكوارث وتمشي قدامه شومة
حلفت بالشومة دية .. وبدم شهدى عطية
حلفت بالدم يجرى على « حنان » الصبية
أنا طالب دم سفاحى .. أنا طالب دمه صباحى
علنا مشهور على سلاحى ، حرما والملك بيسبح
يا راسم للجبل صورة أنا قاعد عينى مكسورة
فيه شرخ فى قلبى والصورة .

ولكن سريعا وبعد ربع ساعة يعود النعيق فيفتح باب العنبر الذى عليه الدور فى الاستحمام ، حيث ينادى الشاويش « دوغرى الحمام » حتى الحمام صار هو الآخر جرعة تعذيب .

وفى نبرة حزينة يعاتب الشاعر « فؤاد حداد » الحكومة على التعذيب فى الجبل الذى لا مبرر له فمواقفنا السياسية كانت مساندة لمواقف الثورة الايجابية .. يقول :

ليه يا حكومة جعلت على الجبل شومة
كان منا المودة وليــه منك الخصـــــومة

لم يكن التعذيب في الأوردى قاصرا على التعذيب البدنى بالأشغال الشاقة ، بل كان أيضا تعذيبا نفسيا ، فقد وضعونا فى جب وعزلونا عزلا تاما عن العالم فلا جرائد ولا أقلام ولا ورق ولا اذاعة ، ولا مراسلات مع أهالينا الذين لا يعلمون أين نكون ٠

كانت هذه جزءا من الحرب النفسية التى شنوها علينا وخططوا لها ، كما يذكر صلاح نصر مدير المخابرات العامة فى كتابه عن الحرب النفسية ٠

لم نكن نشعر بآدميتنا ، أو بأننا كائنات حية تعيش فى هذا العالم ، كنا كائنات تهيم على وجهها ، تعذب وتهان فى كل لحظة من لحظات حياتها ، تصاحبها اللعنات والضربات فى كل أوقاتها صباحا ومساء ٠٠ ظهرا وعصرا ٠

فى أحد الأيام وأثناء تكسيرنا للحجارة بالجبل تسللت بعيدا بجوار حائط الحفرة المرتفع أقضى حاجتى فى العراء فأطاحت الريح بورقة من جريدة وجدتها أمامى ، ولشد ما كانت سعادتى حين شاهدت الكلمة المطبوعة التى تحمل رائحة الحضارة ٠٠ هنا أحسست بآدميتى رغم أننى أقضى حاجتى كما كان يفعلها الانسان البدائى فى الصحراء أو الأحراش منذ آلاف السنين ٠٠ طبعا لم أستطع أن أحمل هذه الورقة معى ، حتى يشعر من يراها بآدميته كما شعرت ــ لأنهم لو ضبطوها معى ــ وكنا دائما فى حالة تفتيش مستمر ــ لكانت جريمة نكراء أعذب عليها حتى الموت ٠

لقد كان شيئا غريبا أن نتعامل الثورة مع أخلص أبناء الوطن بهذه الوحشية التى لا مثيل لها ٠٠ لقد ساهم هؤلاء فى قيام الثورة وفى التمهيد لها وساندوها ــ بعد أن قامت ــ فى كل أعمالها الايجابية ، وهم وان اختلفوا معها فى أساليبها الدكتاتورية ،

واستئثارها بالقرار ورفضها مشاركة أي جماعة أو فئة من الشعب في تقرير مصيره ، فقد كانوا مخلصين للوطن وللثورة في توجهاتهم، لقد أرادوا حماية الثورة من شططها ، ولكن رجال الثورة ركبوا رءوسهم ، وأصروا على تصفية كل من لم يذعن لهم ويطيعهم طاعة عمياء ، فكان أن حفروا قبورهم بأيديهم ، وهدموا بحدتهم ما بنوه بتضحياتهم ومغامراتهم ·

وبداية من عام ١٩٥٩ استمرت آلة التعذيب في السجون والمعتقلات ،وتركز بشكل أكثر قسوة ووحشية بأوردي ليمان أبي زعبل ، ولم يتوقف التعذيب الا عندما حدثت جريمة كبرى وهي استشهاد البطل المناضل شهدى عطية الشافعي أحد المناضلين القدامى وأكثر المثقفين المصريين موسوعية في ١٥ يونيو عام ١٩٦٠ — كما سنوضح ذلك فيما بعد —

كان الأوردى والأشغال الشاقة تنتظر دماء شهدى حتى يتوقف التعذيب ؟!

طابور الاستحمام :

بعد العودة من الجبل بربع ساعة يفتح العنبر الذى عليه الدور في الاستحمام وينادي الشاويش « دوغرى ·· الحمام » ولا يخلو الأمر هنا أيضا من ركل وشتم وبصمات عصى الجريد على الأجسام ·

يذهب العنبر ويقف أمام الحمام ليخلع كل معتقل ملابسه ، ويقف طابور من العرايا ليسلم ملابسه المخلوعة ، بينما تيارات الهواء تعصف بأجسامهم ، ثم يقفوا أمام حلاق يحلق شعر الرأس والحاجب والذقن والشارب وتحت الابط والعانة ، ويتم هذا أمام الجميع العرايا في موقف حيواني لا يمت بصلة الى الانسانية ولا الى المدنية والتحضر ، ثم يدخلون الحمام وبه أربعون دشا أغلبها معطل ، فيضطر المعتقلون الى أن يتجمع كل خمسة أو ستة تحت

صنبور واحد والأدشاش مفقودة والمياه تنصب من ماسورة شديدة السخونة الى درجة البخار تحرق الأجسام عندما تلامسها ، وعندما يحتج المعتقلون يتوقف التسخين وتنزل المياه شديدة البرودة ، وحين يتكرر الاحتجاج تعود المياه شديدة السخونة ، ويصبح الحمام بدلا من أن يكون عملية نظافة محببة يتحول الى طابور من العقاب والعذاب مثل باقى أنشطة الحياة فى السجن ٠

وتتم عملية الاستحمام دون صابون أو أى نوع من المنظفات ودون فوط للتنشيف فى نفس الوقت الذى يطارد فيه السجان المعتقلين بالضرب ، يستعجلهم أن ينتهوا من الحمام ٠

يخرج الجميع من الحمام والهواء الساخن عرايا الى الخارج حيث يتعرضون لتيارات باردة تعرضهم لمختلف الأمراض ، ثم يتسلمون ملابس نظيفة ولكنها مبتلة عطنة لم تجف بعد ٠ فهى ملابس العنبر السابق استحمامه فى اليوم السابق ، وغسلت ملابسه ونشرت اليوم ووضعت لفائف على الأرض بجوار الجدار ليقوم كل معتقل باستلام لفته حسب دوره وحسب ما يتفق له ٠٠ قد تكون ضيقة أو واسعة قصيرة أم طويلة ٠٠ لا يهم ، فكل ونصيبه ، ثم يعودون الى العنبر ليقصوا أظافر الأيدى والأقدام جلوسا على رصيفى العنبر بمقص سلمه لهم السجان ليسترده بعد قليل ٠

طابور اليمك :

بعد العود من الحمام يفتح السجان باب العنبر ومعه أحد المسجونين الجنائيين لاستلام القروان الملئه باليمك ، وبعد قليل يعود السجان فيفتح الباب ويزعق : « دوغرى اليمك » فيخرج كل عنبر على حدة بين صفين من الجنود يتناولوننا واحدا واحدا بالشوم

وعصى الجريد فى الذهاب والعودة ، وأمام القروان يصطف العنبر طابور وعلى كل واحد أن يخفض رأسه (ينكسها) نحو الأرض ، فان رفع رأسه أو أتى بأى حركة داخل الطابور نهشته عصى السجانة ، ثم أمر بأن يتقدم كل معتقل حسب دوره فى الطابور فيخطف قروانته بالترتيب ويسرع بالجرى الى عنبره ٠

فى أحد الأيام كنت واقفا فى آخر الطابور ، وكان حسن منير قائد المعتقل واقفا أمامه مشرفا على توزيع اليمك ، لمحنى رافعا رأسى ، فارتفع نداؤه الأنثوى على أحد السجانة : الواد اللى فى آخر الطابور رافع رأسه ، ففوجئت بمجموعة من العسـاكر تهجم على وتجذبنى بين الضرب بالشوم والركل بالأرجل ، وأوقعونى أرضا ورفعوا رجلى وعلقوهما فى الفلكة ، واستمروا فى ضربى بالشوم على بطن قدمى حتى انتهت الطوابير من خطف القروان والجرى الى العنـابر ، وكتمت أنفاسى حتى لا يصـــدر عنى ما ينبىء عن الآلم فيسعدوا ، ولما تعبوا من الضرب وخلت الساحة من العنابر تنبه القائد فأمر بوقف الضرب ففكوا الفلكة وطلبوا منى الجرى وأخذوا يطاردوننى بالضرب حتى دخلت العنبر ، كانت رجلى قد تورمت وفقدت الاحساس بها من شدة الضرب ، وطلب منى الزملاء الاستمرار فى الجرى فى طرقة العنبر حتى لا تتجمد الدماء فى رجلى ، فأخذت أزرع الطرقة جيئة وذهابا مرات عديدة ، ولم يملك الزملاء أنفسهم من الضحك ـ وشر البليـة ما يضحك ـ ومع ذلك استمر الآلم شديدا فوضع الزملاء عليها عجينة من لبابة الخبز حتى تمتص بعض الآلم ، وعشت عدة أيام فى آلام مبرحة ٠

فى الساعة الرابعة بعد الظهر تقوم ادارة السجن بتفتيش عنبرين غير عنبرى الصباح وتتكرر نفس عمليـة الضرب واللف للتفتيش ، وما يصاحب ذلك من ضرب عشوائى ، وتصيد الأسباب لمضاعفة التعذيب الفردى والجماعى ٠

بعد هذا التفتيش يكون الوقت قد حل لاستلام باقى الطعام مصحوبا بالضرب والسباب كما هو معتاد ٠

كانت كمية الطعام قليلة جدا ونوعينه رديئة للغاية .. أحيانا نجد العدس مخلوطا بالتراب ونشم فى العسل رائحة الفنيك ، والجبنة محجرة عطنة والفول عبارة عن سوس به بعض بقايا الفول ، واللحمة كاوتش وشغت ، وما يسمى بالخضار لا يؤكل بالمرة ، هذا طعام ليس للآدميين بل ان الحيوانات لتعافه ٠

كنت وكثير غيرى نتناول الثلاث وجبات ــ رغم سوئها ــ مرة واحدة ، ومع ذلك أشعر بعدها أننى جائع وأمكث هكذا اليوم كله جائعا حتى يأتى ميعاد استلام الطعام فى اليوم التالى وكثيرا ما كنت ترى البعض منا يمرون على بقية الزملاء ــ خاصة من كانت شهيتهم ضعيفة ــ يسألون عن كسرة خبز ٠

كان ينام الى جوارى الأستاذ محمد عفيفى وهو محام من طنطا وكنا نأكل معا ، ووجدته يحضر لنا بعض القروان وبها بقايا أكل من خضار وجلد لحم وعظم ودهن وشغت ، كنا نلتهم كل ما نجده بسبب الجوع ، واكتشفت أن بعض الزملاء محدودى الشهية يعطونه فضلاتهم ، كما كان يذهب الى مجمع القروان فى نهاية العنبر ليجمع منها ما فيها من بواقى ، عرفت ذلك فيما بعد ولكن شدة الجوع كانت تقنعنى بالتغاضى عن ذلك وتناسيه ، كنت مضطرا للاستمرار معه فى تناول ما يجمعه من فضلات ٠

لم يكن مسموحا لنا بشراء أى شىء من الكانتين ، وممنوع أن يصرف لنا أى نوع من الترفيه الذى يصرف فى المناسبات داخل السجون ، كانت مجاعة حقيقية ومستمرة ٠

كانت أسعد الليـالى ، تلك التي يحلم الإنســان فيها بأنه يجلس على مقهى ويتناول كوبا من الشاى ، أو يلبس حذاء أو بيجامة حتى ولو من الدمور ٠

وفي الساعة الخامسة مساء بعد أخذ التمام تغلق العنابر ، ويصبح للمعتقل الحق في أن يفرش برشه وبطانيته ليجلس عليها أو ينام ويستخدم القروانة كوسادة ٠

ولا يعنى ذلك أنه أصبح حر الحركة داخل العنبر ، بل تلاحقه ادارة السجن بالتلصص والتجسس من خـلال النوافذ المفتوحـة ونظارة الباب ، وعليه أن يلتزم بالتعليمات التى تحرم الكلام والحركة ومغادرة المكان المخصص له فى العنبر ، ومن يخالف هذه التعليمات يعرض نفسه ويعرض عنبره لعقاب مضاعف أثناء تفتيش الصباح ، لذلك ينام هؤلاء الأسرى يحرس عيونهم الحنين الى الحرية وحين ينامون يحلمون بكل شيء طيب ٠

فى المساء يعود كل انسان الى نفسه يراجع حصـاد اليوم وبصماته المؤلمة فى جسمه ونفسه وكثيرا ما يذهب به خياله بعيدا خارج القضبان ، حيث يتأمل ويفكر فى أسرته ، أمه ــ أبيه ــ زوجته أولاده ، اخوته وأخواته ، وماذا حل بهم وآثر اعتقاله عليهم ، حيانا يحاول الهرب من هذه الهموم ٠٠ فيتذكر انتصار الانسان فى كثير من بقـاع الأرض على الظلم والطغيان ، فيعزيه هذا عن آلامه ، ويستمد منه القوة والعزم والاصرار ، يبتسم ويضحك وكثيرا ما هزمت البسمة قهقهة الجبان ٠

البعض يظل قلقا يتأمل شريط الذكريات ، والبعض يتغلب عليه تعبه فينـام مكدودا ، ولكن أنينـه لا يتوقف رغم سـكون الأجسام ، ويضاعف هذا الأنين قلق المتوتر الذى لم ينم ٠

وحتى لا نغرق فى طوفان اليأس والاحباط ، كان اختراقنا لستار المحرمات والممنوعات والتحايل عليها حتى نجعل من فترات المساء جرعات ثقافية وترفيهية تقوى فينا روح الصمود والتصدى ومقاومة عواصف الانهيار والتحلل .

فى ١٩٥٩/١٢/٣١ ليلة رأس السنة ، أغلقت العنابر علينا بلا طعام ، فقد تأخر طعام العشاء الذى يجلب لنا من الليمان لشدة المطر ، وبتنا ليلة شديدة البرودة يتساقط علينا المطر من خلال ثقوب سقف العنبر الذى تحلل من الحرارة والأمطار فامتلأت الطرقة وفاضت على المصاطب وهجم علينا البرد القارص من النوافذ المفتوحة .. كانت البطون الخاوية تشعرنا أكثر بالبرودة .. وقفنا على أطراف أصابعنا بجوار الحائط .. انكمشنا وارتعشنا .. استعنا بالبطاطين كمظلات تقينا من المطر ، شددناها فوق رؤوسنا فى وضع مائل حتى ينساب المطر المتساقط عليها نحو الطرقة .

قضينا الليلة هكذا فى حالة حصار وجوع وبرودة وانعدام النوم ، وحين حل بنا صباح اليوم التالى ، لم يعفنا هذا العذاب من عذاب اليوم الجديد ، وتواصل التنكيل والانهاك .

★★★

هذا البرنامج اليومى للعذاب لم يكن بكاف لاشباع النزوات الشريرة عند هذه المجموعة الشاذة التى أوكل اليها مهمة التعذيب بأوردى ليمان أبى زعبل ، بل كان يحلو لبعض الضباط أن يشغل نبطشيته أو فراغه بالتسلى وامتاع شهوته بمضاعفة التعذيب لنا .

فى أى وقت ـ وعلاوة على البرنامج اليومى الثابت ـ كنا نفاجأ بحملة من العساكر والضباط تدخل علينا العنبر بالضرب والشتائم وتطلب منا الخروج فى صفوف يحيط بنا العساكر

بالعصى والشوم وسـيور القوايش ، يلفون بنا فناء السجن وفى الطرقات بين العنابر ثم يعيدوننـا الى العنبر بعد أن يكونوا قد أتعبوا أنفسهم من ضربنا ، ويكررون ذلك عدة مرات فى اليوم وفى أيـام أخر .

فى احدى الليـالى وفى الساعة الثانية ليـلا فتحت العنابر وفوجئنا بهجوم من الحرس والسجانة ينزلون علينا ضربا لأنهم اكتشفوا مجلة هوائيـة فى أحـد العنابر تذيـع بعض الأخبـار والتحليلات السياسية وقاد الهجوم الملازم يونس مرعى .

فى احدى المرات طلبوا منا نقل الجير الحى من مجيرة خارج الأوردى الى داخله ، وأصيب البعض بخروم فى أقدامهم التى غاصت فى الجير ، وفى رقابهم التى تسـاقط الجير عليها من المقـاطف المثقوبة ، كما التهبت العيون والأنوف من ذرات الجير المتطاير .

ومرات أخرى أجبرونا على حمل الأسمنت ونقله من خـارج الأوردى الى داخله مع السباب والضرب .

هذا فضـلا عن أنهم كانوا يفرضون علينـا بعد العودة من لأشغال الشـاقة بالجبل ـ أن نقوم بتفريـغ القطارات المحملة بالأحجار الجيرية المنقولة من ليمان طره وتشوينها بعيدا عن خط السكة الحديد .

فى بعض الأحيان كانوا يجبرون أحد العنابر بتمهيد الطريق أمام مكاتب الضباط خارج السجن وحمل الرمال الملونة لتجميل المكان وزخرفته ، رغم أننا كنا حفاة وكانت الرمال تحتوى على العقارب السامة .

وأحيانا يخرجون أحد العنابر فى أيام المطر والبرد الشديد لتسليك البلاعات وتنظيف البكابورتات ونزح مياه الأمطار من الطريق بكوز من الصفيح ليصب فى الترعة المجاورة ويعلق حسن منير بنعومة مخنثة وسخرية خبيثة ــ موجها كلامه لمعتقلين فيهم أستاذ الجامعة والصحفى والكاتب المفكر والأديب والشاعر والقائد العمالى أو الطلابى ــ « يا أولاد كل واحدة من هذه الأعمال صنعة تفيدكم عندما تخرجون من هنا » ؟!!

لم تترك هذه المجموعة من الضباط فرصة للتعذيب والتنكيل والقتل الا وارتكبتها ٠٠ كانت على نفس الدرجة من الحماسة مع مخططى التعذيب والابادة ، حتى صار الأوردى وصمة عار فى تاريخ مصر الحديث ٠

فى أحد الأيام زارنا مدير عام السجون ــ فتحت العنابر واحدا بعد الآخر ٠٠ دخل ومعه عدد من كبار الضباط ، كان الاقدام على الشكوى دونه خرط القتاد ٠٠ حين دخل عنبرنا ــ عنبر ٣ ــ تقدمت اليه ــ نيابة عن زملائى ــ أشكو من سوء المعاملة وأطلب تحسين أوضاعنا ووقف التعذيب الذى نعانيه ، وفى نفس اليوم تقدم اليه فى عنبر ٤ زميلى وبلدياتى فتحى مجاهد بنفس الشكوى وأيضا فعل محمد الامام زميلى وبلدياتى فى عنبر ٥ حتى هتف فؤاد حداد مفتخرا فقال : اليوم يوم ميت الحلوج (بلدى) ٠

كان عدد المعتقلين من قريتى ثمانية أربعة منهم فى الأوردى وهم أنا وأحمد عبد الرازق وفتحى مجاهد ومحمد الامام وأربعة آخرون فى سجون أخرى هم أحمد أحمد يوسف (أخى) وعبد الحميد عبد الرازق فى سجن المنصورة فالقناطر فالفيوم فالحربى ، وعبد السلام خشان فى القناطر ثم الواحات وأحمد العدل فى

الفيوم ، كنا خمسة من الأزهر ودار العلوم ثلاثة تخرجوا أحدهم أنا من دار العلوم والثانى أحمد عبد الرازق من كلية اللغة العربية والثالث عبد السلام خشان من كلية أصول الدين والرابع فتحى مجاهد طالب بكلية دار العلوم والخامس أحمد العدل طالب بكلية اللغة العربية أما السادس فهو محمد الامام مدرس ابتدائى وطالب بكلية الآداب والسابع تاجر خردوات وهو أحمد يوسف (أخى) والثامن ترزى وهو عبد الحميد عبد الرازق ٠٠ مع أن قريتنا فى ذلك الوقت لم يتعد تعدادها ثلاثة آلاف نسمة .

فى بداية التعذيب لم نتصور أن بامكاننا أن نصمد أكثر من أسبوع أو أسبوعين ، وأن مآلنا هو الموت لا محالة لو استمرت هذه المعاملة أكثر من ذلك .

كان التعذيب أكبر من قدرة أى انسان على وصفه ، كنا نعتقد أنه يصعب على أى شخص مهما بلغت قدرته فى التعبير ــ أن يصور بدقة ما حدث بالكلمات ــ كان الأمر يحتاج الى تصوير سينمائى من واقع الأحداث لنقل الصورة كاملة .

لكن ارادة التحدى كانت أقوى من آلة التعذيب ، فقد استنفر الجهاز العصبى وتضاعفت قدرته على التحمل ، واكتشفنا القدرة الكامنة فى الانسان والتى مكنته من التغلب على هذه المحنة وتجاوزها .

تحملنا جحيم الصيف وليالى الشتاء عرايا ٠٠ حالات الذكام والسعال والحرارة والضغط والصداع اختفت .

كان هناك بعض المرضى الذين انحنت ظهورهم بسبب أمراض فى فقراتهم ، وكان هناك مرضى لا تفارقهم الأجهزة التى تساعدهم على حسن التنفس ٠٠ لقد أنساهم التعذيب أمراضهم وكأن صحتهم

قد عادت اليهم وأصبحوا معافين من المرض يحضرنى فى هذا منظر الزميل ياسين رئيس نقابة عمال الأحذية الذى كان يمشى محنيا ظهره لا يستطيع أن ينهض مستقيما ، كذلك الأستاذ حسن فؤاد كان يعالج قبل الاعتقال فى مناطق روسيا الجافة من حالة الربو التى كان يعانيها وكان جهاز التنفس يلازمه ٠٠ اختفت حالة الربو مع عدم وجود جهاز التنفس معه طوال فترة الاعتقال التى اقتربت من خمس سنوات ٠

كأن الشومة كانت دواء أشفت المريض فجعلت العليل بالربو يجرى كالحصان والمترهل الجسد يتخلص من سمنته ويركض كالغزال ، كما صيرت الدائخ مكوكا يلف للتفتيش ٠

كانت ارادة التحدى ومقاومة حملات التعذيب هى السبب فى ذلك ٠

أذكر أن الأستاذ أحمد عبد الرازق كان وزنه أكثر من مائة كيلو جرام فانخفض فى المعتقل الى حوالى النصف ، وكان يقول بفكاهيته المعهودة « أنا خسيت جوزيف » مشيرا الى زميل كان يلازمه فى عنبره واسمه جوزيف كان ضعيفا قليل الحجم ٠

كانت قوة تحملنا تفوق الخيال ، صمدت الأجساد بالغريزة من أجل البقاء ، أعضاء فى جسد الانسان لاءمت نفسها مع الظروف القاهرة ، فالعضلات تنمو وتتركز فى أماكن الضرب ـ الظهر ـ القدم ـ الأكتاف ـ تحمى مواطن الخطر وهى الرأس ، الأذن مرهفة تتحسس وقع أقدام السجانة ٠٠ الجلادون يتحملون جزءا من نتائج التعذيب ٠٠ ولن نموت قبل أن يموت السجانة من مجهود الضرب ٠

كانت ارادة التحدى تدفعنا الى مقاومة حملات التعذيب بالضحك والغناء ، كما كنا نبتسم ساخرين فى وجه الجلادين ــ كانت المفاجأة العجيبة أنه عندما توقف التعذيب سقط العديد منا مرضى ــ زال الخطر الخارجى عن الجسم وتوقفت حالة التعبئة التى أعلنها عندئذ عاودت الجسم أمراضه الداخلية فأخذت تهاجمه ٠

استشهاد د٠ فريد حداد :

ونحن على هذه الحال كنا بين الوقت والآخر نسمع بايراد جديد ، معتقل واحد أو عدد من المعتقلين يواجهون بمثل حفلة الاستقبال التى استقبلنا بها بل وأشد قسوة ، فقد كانت هذه الحفلات تتصاعد فى قسوتها يوما بعد يوم ، وفى مثل هذه الحفلات قتل الدكتور فريد حداد من الضرب ٠

حضر الى الأوردى فى ٢٨ نوفمبر ١٩٥٩ فى فوج مكون من سبعة رفاق منهم المرحوم الأستاذ عبد الله الزغبى المحامى ، فاستقبلوا بالتشريفة المعهودة من الضرب والسب ٠ سأله الضابط يونس مرعى : اسمك ايه يا ولد ؟ أجاب : الدكتور فريد حداد ــ قال يونس مرعى : دكتور ايه يا ابن القحبة ٠ اديله يا عسكرى ٠٠ أنت شيوعى يا ولد ؟ أنا مصرى أؤمن بالاشتراكية ــ يعنى شيوعى مصنوع فى روسيا ٠

أجاب فريد حداد : أنا مصنوع من طين مصر ومعجون من عرق العمال والفلاحين ٠

ــ بترد على يا ولد يا ابن الوسخة ٠

انهال عليه يونس مرعى ومجموعة من السجانة بالعصى ودبشك البندقية يحطمون رأسه وجسده ،ــ وصاح فريد حداد فى وجه يونس مرعى : أنت كلب فاشستى وبصق فى وجهه ٠

والى الضرب عليه فى كل موقع من جسمه أصابته شومة فوق رأسه فكسرت الجمجمة فسقط على الأرض فاقد الوعى ـ صرخ يونس مرعي : اقتلوا ابن القحبة هذا ، وتصاعد الجنود والدماء تسيل من رأسه ، أفاق للحظة واستمر الضرب فسقط للمرة الثانية ، أدخلوه مع ثلاثة من زملائه احدى زنازين التأديب ، كانوا يئنون من الآلم وفجأة توقف فريد حداد عن الأنين ، عمل له زملاؤه تنفسا صناعيا ودلكوا قلبه دون جدوى فقد مات ٠

جره السجانة من قدميه الى خارج الزنزانة وانهالو عليه بالضرب لينطق ، اكتشفوا موته ، فتوقف الضرب وتظاهر زملاؤه بأنهم لا يعرفون بموته حتى لا يجهزوا عليهم باعتبارهم شهود عيان على مقتله ٠

بهذا الاستهتار المجنون ضاعت حياة فريد حداد الطبيب الباطنى المشهور والذى جعل من عيادته فى أول شارع شبرا مثابة للفقراء يعالجون عنده مجانا ، بل ويصرف لبعضهم الدواء مما أكسبه احترام وحب أهل الحى ، هذا علاوة على ما عرف عنه من دماثة الخلق والرقة الشديدة ٠

لوث طبيب الليمان الدكتور كمال شرف مهنته فتجاهل الرأس المشجوج المفتوح والنخاع الذى سال مع دمائه ليكتب أن الوفاة طبيعية اثر هبوط فى القلب !

لم يكن التعذيب قاصرا على الدكتور فريد حداد ، بل شمل رفاقه الآخرين الذين هشمت عظامهم وكسرت أطرافهم ٠٠ كانت اصابتهم خطرة حتى أن عبد الله الزغبى كانت عظام رجليه مهددة بالغرغرينة ، واستمرت حالته سيئة لعدة شهور ٠

استشهاد شهدي عطية الشافعي :

في ١٤ يونيو ١٩٦٠ ظهرت بوادر استعدادات لتشريفة كبرى تمثلت في زيادة جرعة الارهاب فجأة ، وتسخير بعض العنابر في تمهيد الطريق الفرعي الموصل لبوابة الأوردي وتحديد معالمه بالجير الأبيض ·

ومن الحشود التي أحسسنا بحركتها خارج المعتقل ثم من عدم النزول للجبل صباح يوم ١٥ يونيو ١٩٦٠ وتوزيع عنبر ٢ على بقية العنابر ، ثم الأمر بوقوفنا في العنابر ووجوهنا الى الحائط أدركنا أهمية الدفعة القادمة ، ومن خلال نداءات الأسماء التي سمعناها ، عرفنا أن هذا الاستعداد لاستقبال رفاق قضية شهدي الذين انتهت محاكمتهم بالاسكندرية وكان عددهم ٤٨ رفيقا ثم رحل منهم بعد يومين خمسة وأربعون زميلا الى أوردي ليمان أبي زعبل ليلاقوا عذابا مضاعفا ـ فوجئوا به ولم يكن متوقعا ، لم تكن نفسياتهم مهيأة له فلم يكونوا على علم بما يجري في الأوردي ـ وكان هذا الاستقبال عقابا لهم على تأييدهم للثورة ودفاعهم عن الوحدة الوطنية وشجبهم لشعار معاداة الشيوعية وفضحهم لدعاته واثبات أنهم أعداء للثورة ، ويريدون بها سوءا لصالح قوى الاستعمار والرجعية ·

كان هؤلاء قد تمكنوا من التسلل الى كثير من أجهزة الدولة الحساسة يعملون على الانتكاس بالثورة وضرب مكاسبها ، ويرون في الخط السياسي لهذه المجموعة التي تمثل الحزب الشيوعي المصري (حدتو) خطرا على مخططاتهم يهدد بافشالها والعودة بمسار الثورة الى أحضان الشعب وأهدافه الوطنية والاجتماعية ·

ولقد صرح عبد الناصر بذلك بعد انفصال سوريا عندما ذكر أن الرجعية قد سيطرت على الاتحاد القومي وسال لعابها

لامتلاك المؤسسات الأجنبية التي مصرت بعد العدوان الثلاثي ووقفت موقف العداء من المؤسسة الاقتصادية التي كانت نواة للقطاع العام ٠

من هنا كان التركيز الشديد على هذه المجموعة بهدف قتل قادتها واشاعة روح اليأس في نفوسهم ، ودفعهم الى انتهاج موقف يساري يسهل عزله وضربه وتصفيته ٠

أشرف على هذه الحملة اللواء اسماعيل همت والعميد الحلواني مأمور سجن الحضرة بالاسكندرية ، والمباحث العامة ، ونفذها حسن منير وضباطه ٠

أشار همت بتركيز الضرب على البعض وبالذات شهدي ، لذلك كان استقبال هذه المجموعة أشد ضراوة وقسوة من الدفعات السابقة ٠

يؤكد ذلك مبارك عبده فضل فيقول : « أعتقد أن مجموعتنا كانت أكبر مجموعة تعرضت للتعذيب قبل دخولها الأوردي ، كنا نسحل حتى العنبر ، ولا أذكر أني قد سرت على قدمي ، فاما أنهم كانوا يجرونني أرضا أو أنني كنت أزحف زحفا ، وفي اعتقادي أن ما حدث لنا لابد كان نتيجة توصيات بسبب المحاكمة » ٠

واستطرد واصفا كيف استقبلوا في الأوردي فذكر أنهم غادروا الاسكندرية في الساعة الثالثة والنصف فجرا ووصلوا الى الأوردي في السابعة صباحا ، وظلوا جالسين القرفصاء في مكان خلوي كل أربعة في صف حوالي ثلاث ساعات فبدأ الزملاء يتململون، وكل حركة يأتيها زميل يضرب بسببها « كنت وقتها سمينا للغاية ؛

وكانت مثل هذه الجلسة عسيرة على ألا أتحملها ، ولذا تحركت كثيرا ونلت كمية فظيعة من العصى والشوم على رأسى ، كان مفروضا ألا تنظر حولك أو أمامك » وأخذوا أربعات بين صفين من الجنود وصف من الفرسان خلفهم يضربون من يلحقون به « ان توقفت ضربوك » أتذكر أننى وقعت أكثر من مرة ، عندما وصلت الى باب الأوردى كنت قد انتهيت تماما ، فأصبت بالاغماء أكثر من مرة ، غمرونى بالماء حتى أفيق ، خلعوا ملابسى ، لا أدرى كيف ، كان هناك جدول مياه وأشجار ، حلقوا شعرى ودخلت ، أذكر أننى كنت أصاب بالاغماء وأن هنالك من كان يحملنى اثنين من اليدين واثنين من الرجلين ، وكان هنالك من يضربنى على ظهرى وبطنى ، كانوا يقلبوننى وأنا عريان منهك للغاية ، أصاب بالاغماء فأعاد الى وعى كى أضرب من جديد ، عندما وصلت الى باب العنبر كنت أزحف على رجلى عاجزا عن المشى ، دخلته وفقدت الادراك بكل ما حولى ، أصابتنى حالة من الاغماء المتصل ، كنت أفيق لحظات فأطلب ماء وأشرب فتزيد حالتى سوءا ، أحسست أنى أموت ، وأن موضوع العمر قد غدا دقائق معدودة أحسست بتمورجى السجن يغرس فى جسدى حقنة كورامين ، وربما تكون تلك الحقنة هى ما أنقذ الموقف ـ عرفت بهذا فيما بعد ـ فانهم عندما مات شهدى وعرفوا أن هنالك آخرين متعبين فى العنبر فزعوا وجاءوا لاعطاء الحقن ـ بعد أخذ الحقنة وبعد أن أفقت قليلا نقلت الى حجرة ووجدت معى فيها جمال غالى ونور سليمان ومحمد عباس فهمى وعادل حسين ٠٠ قال الطبيب اننا مصابون بصدمة عصبية وكنت أنا أسوأهم حالا قال الطبيب انه لابد من عدم الحركة وعدم شرب المياه مدة ٢٤ ساعة ، كانت تلك هى مرحلة الخطر التى لو اجتزناها عشنا » ٠

ويصف حال الزملاء بعد حوالى عشرة أيام عندما نقلوا لسجن القناطر « كل الناس مضروبة والملابس ملتصقة بالأبدان ورفعها عنها مؤلم أشد الألم » .

ويصف محمد يوسف الجندى التعذيب فى أبى زعبل : « كنا نسمع أن هناك تعذيبا دون تفصيلات أو تأكيد ، لم نكن نعرف بمقتل فريد حداد ـ عندما وصلنا كان الضباط فى انتظارنا وبدأت أشياء من قبيل « انزل يا بن الكلب » « انزل يا ولد » ، اقعد على قرافيصك ، كانت هنالك خيل وقوات ، لم يفلت أحد من الضرب .

ثم أخذ يتحدث عن مراحل التشريفة المختلفة : وأثناء ذلك يتوالى الضرب القاتل فى كل مكان : على الرقبة على الرأس دون تمييز ، ثم يحضرون لكل منا ـ وقد غدا عاريا وحليقا ـ برشا وبطانية وعليه أن ينام بظهره على الأرض ، وقد وضع البطانيا والبرش على بطنه ويمسك أحدهم باحدى رجليك من ناحية ويمسك آخر بالأخرى ويبدأ السحل حتى العنبر .

كان عبد اللطيف رشدى يسأل : أنت شيوعى يا ابن الكلب ؟ قل أنا امرأة ، والضرب يشتد حتى العنبر .

لقد سحلنا جميعا ما عدا عبد الحميد السحرتى وصنع الله ابراهيم وسعد بهجت وابراهيم المانسترلى كان عليهم توصيات جعلوهم يخلعون ملابسهم وأعطوهم الأبراش والنمر وأجلسوهم القرفصاء ليروا تعذيب كل الآخرين ، كنا جميعا مصابين وكانت هناك أهرامات فى رأس ابراهيم عبد الحليم من ضرب الشوم عليها » (١٤) .

---

(١٤) د. فخرى لبيب : الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ١ ، ص ٤٢٢ ـ ٤٢٥ .

قلنا ان اسماعيل همت أوصى بتركيز الضرب على البعض وبالذات شهدى عطية ولا يتركونه حتى يقول أنا مره .. وهنا سأل أحد الضباط : أين شهدى عطية ؟ فقال شهدى أنا هو ـ فانهالوا عليه ضربا بطريقة مجنونة ، كانوا يغرقونه فى ترعة بجوار الطريق الموازى للسجن ثم يخرجونه من الترعة ليضربوه ، ثم يعيدون اغراقه فى الترعة ثم اخراجه وضربه من جديد .

وتوالى عليه الضباط بالضرب ، بادره حسن منير عندما رآه : انت بقى شهدى عطية عميل علم ، انت شيوعى يا وله ، قول أنا مرة .

فقال شهدى : عيب أسلوبك هذا ، فأنت تسىء الى النظام بهذا التصرف ، نحن قوى وطنية ليست ضد الحكومة ، وحتى لو كنا ضد الحكومة فليس من حقك أن تسلك هذا السلوك الوحشى ، فنحن أصحاب رأى ونحن من أنصار الثورة ، والرئيس جمال نفسه يعلم ذلك .

ولم يطق اللواء همت ورجاله هذا الحوار فأمر همت بصلب شهدى على العروسة ، وتم جلده جلدا وحشيا على غير العادة .

كما أمر حسن منير أن يقلب على ظهره ويضرب على بطنه بشدة ، ويبدو أن شهدى قد انفردوا به فى نهاية الترحيلة .

ثم تسلمه عبد اللطيف رشدى على بوابة الأوردى بعد أن أنهكوه بالضرب والاغراق وتمزيق ملابسه حتى أصبح عاريا تماما .

ـ سأله عبد اللطيف رشدى والضرب مستمر : ما اسمك يا ولد .

ـ أنا مش ولد ٠

ـ اسمك ايه ٠

ـ شهدى عطيه ٠

قال عبد اللطيف رشدى : ارفع صوتك ، فلم يرفع صوته وكرره بنفس النبرة ، وعاد السؤال مرة أخرى ، اسمك ايه ؟ وأجاب شهدى : انت عارف أنا مين ٠

قال له : انت شيوعى ؟ قال شهدى : أنا شيوعى وانت عارف يا عبد اللطيف رشدى أنا مين ٠ قال له : كده يا ابن الكلب ، اضربوه ، قول أنا مره وقال شهدى : أنا شهدى عطيه وانت عارف ٠

قال عبد اللطيف رشدى للعساكر : اضربوه على بطنه على ظهره على جنبه ، علمه ، نقرزه ، شوف يأكل ايه ، وصمد شهدى لكل هذا العذاب فلم يصرخ ولم يتأوه ، ودفعوه ليلف حول العنابر حتى كان فى الطرقة بين عنبرى ٢ ، ٣ أمام نافذة الجدار الذى أقف وراءه داخل عنبر ٣ ، وهنا سمعت صوت جسم يرتطم بالأرض لا يفصل بينى وبينه سوى الجدار ٠٠ قال أحد الجنود لزميله شيله ، فرد عليه ، لا ٠ شيله انت فين التمورجى ثم سمعنا صوت : راح فين التمورجى ابن الكلب ، ثم صوت أقدام تجرى لاحضار التمورجى ثم صوت التمورجى أمين وهو يخبط على جسمه ويقول : قوم يا وله ، خليك جدع يا وله ، قوم يا وله ٠٠ ثم سمعناه يقول يظهر أنه خلاص خلص ٠

جاء مرجان قال للشاويش هوه ماله ؟ اديله حقنه كورامين ٠٠ بعد فترة صمت قال التمورجى : أعطيته يا أفندم كورامين لكن مافيش فايدة ٠

وسمعنا بعض العساكر يقولون انه قد قطع النفس ، وحدث جرى وهرج ومرج وسمعنا صوت البروجى الذى يعنى أن همت قد انصرف ، فتسلق بعض الزملاء من عنبر ٣ النوافذ وأخذوا يسبون العسكر : يا قتلة يا مجرمين وشارك عنبر ٤ فى ذلك ، وأخذوا يصرخون : النيابة النيابة زميلنا قتل يا نيابة .

بدأنا الاتصال بعنبر ٢ من النافذة المجاورة لدورة المياه فى نهاية عنبر ٣ ـ فارتفاع دورة المياه تسهل الاتصال عبر هذه النافذة .. عرفنا أن خمسة من الزملاء سحبوا من العنبر لحالتهم الخطرة وأن شهدى هو الوحيد الذى لم يدخل العنبر ، فأدركنا أنه قتل ، وكان القتلة الضابط عبد اللطيف رشدى والصول مطاوع والسجان عبد السلام .

من خلال النافذة المذكورة شاهدت آثار التعذيب على أجساد الزملاء فقد كشف لى المرحوم الأستاذ سعد عبد اللطيف المحامى والأستاذ محمد عمارة (الدكتور فيما بعد) عن ظهورهما كان لونهما بنى داكن كأنهما قطعة من الكبد من ضربات الشوم والجلد والسحل على الظهر .

مات شهدى ميتة الأبطال ليكون دمه ثمنا لوقف التعذيب ، ولينقذ الأوردى من خطة الابادة ، وليثبت أن طريق الخلاص مضرج بالدماء وصدق أحمد شوقى حين قال :

وللحرية الحمراء باب   بكل يد مضرجة يدق

نقل الجثمان الى احدى الزنازين وعلق عليها حسن منير لافتة مستشفى ، وكتب طبيب الليمان أيضا ـ ملوثا شرف مهنته ـ أنه مات ميتة طبيعية من هبوط فى القلب .

عرف خبر استشهاد شهدى خارج السجن فى نفس اليوم ، فقد تابعت زوجته بسيارتها الخاصة نرحيل القضية من الاسكندرية الى الأوردى ، كان حدسها يتوقع شيئا غير طبيعى ، وانتظرت عند مدخل الليمان الرئيسى لكى تطمئن على زوجها ورفاقه ، ووجدت ضباط السجن يغادرون المكان ، ولاحظت حركة غير عادية ، فبدأت تسأل من يمر بها من الجنود حتى أجابها أحدهم وهو يجهل شخصيتها ، أن أحد المعتقلين واسمه شهدى قتل من الضرب ·· تأكدت من الخبر وأخبرت الأسرة وأصدقاء شهدى فى مصر وخارجها ، وطاردت برقيات الاحتجاج عبد الناصر فى الخارج ·· أرسل اليه والد شهدى برقية وكان بيوغسلافيا ·

كان عبد الناصر فى بريونى يشهد مع تيتو جلسة لمجلس النواب اليوغسلافى ، وفوجىء بالمجلس يقف حداد على استشهاد شهدى عطيه الشافعى ·· أحرج عبد الناصر وهو يتلقى احتجاجا من بعض النواب خاصة وأنه كان يعلن لهم أن مصر فى سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية ستتجه الى نوع من الاشتراكية الديمقراطية ، فقالوا له كيف تتحدث عن الاشتراكية وأنتم تقتلون قادة الاشتراكية فى مصر ؟ فرد الرئيس لم نقتل أحدا ، لم نقتل أحدا ، ومن يخرج على النظام يقدم للقضاء العادل ، فتقدم اليه أحدهم بالبرقية القادمة من مصر والتى تعلن موت شهدى من جراء التعذيب على باب أوردى ليمان أبى زعبل بعد محاكمته بيومين ·

أرسل عبد الناصر برقية عاجلة لوزير الداخلية بوقف التعذيب فى الأوردى وترحيل المعتقلين الى مكان آخر أكثر أمنا ، مع اجراء تحقيق عاجل فى الحادث ·

خيم الصمت على المعتقل وتوقف الخروج الى الجبل ، وأعلنت الأسرة عزاء فى الصحف بدأته بهذه الأبيات التى تصور بطولة شهدى وتدين جلاديه وهى لأبى تمام : فى رثاء أبى حميد الطوسى :

فتى مات بين الضرب والطعن ميتة
تقوم مقام النصر اذ فاته النصر

وما مات حتى مات مضرب سيفه
من الضرب واعتلت عليه القنا السمر

ترى ثياب الموت حمرا فمادجالها
الليل الا وهى من سندس خضر

وأعلنت أكثر اذاعات العالم نبأ استشهاد شهدى ، وأثار مقتله ضجة فى الرأى العام العالمى لما لشهدى من سمعة واسعة كمناضل شيوعى وكاتب مصرى تقدمى .

نزف شهدى دمه وقدم حياته ليفدى بها جميع المعتقلين والمسجونين فى جميع سجون مصر ومعتقلاتها كما نزف المسيح حياته قطرة قطرة ليفدى بها البشرية وكما ظل آل ياسر وبلال يتحملون عذاب الصلب وثقل الحجارة فوق أجسامهم وضربات السياط فى بطحاء مكة دفاعا عن الدين الجديد الذى آمنوا به ، وكما صمد سبارتاكوس فى مواجهة الموت ، والأعداء يدقون جسده بالمسامير فى شجرة على الطريق الرومانى المعروف بطريق الصلبان دفاعا عن قضية تحرير العبيد ، وكما استشهد محمد كريم دفاعا عن مصر .

المسيح . آل ياسر . بلال . سبارتاكوس . محمد كريم . شهدى عطيه .. كلهم حلموا بالعدالة وبالخير والمساواة للبشرية ،

وان كانوا قد فقدوا أجسامهم فقد عاشت أرواحهم وانتشرت مبادئهم وأصبحوا فى ذاكرة البشرية أعلاما خالدة لا تموت أبدا .

وقد سجل الشاعر فؤاد حداد ـ وكان معتقلا معنا بالأوردى ، ملحمة استشهاد شهدى وملحمة التعذيب الذى عانيناه ، وبلغت هذه الملحمة أربعة آلاف بيت كان يحفظها وكان يلقيها شفاهة ، ولم يكن هنـاك ورق ليسجلها وكان بعض المعتقلين يحفظون أجزاء منها ، ولا أعرف هل سجلها بعد ذلك كتابة أم ضاع كثير منها .

وقد بدأها بهذه الآبيات :

١٥ من شهر يونيه سنة ستين ميلادية
كان فجر مش فجر كانت ليلة مقضية
متقدرة بالسنين مش مخلية
من الهموم هم الا ومبيتاه ليه
اتلطمت كل أيامى ولياليه
والغيمة بتعدى لا غاية ولا غيه
مقدرتش استحمل الغيمة المعدية
ما أعرفش هيه حياتى والامش هيه
تشبه طيور الحنين أعناقها ملوية
وأنا عنقى ملوى بفكر فى الحياة ديه
واسترجع الماضى وايامه الرمادية
والدنيا ساكنة كأن الدنيا مطفية

وفى المسـاء بعد أن أغلقت العنابر انعقدت جلسـات تأبين للشهيد تبارى فيها الزملاء خاصـة من عرفوا فضله وزاملوه فى

البعثة الى انجلترا وفى نضاله الطويل فى مصر كرائد فى الحركة الشيوعية ومناضل صلب من أجل الاشتراكية ، وكان من الأوائل الذين حكم عليهم بالأشغال الشاقة سبع سنوات عام ١٩٥٠ قضاها كلها مقيدا بالأغلال الحديدية قبل أن يصدر الأمر بالغائها ٠

وهو من ألمع المثقفين المصريين الذين ناضلوا بالنشاط وبالفكر هجوما على الاستعمار والاقطاع ودفاعا عن الطبقات الشعبية ، مطالبا بالديمقراطية والعدالة الاجتماعية ٠٠ كان يحاضر فى دار الأبحاث العلمية ثلاثة أيام فى الأسبوع منذ عام ١٩٤٦ ولم تتوقف محاضراته حتى قبض عليه ، وقد عمل رئيسا لتحرير مجلة « الجماهير » التى أغلقها الدكتاتور اسماعيل صدقى عام ١٩٤٨ وله عدة مؤلفات من أهمها تاريخ الحركة الوطنية المصرية ، وقد مهد النضال الذى شارك فيه لقيام ثورة ١٩٥٢ ٠

وقد دعا وناضل من أجل الوحدة الوطنية ومواصلة الثورة لطريقها لاستكمال أهدافها الوطنية والاجتماعية ، وحتى عندما قدم للمحاكمة قدم دفاعا سياسيا يؤكد استمرارية هذا النهج ويحذر من قوى الرجعية والاستعمار التى تعمل على تفتيت الوحدة الوطنية والعودة بالبلاد الى سيادة الاستعمار والرجعية تحت ستار معاداة لشيوعية ٠

ولقد كان لشهدى بصمات مضيئة حتى وهو مقيد بالأغلال ، فقد كان له الفضل فى موافقة مصلحة السجون على حق الطالب المسجون فى المذاكرة ودخول الامتحانات أثناء تنفيذ العقوبة للحصول على مؤهلات جامعية مثل الطالب العادى ، وكان سببا فى ادخال الكهرباء لاضاءة الزنازين والعنابر فى كل سجون مصر ، وهو الذى قام باصدار مجلة السجون التى لا زالت تصدر حتى اليوم ٠

كان شهدى يجيد اللغة الانجليزية كأحد أبنائها ــ بشهادة الدكتور لويس عوض فى حفل تأبينه بعنبر ٣ ، ولذا فقد كان أول مفتش مصرى للغة الانجليزية فى المدارس المصرية ، وكان الانجليز قبل ذلك يحتكرون هذه الوظيفة ، ولاتقانه للغة الانجليزية اتسع نشاط دار الترجمة التى أنشأها بالزمالك ٠

كان شهدى فارع الطول وذا عظم عريض ، شامخ الرأس ، تدل ملامحه على الثقة بالنفس وقوة الاعتزاز بها ٠

مات متأثرا بضربات فى الجمجمة وتمزيق لعدد كبير من أعضاء الجسم الداخلية ٠

وفى رثــاء الدكتور عبــد العظيم أنيس لشهدى نورد هذه الآبيــات :

صورتك على عينى ٠٠ عين ثانية بشوف بيها
الجن والسجان وأيام بآسيها
وكل شومة فى ايد سجان آلاقيها
أهم وأجرى ورا السجان استفسر
عن دم واقف على شومته يقول باصرار
شيوعى ؟ طبعا شيوعى

ورثاه الدكتور رءوف نظمى ومن هذا الرثاء هذه الآبيات :

المكان أوردى الليمان ... بين المزارع والصخور
والزمن لحظــة محن ... الشمس خايفة تشع نور
والبطل آه على البطل ... له فى البطولة تملى دور

دخل البطل ولا فيش بطل زيك يا شهدى فى ده النهار
فوق الخشب صلبك عجب والجلد فوق اللحم نار
ولا قلتش آه
زعق اللوا انطق ولد أو تنجلد آو نبعتك
تلحق فريد ترقد معـاه

ومحسن الخياط وهو بالواحات حين سمع بموت شهدى ارتجل هذه القصيدة :

مستقتلين ولا عمرنا نرمى السلاح من يدنا
مستموتين ، نضحك لأيام الجراح اللى ارتوت من دمنا
واحنا كده ·· من صنع أوجاع الجياع المحرومين من شعبنا
واحنا كده من صنع أهوال النضال عد السنين من عمرنا
نبذر حياتنا على الطريق
ترويها أيام الضنا
تطرح هنا ·· لا جلادين ·· ولا سفاحين
حيغيروا طعم الكفاح من بقنا
طعمه جميل ·· زيك يا نيل
والشمس رامية شعرها وراء ضهرها
زى الغدير اللى انسكب منه الدهب
وانت تسيل ، وانت يا نيل
تاخد وتدى آرضنا (١٥)

---

(١٥) د· فتحى عبد الفتاح : شيوعيون وناصريون ، ص ١٣١ ·

الأوردى بعد مقتل شهدى :

أبلغت أسرة شهدى أكثر من نيابة لمباشرة التحقيق فى الحادث وقبل مرور ٢٤ ساعة كانت عدة نيابات قد حضرت للأوردى وتوقف التعذيب ٠

حاولت ادارة المعتقل التعتيم على حضور النيابة ومنع المعتقلين من الحديث معها والادلاء باقوالهم ٠٠ كان ضباط السجن يحاولون تضليل الزائرين حتى لا يعثروا على من يدلهم على الحقيقة ويرشدهم الى زملاء الشهيد شهدى الذين حضروا وعذبوا معه ٠

ولكننا بعد يوم من الحادث ، ولم نكن قد خرجنا الى الجبل لليوم الثانى أحسسنا بحركة غير عادية فى السجن ، فقد فوجئنا بصوت خارج العنبر يقول : فيه ابه هنا ؟ واجابة : ما فيش حاجة يا بيه ، ثم صوت يقول : وهوه وقع فين ؟ والاجابة وقع هنا يا بيه ٠

وهنا تنبهنا وأخذنا ندق على باب عنبر ٣ ونصيح : هنا مذبحة ٠٠ هنا جريمة هنا قتل شهدى عطيه ، وتسلق الزميل صبحى رياض عضو الحزب الشيوعى المصرى (حدتو) نافذة عنبر ٣ المطلة على عنبر ٤ والطريق الممتد أمامهما حيث كانت النيابة تسأل ، شعر بحيرة الزائرين ومحاولة التضليل من ادارة السجن حتى لا يعثروا على أحد وصرخ : هنا قتل شهدى عطيه وبقية زملائه فى عنبر ٢ كلهم مصابون ومضرجون بدمائهم وفى حالة خطرة ، ولدينا كلام نريد الادلاء به لصالح التحقيق ، ونحن مستعدون للشهادة وبدأ عنبر ٤ يخبط هو أيضا على الباب ٠

سمعنا صوتا يقول : افتح هنا ، وفتح باب عنبر ٣ ليسأل نفس الصوت : مين كان بيتكلم هنا ؟ كان صاحب الصوت هو رئيس النيابة المكلف بالتحقيق طبقا لأوامر جمال عبد الناصر فى مقتل

شهدى عطيه ــ تقدم صبحى رياض ، وكنا ــ عدد من الزملاء ــ معه ، قلنا ان هناك فى عنبر ٢ المجاور لنا مباشرة معتقلين هم زملاء شهدى عطيه والذين حضروا معه وعذبوا بينما قتل شهدى ، ونحن مستعدون للشهادة ٠

ذهب رئيس النيابة ومعه عدد آخر وأمر بفتح عنبر ٢ ، وعندما فتح هاله ما رأى لقد رأى أجسادا هدها التعذيب وأقعدها عن الحركة تنزف جراحها وتئن من الآلم ، كشفوا عن ظهورهم فاذا هى قاتمة الحمرة تتقاطع عليها ضربات الشوم وسياط الجلد وتترك بصماتها المتورمة والملونة بلون الكبد ورأى الرءوس والأذرع والأرجل وقد حدثت بها الكسور ، والكدمات ، كان المنظر مبكيا يثير الآسى ويشد التعاطف ٠

كان الزائرون رؤساء ووكلاء نيابة حضروا للتحقيق ٠

وهنا بدأ التحقيق يتصاعد وأودعوا الجرحى المستشفيات ، ...ات التهم تلتف حول مجرمى التعذيب ومحترفيه ، وبدأت واجهات والاعترافات وتوجيه الاتهامات ، وتحول الذين استأسدوا علينا الى بغات [طائر هزيل ضعيف] وبعد أن كان البغات بأرضنا يستنسر عادوا الى أصولهم الدنيئة يرمون بالتهمة على أوامر رؤسائهم وسادتهم أو يكسرون سواعدهم ويضمدونها ويدعون أمام النيابة أن شهدى اعتدى عليهم ومات فى المعركة التى اصطنعها ، ودافعنا عيها عن أنفسنا كما فعل حسن منير قائد المعتقل ٠

ويصف الأستاذ محمد يوسف الجندى ما حدث :

فى اليوم التالى (للمذبحة) فتح العنبر فجأة ، ودخل من يسأل : « من فيكم كان مع شهدى فى عربة الترحيلة »كان السائل هو رئيس النيابة ، لم أستطع تبينه جيدا ، كنت قد فقدت نظارتى

أثناء الجرى والسحل ، ولم أعد أرى جيدا ، وكان رئيس النيابة كما عرفت فيما بعد هو زوج أختى ، هو عرفنى ، لكننى لم أتبينه أو أتعرف عليه ٠

قلنا ــ ردا على سؤاله ــ كلنا كنا معه ، فى هذه اللحظة تأكدنا أن شهدى قد مات ٠

بدأ تحقيق النيـابة ، وكان الضابط يونس مرعى ما يزال يدخل العنبر وينادى « يا ولد » ، حاول عندما بدأت النيابة عملية عرض للضباط الذين شاركوا فى هذا التعذيب أن يدفع الزملاء الذين لم يضربوا الى الشهادة بأقوال مخالفة ، الا أنهم قالوا نفس الكلام الذى قلناه ، قلنا كل شىء ، وأخرجنا الضباط فى عمليـة العرض القانونية وتعرفنا عليهم ، ظللنا فى « أبو زعبل » أسبوعا ، ثم نقلنا الى سجن القناطر رجال » (١٦) ٠

طلبت النيابة رؤية الذين سمعوا عبد اللطيف رشدى وهو يعطى أوامره بالجرى وضرب شهدى ، وتم عرض قانونى لعشرة أشخاص من بينهم عبد اللطيف رشدى يرددون نفس الكلام ، وكان وكيل النيابة يسأل الشاهد عن صاحب الصوت الذى كان يصدر الأوامر ، وتعرف الزملاء فى كل مرة على عبد اللطيف رشدى الذى حاول مرارا التقرب من بعض المعتقلين وتبرير سلوكه الاجرامى بهدف الافلات من قبضة العدالة ٠

أما حسن منير فانه عندما أحس بأن الخناق يضيق عليه عمد الى تحطيم ساعده بآلة ثقيلة وضمد ساعده بالجبس مدعيـا أن شهدى حاول الاعتداء عليه وأنه اضطر للدفاع عن نفسه فسقط شهدى قتيلا خلال المعركة التى تمرد فيها ٠

---

(١٦) د٠ فخرى لبيب : الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ١ ، ص ٤٢٦ ٠

توقف التحقيق وصمتت النيابة وأحيل همت الى المعاش ونقل حسن منير لمصلحة الحدود وعبد اللطيف رشدى للصعيد ، وهناك قتل وقيدت حادثة قتله ضد مجهول ، وتوفى الصول مطاوع مشلولا ، وقتل ابن الشاويش عبد السلام ووحيده فى حادث سيارة ٠

وعندما صدر قرار العفو الشامل من عبد الناصر ثار المصيلحى فنقل بعيدا عن المباحث العامة ٠

توقف التعذيب فى الأوردى ، ولكن الثمن كان غاليا ــ لقد مات شهدى ففدى بموته مئات بل آلاف المعتقلين من محنة التعذيب فى كل سجون مصر ومعتقلاتها ٠٠ كانت الفضيحة عالمية ٠

بعد موت شهدى بدأت مراسم التعذيب تتفكك ، فالنمر لا تلف فى الصباح كما كان يحدث بل تركنا محتوياتها متناثرة ، ورفضنا أن نلف للتفتيش ــ عندما طلبوا منا ذلك ــ ووقفنا أمام السجانة والضباط وجها لوجه فى تحد ، والخروج من العنبر لا يتم جريا مثلما كان ، وفى الطوابير لا نتحرك فلا نستجيب للنداء عندما يعلو « يمين در شمال در » ، كنا نتحدث معا ونتلفت حولنا ، وفى الجبل لم ننفذ المقطوعية ، كنا نسير اليه فى مشية حزينة ، تحلل الضبط والربط ، أدركت الادارة أن الأمر قد خرج من يدها ٠

كان عبد اللطيف رشدى يشعر بالحرج والعجز فيتصبب عرقا محاولا تفادى حرجه بالانشغال عنا بأى شىء ، لذلك ألغيت الطوابير ، ولم يبق سوى طابور اليمك ٠

وأوقف التعذيب ، ولم يعد نزول الجبل تكديرا ٠

بعد أسبوع من استشهاد شهدى آى فى يوم ٢٢ يونيو١٩٦٠ زارنا مدير الليمان وفى يده خيزرانة وقال : أنتم رجال ، لقد أثبتم أنكم شجعان ما فات مات ، نحن أبناء اليوم ومنذ اليوم أمرت بألا يكون هناك ضرب ، طلباتكم سوف تجاب مطلبا مطلبا ، وكسر الخيزرانة على رجله ثم قال : من اليوم لا ضرب ولا شتيمة ٠

وجاء مدير مصلحة السجون ووكيلها وصرح بالتعامل مع الكانتين فى حدود جنيهين للفرد ، ونقل طاقم السجن ، وجاءت الأوراق والأقلام مع الادارة الجديدة ، واستمر الجبل فترة دون تكسير ، ثم أوقف الخروج اليه ٠

الصمود :

تمثل الصمود أساسا فى قوة التحمل والصبر على آلام التعذيب وروح التحدى التى أطلقت فى الانسان المناضل قواه الكامنة الهائلة التى تغلبت على العذاب والأمراض والجوع والعمل الشاق المضنى ٠٠ كانت مقاومة فردية أغلبها سلبى ، وكل من احتج بالكلام ضوعف له التعذيب ٠٠ ومن مأثورات حسن منير قائده المعتقل أننا سنضربكم ، ان نفذتم التعليمات ضربناكم ، وان لم تنفذوها ضربناكم ٠

وقال حسن منير لعبد المنعم شتلة حين احتج على الضرب : « انت بتحتج على الضرب يا شتلة ؟ احنا بنشغلكم علشان نضربكم ، الهدف مش الشغل يا شتلة ٠٠ الهدف هو الضرب ٠٠ ولن نوقف الضرب ٠٠ لسه برضه بتحتج يا شتلة ؟ فقال : نعم مازلت أحتج ، فضربوه على رجليه خمسين شومة ٠

ولكن كانت هناك بعض صور المقاومة الجماعية التى تتم فى العنابر ليلا بعيدا عن أعين الادارة لرفع معنويات الزملاء ، كان هناك الحد الأدنى من العمل التنظيمى الذى يحافظ على تماسك الأعضاء داخل كل عنبر على حدة وبين العنابر فى لقاءات خاطفة فى الجبل ، فرغم الضرب المتواصل والجو العصيب كنا ننتهز الفرصة فى الجبل لنتبادل مع زملائنا فى العنابر الأخرى الأخبار والتعليمات ، ونتسقط المعلومات ونشد من أزر بعضنا ، وفى العنابر كان هناك العمل السياسى والثقافى الذى اتخذ صورة مجلة هوائية أو الاستماع للأخبار النادرة التى نلتقطها من هنا أو هناك من الايراد الجديد أو من بعض العساكر أو مقال أو محاضرة أو اجتماع أو حكاية قصة أو مسرحية أو ندوة ثقافية أو حفلة ترفيهية ، حتى الضحك والسخرية كان نوعا من المقاومة ، كما كان هناك حوار فكرى بين التنظيمات المختلفة حول الرؤى السياسية المتباينة وكان هناك صراع فكرى داخل التنظيم الواحد ، كما حدث بين ع٠ ف والراية فى تنظيمهم ٠

حين صدر فى فبراير ١٩٦٠ تأميم بنك مصر تصاعد الصراع بين الخطوط السياسية المختلفة ٠

كان هذا النشاط يرفع من وعى المعتقلين ويقوى معنوياتهم ويمتن الروابط بين الأعضاء فى التنظيم الواحد ، ونعلو به على المحنة ونجتاز الغمة ٠٠ كانت مواقف الصمود من البعض منا تشد العزائم وتقوى روح المقاومة والتحدى ٠

كان ضباط السجن يحلو لهم من خلال تعذيبهم لبعض الضعاف أن يسمعوا صرخات الاستغاثة ، وكان هذا الضعف يشجعهم على المزيد من التعذيب ، كان الضعيف أحمق التصرف لأن ضعفه يزيده

تعذيبا حتى يروعون به ويخيفون سواه ، غير أن صمود البعض وتحمله المتعذيب يضايقهم ويدفعهم الى تقصير مداه حتى لا يشيع به روح العصيان والمقاومة فيكفون عنه ، ضربوا الدكتور عبد العظيم أنيس على رجليه فى فناء السجن أمام المعتقلين فى طابور الصباح وعبروا عن شماتتهم فى ضربه فرد عليهم بقوله « اللى يلعب الدح ما يقولش أح » فأدركوا أن صموده قد يشجع غيره فتركوه ٠

كان المعتقل يضم نوعيات مختلفة من المعتقلين ، فهناك مستقلون لم يرتبطوا بأى تنظيم ، وهناك متعاطفون مع هذا التنظيم أو ذاك ، ثم هناك أعضاء منظمون داخل الحزب الشيوعى المصرى (حدتو) وكان هؤلاء يمثلون أقلية بين المنظمين ، ولم تكن قيادتهم المركزية أو أى فرد منها موجودة بالأوردى قبل مجىء قضية شهدى عطية ، بينما كانت غالبية المنظمين ينتمون للحزب الشيوعى المصرى (ع٠ ف ـ والراية وبقية الموحد) وكانت لجنتهم المركزية ومكتبهم السياسى وأغلب كوادرهم موجودين بالأوردى ٠

كانوا يطلقون علينا المنقسمين ، وكنا نصفهم بالتكتيل ٠

كانت أى مقاومة جادة منوطة بقرار قيادة المجموعة الأخيرة باعتبارها الأغلبية ، ولكنها تقاعست عن المقاومة ، وبررت ذلك برغبتها فى عدم تعريض الزملاء لمستوى من التعذيب الجسمانى قد يؤدى الى انهيارهم ، أى عدم المغامرة التى يمكن أن تؤدى الى الموت ٠

لقد افتتح الأوردى بهذه القيادة التى جرب عليها التعذيب واستقبلوها استقبالا حافلا فى ٨ نوفمبر ١٩٥٩ ونجحت التجربة ولم تواجه بمقاومة ، مما أغرى الجلادين على استمرار التعذيب وتصعيده ٠

كما أن هذه القيادة ــ وقد جربت الاستقبال الحافل بالمعاناة وكانت لديها فرصة للتفكير والتدبير فى خطط مواجهة التعذيب ـ لم يرتفع لها صوت واحد بالاحتجاج على ما جرى للرفاق الذين وصلوا من الفيوم بعد ذلك بيومين ، ووقع الاعتداء البشع عليهم .

يقول نبيل صبحى : « لم تستجب القيادة للأسف الشديد لأى مطلب ، بل رفضت رفضا صريحا أى موقف بحجة أن الظرف غير مناسب ، وأن حركة تمرد يمكن أن تؤدى الى مجزرة تذهب ضحيتها خيرة عناصر الحزب ، وحيث أن الكوادر الأساسية معتقلة فان ذلك سوف يؤثر على مسار الحزب لسنوات طويلة .

ولم يصدر عن القيادة الحزبية أى احتجاج فى مواجهة السخرة أو التعذيب أو التنكيل أو مقتل فريد حداد .. ثم تصاعد الارهاب » .

لقد سيطر الخوف على هذه القيادة فكان أن سرى الخوف الى المعتقل كله .

وحاول حلمى ياسين أن يبرر تقاعس القيادة عن مساندة دفعات الفيوم بقوله : لماذا لم يرتفع صوت واحد ممن حضروا من الفيوم بالاحتجاج على ما جرى لهم ؟ حقيقة كانت القيادة خائفة ، الا أنه يجب أن نعرف أنها كانت حالة عامة سادت المعتقل كله .

كان طبيعيا وقد تقاعست القيادة أن يضعف الالتزام بالتساند فى مواجهة الارهاب رغم التكليف الحزبى ، ففى يوم الأربعاء الدامى تعرض عنبر واحد لتعذيب مضاعف فطلب من بقية العنابر مساندته بأخذ موقف احتجاج ، ولكنهم ردوا بأن أخذ أى موقف سوف يكون أعلى من مستوى العنبر لأنها عنابر مختلطة يصعب الزامها بأى موقف ، فشدوا حيلكم يا زملاء (١٧) !

---

(١٧) د. فخرى لبيب . الشيوعيون وعبد الناصر ، جـ ٢ ص ٩١ ، ٩٣ ، ٩٥ .

ويلجأ الدكتور فؤاد مرسى أيضا الى تبرير ضعف موقف القيادة (الراية و ع. ف) وكان هو المسئول الأول فيها فيقول :

« استولى على أن هذا المعسكر انما هو معسكر تعذيب ، مثل أى معسكر تعذيب وجد فى ظل النازى ، وأن الغرض منه الا يخرج الشيوعيون منه أحياء سالمين ، فكان تفكيرى هو كيف أخرج بهؤلاء الكوادر أحياء الى مصر ، وبالتالى استقر عندى أن نقبل قدرا معينا من التعامل مع هؤلاء الناس ، ولا نجابه بالرفض الكامل الذى كان يعنى الاستمرار فى التعذيب حتى يسقط النـاس الواحد بعد الآخر موتى أمامنـا ، نقبل قدرا معينـا ونرفض قدرا آخر لكن لا آخذ موقف الرفض الكامل الذى يمكن أن يؤدى الى ابادة عدد كبير خاصة وأن المجموعة التى كانت معى هى المكتب السياسى واللجنة المركزية والكوادر الأساسية ، وهم قضية ال ٦٤ من هنا يمكن الحكم على هذه الفلسفة ذاتها لا فى تفاصيلها » .

ويعترف الدكتور فؤاد مرسى بأن الخط لم يكن خط مقاومة ، بل تكتيكات متنوعة الغرض منها ألا تحل بالمعسكر خسائر فادحة فى أرواح الناس ، مع محاولة تخير معارك معينة نؤدى فيها الدور الذى يرفع الروح المعنوية ويعوض الجزء الذى حدث فيه تنازل ، لكن أن يكون خط مقاومة فان ذلك كان خاطئا .

وأضاف الدكتور فؤاد نقطة أخرى كان لها أثرها من وجهة نظره فى عدم اتخاذ خط مقاومة وهى مسألة العزلة عن الخارج فيقول :

« كنت أشعر أننا مقطوعون عن العالم ، وهذه نقطة أساسية ، مقطوعون حتى عن زيـارة الأهـل ، الزيـارة التى تمت لى كانت اسـتثناء بسبب وجود اشاعة فى العـالم أننى قد مت أو أصيبت

بالعمى ، هنا فكرة أن يكون هنالك صدى لما نفعله فى الخارج ، وان ما فى الخارج يمكن أن ينعكس علينا ، وأنه يمكننا ابلاغ الخارج بما يحدث لنا ، كل ذلك لم يكن موجودا ، وكان ذلك أمرا سيئا ، كنا نحس العزلة وأنه يمكن ابادة كل الناس دون أن يرفع أحد فى القاهرة أو الاسكندرية اصبعه احتجاجا على ما تم ٠٠ أقول لك اننى لم أكن أتبين نهاية لهذا الذى يجرى ٠٠٠ لم يكن هنالك من يعلم عنا شيئا ٠٠ لقد ألقوا بنا فى جب ، ولم يعد أحد يعلم عنا شيئا » (١٨) ٠

لكننا نستطيع أن نقول : لقد كانت هناك فرص لكى يعرف العالم ماذا يحدث من تعذيب فى أوردى ليمان أبى زعبل ، ولكنها لم تستغل ، لقد تمت زيارة للدكتور فؤاد مرسى من أهله وكذلك الدكتور اسماعيل صبرى ، وكان ذلك قبل استشهاد شهدى ٠

لذلك لم يكن غريبا أن يتساءل فاروق ثابت ــ وقد وصل الى الأوردى مع مجموعة من الرفاق بعد مقتل شهدى يقول بعد أن وزعت مجموعته على العنابر : « بدأنا نسمع العجب العجاب ، كنت أتفرج على الزملاء وأتساءل فى دهشة ، كيف احتملوا كل ذلك لذى وقع عليهم ، كان شيئا فظيعا ، فظيعا للغاية ، والناس مازالت تضحك وتتكلم ٠٠ لقد نجحوا فى فرض عزلة شديدة على الزملاء ، حتى أن الذين نالوا فرصة الزيارة ، لم يستطيعوا من الرعب أن يقصوا على أهلهم ، ماذا كان يجرى فى الأوردى » ٠

ليس صحيحا ما يقوله الدكتور فؤاد مرسى « بأننا وقفنا الوقفة الكبرى باستشهاد شهدى عطية وأنهم بعد موت شهدى قد

---

(١٨) د٠ فخرى لبيب : الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ٢ ، ص ٩٧ ، ١٠٠ ـ ١٠٣ ٠

قرروا المقـاومة الانتحاريـة أو المسـتميتة ، والتى تفول ليكن ما يكون ونجحت » ٠

يؤكد ذلك ما ذكره نبيل صبحى : « صدرت التعليمات من القيادة الحزبية بالمقاومة ، تقدمنا نحن من عنبر ٣ وكذا تقدم عنبر ٥ وهو عنبر عمالى باقتراح الامتناع عن استلام الطعام ، ورفض الخروج من العنـابر ، رفضـت القيـادة الحزبيـة المركزية هذه المقترحات ، طلبت تأجيلها ، وقيل ان الموقف هو المقاومة السلبية ، بمعنى التباطؤ فى الطوابير والعمل ، وعدم الهتاف بصوت مرتفع ، والحقيقة أن كل ذلك كان أضعف الايمان » (١٩) ٠

لقد تصاعد التعذيب فى الأوردى الى درجة التوحش وتحول الضـباط والسجانـة الى حيوانـات مفترسـة ، انمحت آدميتها وانسانيتها ، وكان على الأوردى أن ينتظر لكى يتوقف التعذيب فيه الى فداء الدم ، الى تضحية فى حجم تضحية شهدى ، والى ضجة عالميـة واحتجـاج غاضب يهز أركان الأوردى ويقتلع وحشـيته ودمويتـه ٠

كان الفداء هو شـهدى ، كان هو الركن الدافىء لصمودنا وشاطىء الأمان الذى أوقف التعذيب وأنقذ المئات من المعتقلين من التنكيل والابادة والموت البطىء ٠

اننا مدينون له بانقاذ حياتنا ، فقد استشهد لنعيش ٠

لذلك كان لابد من تصفية أوردى ليمان أبى زعبـل ، ولم ينقض عام ١٩٦٠ الا وكان كل المعتقلين فى الأوردى قد رحلوا الى الواحات ، ولم يبق فيه الا قضية الدكتور فؤاد مرسى لانتظار صدور الأحكام فيها ٠

---

(١٩) د٠ فخرى لبيب : الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ٢ ، ص ١٥٨ - ١٥٣ ٠

الفصــل الثــامن

التعــذيب والنفى بالــواحات

الترحيــل الى الواحات :

كانت أول دفعة ترحل للواحات فى ١٥ يوليو عام ١٩٦٠ وكنت ضـــمن هذه الدفعة وبعدها بأســبوع واحد رحلت الدفعة الثــانية ٠

قيدت أيدينــا فى الحجلات ، كل اثنين معا ، كنا نرتدى ملابس السجن البيضاء ونحمل حقائبنا التى استلمنا بقاياها من الأمانات بعد أن أتت الفئران على أكثرها ٠٠٠ شحنا فى السيارات ليلا حتى محطة الجيزة ، وقد أخلوها من الناس ، وفرضوا عليها حصارا محكما ، حتى لا يختلط أحد بنا أو يعلم عنا شيئا ٠٠ كانت عملية ترحيلنا كأنها عمليــة تهريب تتم فى سرية تامة بعيدا عن رؤية الجمهور ٠٠ جاء قطار الصعيد فى الساعة العاشرة مساء وبه ثلاث عربات خالية ، وهى من العربات المخصصة لنقل المواشى ، وبها مخلفات حديثة من روث البهائم ٠٠ جلسنا على أرضية العربة بعد أن أزحنا عنها ما أمكن من هذا الروث ، وتخلص بعض الزملاء ذوى الأيدى النحيفة من كلابش الحجلة ٠٠ من شدة الارهاق نام البعض منا مستندا على أكتاف أو أرجل أو ظهور البعض الآخر ،

نستنشق هواء ملوثا برائحة كريهة ، ونعانى من مطبات السكك الحديدية حيث تخلو العربات من السست ، كما يعانى من بقيت أيديهم فى الحجلات ـ وكنت منهم ـ من تورم معاصمهم واحتقانها ٠

ورغم ذلك فقد كان يخفف من هذه الآلام تلك الرياح المنعشة التى كانت تتسلل الينا وتحمل الى أنوفنا عطر المزارع والحقول الطيبة التى تحيط بنا ٠

بعد رحلة طويلة استمرت عدة ساعات وضع الزملاء الذين تخلصوا من الحجلة أيديهم فيها مرة أخرى ثم نزلنا فى محطة المواصلة التى تقع بعد سوهاج بعشرات الكيلو مترات ، وسط حصار محكم من المباحث والجنود المسلحين ، وانتظرنا هناك ساعة ٠

كانت القطارات القادمة من أسوان أو الذاهبة اليها تتوقف عند المواصلة ، ويثير منظرنا الرث وكثافة الحرس والحصار المضروب حولنا انتباه ركاب هذه القطارات ، كنت أتأمل انفعالاتهم حين تفاجئهم الترحيلة ، كانت الدهشة والتساؤل يرتسم على وجوههم حين تصطدم عيونهم بنا ، كان بعضهم يشيرون والبعض يتهامسون وآخرون فى حالة غيبوبة ٠

ذكرتنا محطة المواصلة ، وتحرك القطارات منها بما حدث فى يونيو عام ١٩٥٩ من مأساة حين رحلت الدفعة الأولى من معتقل عزب الفيوم الى الواحات الخارجة ، كان عددها ٥٩ معتقلا شحنوا الى بنى سويف مقيدين بالحجلات ، وفى بنى سويف ركبوا فى عربة السجن الملحقة بقطار الصعيد وحين وصلوا الى محطة المواصلة بدأوا فى النزول من القطار ، نزلت مجموعة ومازالت أخرى داخل

القطار والكل مربوط بالحجلة ، وبدأ القطار يتحرك ، من في القطار تشبث بموقعه ومن على الأرض أخذ القطار يشدهم على الرصيف ثم الفلنكات والزلط ، وارتفع الصراخ ، ومع تزايد سرعة القطار تزايد خطر أن يشدهم القطار جميعا تحت عجلاته بمن فيهم من كانوا داخله كان منهم عبد الستار الطويلة وعزب شطا وشحاتة النشار وأبو ضيف عبد الجليل وشعبان الحدق وابراهيم مرسى والدكتور رزق عبد المسيح وآخرون .

كان ابراهيم مرسى وأبو ضيف عبد الجليل في أول الطابور وأول من دخل عربة السجن في القطار ، وكان آخر من في السلسلة عبد الستار الطويلة وشعبان الحدق وهم أول من في السلسلة عند النزول .

أسرع المخبرون الذين احتشدوا في المحطة يشدون الزملاء حتى لا ينحشروا في الرصيف ويهرسوا بينه وبين القطار ، الا أن البعض كسرت أيديهم وأرجلهم وهشمت ضلوعهم .

حكى عبد الستار الطويلة ، وكان أقرب المجموعة الى العجلة :

« كانت رأسى تدور بنفس السرعة التى تدور بها عجلة القطار كان مصيرى ومصير الأربعين الآخرين الذين يرتبطون بالسلسلة الواحدة يتوقف على مدى قدرتى في الابتعاد عن عجلة الموت ، وكنت قد سمعت ورأيت في الأفلام أنواع التعذيب في القرون الوسطى حين كانوا يربطون الفلاح الى ذيل حصان جامح أو عربة تجرها مجموعة من الخيول ، ولكن في هذه المرة كان قطارا جامحا .. صورة كلما تخيلتها حتى هذه اللحظة أغمضت عيناى ، ورعدة شاملة تجتاح كل جسدى .

ولقد تدخلت الصـــدفة تماما مثلما فى الأفلام المصرية لكى لا تمضى المأساة الى النهاية ، فقد تنبه خفير فى المزارع المجاورة لما يحدث وأطلق عدة أعيرة نارية ، مرت جوار السائق جعلته ينظر الى الخلف ليرى المأساة وليوقف القطار (٢٠) .

وهناك رواية أخرى تقول ان ضابط الترحيلة « على بلال » أطلق نار مسدسه فتوقف السائق ، وبدأت الترحيلة طريقها الى منفى المحاريق بالواحات .

بعد هذا الاستطراد نعود لترحيلتنا حيث وصلنا الى محطة المواصلة وانتظرنا هناك ساعة ثم ركبنا قطاراً صغيرا من نوع قطار الدلتا مكونا من عدة عربات يجرها وابور ، كانت شبابيك القطار محطمة .. هذا القطار هو الذى سينقلنـــا الى أعماق الصـــحراء الغربية .. الى الواحات الخارجة على بعد مائتين وخمسين كيلو مترا من وادى النيـــل ، حيث اســتقبلت لأول مرة معتقلين شيوعيين عام ١٩٤٧ من ضباط وصولات سلاح الطيران ومنهم سيد سليمان رفاعى وفؤاد حبشى ويوسف مصطفى ومنذ ذلك التاريخ صارت نفى للسياسين .

عنـدما تحرك القطار أخرج بعض الزملاء أيديهم من الحجلة مرة أخرى .. كان الحراس مطمئنين الى أنه وسط هذه الصحراء الشاسعة التى يضل فيها السارى لن يجرؤ أحد على الهرب .

القطار يسير بطيئا كالسلحفاة ويتوقف بعد كل مسـافة ، مما أعطى لنا فرصة لأن نتأمل ـ من خلال النوافذ المحطة ـ مناطق من أرض مصر لم نرها من قبل وهى الصحراء الغربية .

---

(٢٠) د. فتحى عبد الفتاح : شيوعيون وناصريون ، ص ٧١ .

ترك القطار الوادى الأخضر بعد عدة كيلو مترات من محطة المواصلة وبدأ يتوغل داخل الصحراء بين كثبان من الرمال والهضاب .. صحراء مقفرة من الحياة سوى الثعابين والحيات والذئاب والضباع وقد تناثرت هنا وهناك بعض الهياكل العظمية لحيوانات الصحراء ، كما أخذت تفزع وتفر حيوانات أخرى أمام صفارة القطار وحركته .

هذا القطار كان يهتز ويتراقص وينفث دخانا أسود يصب فى عرباته مع ذرات الرمال فتكسو وجوه الرفاق بألوان قاتمة .

صحراء خالية من الزرع ، وان وجد بها واد يسمى بوادى البطيخ ، فليس الاسم على حقيقته ، بل البطيخ عبارة عن حجارة من صوان صلب مستدير الشكل غامق اللون مستقر هناك منذ ملايين السنين .

خلاء واسع موحش وبحار من الرمال وسكون يشبه العدم وأحسست بالضآلة التى تعيشها مصر ، وبقزمية المساحة التى يتزاحم عليها شعبها ، أدركت سبب ما يعانيه من فقر وضيق فى العيش ، وتجاهل حكامه مع تعاقب الزمن للتفكير فى مستقبله وتوسيع وتنويع مجالات الحياة أمامه .

أحسست أمام هذا السكون الغامض بالوحشة والخوف والافلاس وعدمية الحياة ، ورأيت هذا الاحساس مرتسما فى عيون الرفاق — التى بدا عليها الأرهاق — وفى وجوههم التى كستها الرمال بلونها الأصفر ، وفى ألسنتهم التى كفت عن الكلام .

وأخيرا وبعد أكثر من سبع ساعات قطعها القطار منذ غادرنا المواصلة ، وصلنا الى محطة المحاريق ، وكان السجن يبعد عنها

قليلا ــ كان الوقت ليلا ، فلم نتبين معالم عزبة المحاريق ، سرنــا مشيا على الأقدام نغوص في الرمال وكل منا يحمل حاجياته ويشعر بالتعب والارهاق بعد رحلة استمرت ٢٤ ساعة بينما صوت العجلة يرن في آذاننــا ٠

اقتربنا من السجن وسط صفين من العساكر يقفون فى حالة استعداد ٠

دخلنا بوابة السجن كبقايا جيش مهزوم ، هيــاكل بشرية كأنها أشباح أسطورية ، ملابسنا قذرة ٠٠ ذقوننا طويلة ، شعر رأسنا حليق ٠

استقبلنا فريد شنيشن قائد السجن ، لم نسمع كلمة جارحة كما كان معتادا ٠

علمنا أن سعد الشــائه وأحمد البـدينى المحامى ومحمود السعدنى سيعودون فى نفس القطار الى القاهرة تمهيدا للافراج عنهم ، كما علمنا أن الدكتور لويس عوض والدكتور عبد الرازق حسن ــ وهما لا زالا بالأوردى ــ سيرحلان الى سجن القلعة تمهيدا للافراج عنهما ٠

فكوا قيودنا ٠٠ وزعنا على الزنازين التى فرشت بالأبراش والبطاطين كل خمسة فى زنزانة من زنازين عنبر ٢ ٠٠ رحب بنا الزملاء ٠٠ تلاقت الأحضــان ، وكان دفء لقــاء الزملاء يعبر عن مواساتهم لنا عن شهور المحنة التى عشناها فى أوردى ليمان أبى زعبــل ٠

التعريف بسجن جناح :

الواحات الخارجة مناخها قارى ، حرارة الشمس بها أشبه بلهيب الحريق ، حينما تسقط فوق رأسك تكاد تحز عنقك ، وبردها القارص يصل الى تحت الصفر ، وهواؤها يشارك فى نحت الوجوه .

من هنا اتخذتها حكومات الطغيان والاستبداد التى تعاقبت على حكم مصر قبل الثورة منفى لقادة العمل السياسى والفكرى المعارضين لها .

وحتى فى العصر الرومانى تعرض المسيحيون الأوائل فى القرن الميلادى الأول لعسف واضطهاد الحكام الرومانيين وتعقبهم هؤلاء فى الصحراء الغربية عند الواحات الخارجة حتى أحرقوهم فى أحد أخاديدها ، ومازالت هناك بالقرب من سجن المحاريق بعض المقابر والشواهد التي يزورها المسيحيون من حين لآخر احياء لذكراهم .

وقامت ثورة ١٩٥٢ بفتح هذا المنفى من جديد للشيوعيين وللاخوان المسلمين ولبعض المسجونين الجنائيين العاذين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، فأقامت فى منطقة صحراوية جرداء اسمها جناح سجنا من خيام وأحاطته بالأسلاك الشائكة رغم أن المكان لا يسمح لانسان بأن يخاطر بالهرب .

كان من أوائل من شرفوا هذا المكان بعض ضباط وصولات الطيران منهم سيد سليمان رفاعي وفؤاد حبشي ويوسف مصطفى .

وألحق هذا السجن بسجن ليمان طره ، ولكن الحياة فيه تميزت بالبدائية ، فقد ترك نزلاؤه ليدبروا حياتهم بأنفسهم ،

يقيمون مرافق الخدمة فى السجن بما يتناسب مع امكاناتهم وظروف المكان ، لم يكن بالمنطقة ماء ولا كهرباء ولا مطابخ ولا أفران ، وعليهم أن ينقلوا ماءهم فى جرادل من مكان يبعد حوالي خمسة كيلو مترات، الى أن دبروا مد مواسير المياه الى السجن ، فهم يقومون باعداد طعامهم وتجهيز خبزهم ، وبأعمال الزراعة وتربية الطيور والدواجن. وكان على ادارة السجن أن تجلب لهم الدقيق وبعض المواد الغذائية وتقوم بالحراسة الخارجية .

واذا كانت الحاجة هى أم الاختراع فقد فرضت البيئة القارية على الزملاء أن يعملوا أفكارهم ويبدعوا من الأشكال والأدوات ما يستطيعون به مقاومة سلبيات البيئة من خلال مواد البيئة نفسها فاخترع سيد سليمان رفاعي وفاروق عبد السلام نموذجا معماريا جديدا من مواد البيئة ومقاوم لها ، فقد وجدوا الرمال ممزوجة بمواد جيرية وطفلية يمكن أن يتكون منها خلطة بناء جديدة ، فحفروا الأرض الى أعماق تتجاوز المتر والنصف ومن ناتج الحفر صنعوا خلطة ارتفعوا بها حوائط حول الحفرة وبنوا سلالم تقودهم الى قاعها ، وجعلوا فى الحوائط فتحات للتهوية ، وأقاموا فى أرضية هذا البيت من نفس الخلطة دككا ينامون ويجلسون عليها ، ومناضد يلتفون حولها للطعام وغطوا السقف بالبطاطين أو عروق الخشب .

وشكل سعودى مطحنة من صاج البراميل مكتبات ودواليب ، وأرسل الأهالى لهم أدوات الرسم ، فمارس الفنانون : وليم اسحق وداود عزيز وصلاح حافظ وغيرهم هوايتهم ـ بعد أن صنعوا حوامل الرسم ـ فرسموا الجو المحيط بهم من خيام وصحراء وطبيعة برية، كما رسموا صور العديد من الشخصيات بالسجن فى خيمة خصصت للرسم ، وقد عرضت صورة رسمها وليم إسحق فى معرض أقيم

عام ١٩٦٤ وشاهده الكاتب الفرنسي جان بول سارتر ، واعتبرها من أحسن الأعمال المعروضة .

استمر الشيوعيون في سجن جناح ثلاث سنوات ثم تقرر في أغسطس عام ١٩٥٨ اغلاق جناح ونقلهم الى السجن الجديد « المحاريق » وهو سجن مغلق في قلب هذا الجحيم .

ورغم أن الشيوعيين تنقلوا في سجون كثيرة ، كان أكثرها بدائية هو سجن جناح ، غير أنهم لم يشعروا بارتباط بالمكان قدر شعورهم بالارتباط بجناح ، لقد تملكتهم مشاعر انسانية فياضة ولا شك أن سبب هذا هو أنهم في سجن جناح قد صنعوا فيه كل شيء ، خلقوا من هذا المكان الموحش والصحراء الجرداء حركة تنبض بالحياة بجهدهم وعرقهم .. لقد استأنسوا الصحراء التي لم تر الماء منذ آلاف أو ملايين السنين وطوعوها فجادت بالأشجار وأخرجت الثمار والورود والأزهار ومارسوا تحت سمائها أرقى ما يمارسه الانسان : قرأوا وكتبوا .. غنوا ورقصوا .. علموا وتعلموا .. تحاوروا مع أنفسهم ومع الآخرين .. مع الأرض والسماء مع الشجر والزرع والورود والأزهار ، كان الحوار مستمرا يجدد الحياة ويطورها للأفضل .

لقد عز على الزملاء وهم يستعدون للرحيل الى السجن الجديد ، أن تلفظ الحياة أنفاسها الأخيرة في هذا المكان ، فالخيام سقطت في أماكنها في انتظار من ينقلها الى المخازن ، ومخازن الطعام والمخبز والمطبخ أصبحت خاوية ، هربت منها الفئران ، والقطط تجري مذعورة في الأرض الخلاء ، لن تجد ما تقتاته بعد اليوم ، وأشجار الخروع التي زرعوها حول الخيام .. كي يستظلوا بظلها قد جفت أوراقها وتراخت فروعها ، وزهور عباد الشمس أوشكت على الموت بعد أن توقف تدفق الماء الى جذورها .

قبل الرحيل جلس بعض الزملاء الى جوار أمتعتهم يتأملون ، وترك بعضهم أمتعته وجلس الى جوار مزرعته الصغيرة يتأمل ورودها تارة ، يرش عليها الماء تارة أخرى .. سوف تموت هذه الورود بعد قليل ، لكنه حرص على أن يسقيها حتى لا تموت أمامه ، ووليم اسحق « ملك الصحراء » يحتضن أدوات رسمه ويجلس الى جوار خيمته ومسكنه ومرسمه يلقى عليها نظراته الأخيرة قبل أن يرحل عنها (٢١) .

كانت هذه مظاهر لقوة العلاقة التى ربطت الانسان بالمكان — لم يشعروا بالارتباط بالمكان مثلما يشعرون فى ذلك الوقت .

سجن المحاريق :

هذه التسمية « المحاريق » يعزوها البعض الى شدة وقسوة أشعة الشمس فى تلك البقعة التى تحول كل شىء الى لون داكن أو فاحم ، فالرمال والأشجار فى حالة شبه احتراق ، حتى الانسان فى هذه البقعة — صار قزما نحيلا شاحب الوجه به سمرة داكنة من نقص مركبات الكالسيوم والفوسفور المفقود فى ذلك المكان ، ومن قضى من الزملاء مدة طويلة فى هذه البقعة كانوا كالأشباح وجوههم شاحبة وعيونهم غائرة .

الاسم اذن يعبر عن مسمى ، والمكان يعتبر بحق محرقة ، فهو أقرب الى لهيب الحريق .

ولكن هناك من ينسب هذا الاسم الى ما فعله الرومان فى المسيحيين الأوائل الذين هربوا بدينهم الى هذه البقعة ، فقد أحرقوهم فى أحد الأخاديد .

---

(٢١) مصطفى طيبة : رسائل سجين سياسى الى حبيبته ، جـ ٢ ، ص ٥ .

لم يبن هذا السجن على شاكلة سجن جناح المفتوح ، لكنه مكون من عنابر وزنازين وله أسوار وبوابات وأبراج حراسة ، انه سجن مغلق فى قلب هذا اللهيب المحرق .

لم يكن هناك سور فى بداية الأمر للسجن ولا بوابة ، وانما كانت هناك أسلاك شائكة حول السجن بها فتحة للنفاذ منها الى الداخل ، ثم بنى السور والبوابة بعد ذلك .

حين وصلنا اليه من أوردى ليمان أبى زعبل فى ١٥ يوليو ١٩٦٠ كان ذلك قد تم .

يقع السجن وسط صحراء شاسعة وهو يشتمل على ثلاثة عنابر مستطيلة من طابق واحد مرتفع عن الأرض بخمس درجات سلم ، وكل عنبر به عشرون حجرة ، مساحة كل منها ٦ × ٦ تسع الواحدة ما بين ١٢ الى ٢٠ فردا حسب الكثافة فى السجن وكل حجرة بها باب نصفه الأسفل من الحديد المصمت ونصفه الأعلى عبارة عن شراعة بها أسياخ حديدية حتى يتمكن الحارس من رؤية كل شىء فى الزنزانة وللحجرة نافذتان عاليتان مدعمتان بالحديد لا تستطيع أن تطل منهما على الصحراء الواسعة الا اذا حملك آخر . وفى منتصف العنبر يقع الباب وأمامه حجرة الضابط وعلى كل من اليمين واليسار جناح به عشر حجرات ، خمسة فى مواجهة خمسة وبينهما طرقة وفى نهاية كل من جناحى العنبر دورة مياه بها خمسة محلات وبكل محل دش وفى نهاية دورة المياه ثلاثة أحواض لغسيل الوجـه .

وكل جناح له باب من ضلفتين ، وبين بابى الجناحين يجلس السجان بجوار الباب الرئيسى للعنبر .

ويغذى السجن ومرافقه ومساكن الضباط وخيام السجانة بمياه من الماكينة المقامة على احدى العيون ٠

كانت جدران العنابر من الحجر الجيرى ذى القدرة الخاصة على امتصاص حرارة الشمس ، وسقوفها وأرضياتها من الأسمنت المسلح ، ويتميز بقدرته على الاحتفاظ بحرارة الشمس فترة طويلة، وتشع علينا الجدران والسقف حرارة الشمس التى امتصتها طول النهار تلسع وجوهنا ثم الجزء الأعلى من أجسامنا العارية ، والعرق يتصبب دون توقف ، حتى الهواء الذى يصل الينا من النافذتين العاليتين ، وكأنه مر على جهنم قبل أن يأتى الينا ٠

كان المسجونون الشيوعيون يسكنون عنبر واحد والاخوان المسلمون يشغلون عنبر ثلاثة أما المعتقلون من الشيوعيين فيشغلون عنبر اثنين ٠

كان أهل الواحات يطلقون على هذا السجن اسم السرايات وعلى المسجونين فيه سكان السرايات ٠

نقل المسجونون معهم من جناح « كل كتبهم والأعمال الفنية الزيتية أو المصنوعة بالرصاص وغيرها وأودع كل هذا فى مرسم أقيم فى ركن من أركان حوش السجن الجديد ٠

زار مدير مصلحة السجون سجن المحاريق وخرج غاضبا بحجة أن السجن نموذج للفوضى وتوعد بارسال اسماعيل همت وفرقته ليضع الأمور فى نصابها ، وفعلا جاء همت وجمع كل هذا وأشعل فيه النيران ٠

رغم وحشة الصحراء ومرارتها وحرارة الشمس التى تكوى الجسد ، وصقيع الليالى الطويلة المجهدة ، ورغم احساس الانسان بأن الدنيا قد نسته وتخلت عنه - غير أن لهذا السجن ميزة فى فترات التعذيب لا تتوفر للسجون الأخرى ، فبعده عن مركز السلطة وعيونها المباشرة واحساس الضباط والحراس بالنفى والعزلة والبعد عن الأهل ومباهج الحياة بالمدينة ونعيمها وأضوائها وحياتها المتجددة ، والشعور بالتقشف والاحساس بجفوة الصحراء وخشونتها جعلهم يشعرون بالظلم والاجحاف الواقع عليهم ، وقد فرض هذا عليهم أن يقبلوا نوعا من الحياة فيها التعايش مع السجناء والمعتقلين ، لأنهم اذ حدث لهم طارئ فقد لا يسعفهم سوى هؤلاء المعتقلين والمسجونين ، لذلك كان الضباط لديهم نوع من التحرر من سلطة قيادتهم المركزية ومن سلطة المباحث العامة ، فتصرفوا ببساطة وأحيانا بتآخ مع المساجين الذين يعيشون معهم نفس الحياة ، ويشتركون تقريبا فى نفس الطعام ونفس البعد عن الأهل والنفى من الوطن والكراهية لمن أرسلوهم الى هذا المكان السحيق ، كما كان هناك الاحساس بالخطر المشترك من الحيات الخطرة والعقارب ٠

يؤكد كل هذا أن حملات التعذيب التى كان يأتى اليها اسماعيل همت من القاهرة ليشرف على ارادتها كانت موقوتة بوجوده ، وتتوقف حميتها بمجرد مغادرته ٠

لم يكن الضباط والعساكر متحمسين لمثل هذه الأعمال القذرة والوحشية ، كان العساكر والشاويشية يعتذرون فى اليوم التالى عما حدث منهم من ضرب ، وقد أقسم أحدهم بالطلاق أنه لن يقوم بضرب أحد مرة ثانية ، حتى لو كان الوزير هو نفسه الذى يأمره ٠

كان هناك احساس مشترك بالغربة وبالخطر ، فقد كان أول ضحية من لدغة الطريشة من العساكر مما عمق الاحساس بالسخط ، وانهارت الحواجز بين المعتقلين والعساكر .

من هنا خلقت الظروف مساحة من التعاطف بين صفوف ادارة السجن مع المعتقلين مما خفف من خشونة المعاملة .

تطور المعاملة داخل السجن قبل وصولنا :

بعد أن قام همت باحراق الكتب والملابس تغيرت ادارة السجن ، جاء ضباط جدد ومأمور عصبي ومتزمت أغلق الزنازين وألغى طوابير الفسحة وضيق على المساجين ، ولكن سريعا بدأت القبضة تتراخى ، وكان الفن هو طريق الانفراج .

فقد عرض وليم اسحق احدى فازاته على مأمور السجن ، وتنبهه الى وجود طينة نادرة حول السجن يمكن صناعة أوان وفازات فاخرة منها ، فسمح لهم باحضار الطين وتخصيص غرفة للعمل بها وعمل حوض لعجن الطفلة واعدادها ، وبناء فرن لحرق المنتج من الخزف ، وبدأ الزوار يتوافدون لمشاهدة المنتجات ، ووافق المأمور على تخصيص حجرة للرسم ، وانضم بعض الزملاء الى ورشة السيارات للقيام بأعمال الصيانة والاصلاح ، وكان هذا يعد انفراجة فى حياة السجن .

ثم جاءت الدفعات الجديدة من المعتقلين فى مارس ١٩٥٩ وهى الدفعة التى قبض عليها فى أول يناير ١٩٥٩ واستقبلها همت دون ضرب ، ولكن بدأ التضييق على السجن .

احتل المعتقلون القادمون نصف عنبر واحد. بينما يحتل السجناء الشيوعيون النصف الآخر ، وكان فى الامكان الالتقاء فيما بينهم .

كانت زنازين المعتقلين خاوية ليس بها سوى جردلين أحدهما للشرب والآخر للبول ، وكانت الزنازين تفتح فقط فى الصباح وفى المساء لقضاء الحاجة فى دورة المياه . كما كان المعتقلون يخرجون لطابورى الصباح والمساء ولم يتجاوز كلاهما نصف الساعة ، ولم تتخذ الادارة موقفا معاديا من المعتقلين غير أن الطعام كان شديد السوء .

كان الوضع فى سجن المحاريق عجيبا ، حيث توجد ازدواجية فى الاشراف على هذا السجن ، فالسجن يتبع مصلحة السجون غير أن المعتقلين فيه يخضعون للمباحث العامة .

وحين قررت المباحث العامة وأجهزة القمع تصعيد سياسة التعذيب والانهاك لتحقيق التصفية السياسية والفكرية للشيوعيين ، بدأت هذه السياسة بأوردى ليمان أبى زعبل بشكل وحشى لا مثيل له وامتدت هذه السياسة الى سجن المحاريق بالواحات الخارجة ، ولكن بدرجة أقل نوعا ما نظرا لظروفه التى سبق توضيحها .

كان اسماعيل همت وزرقنه يتنقل بين السجنين متحمسا لهذه المهمة حيث يجد فيها نفسه علة يشفى من خلالها أمراضه المستعصية .. كانت قمة التعذيب وحميته فى الواحات تقترن بساعات وجوده ، وتخف أو تتلاشى برحيله — كان السجانة يتنفسون الصعداء برحيله ، ويجدون فى بعده راحة لهم ، ولذلك سرعان ما تعود اليهم مشاعرهم المشتركة مع المعتقلين .

في يوم ٨ نوفمبر ١٩٥٩ بدأ تطبيق سياسة تصعيد التعذيب في سجن المحاريق ، وصل همت وفرقته ·· امتلأ السجن بالعسكر والكل مسلح بالبنادق والعصى والكرابيج وجريد النخيل ·· طلقات رصاص ، أقدام تجرى وتهرول تختلط أصواتها بوقع أقدام الخيل التى تصول وتجول فى فناء السجن وبين العنابر ·

صدرت الأوامر بأن يجمع كل معتقل حاجياته ويستعد ، وفجأة اتخذ السجانة سمتا متجهما خشنا فى التعامل ، وأصبح الصوت الوحيد الذى تدوى أصداؤه فى طرقة العنبر هو صوت أحذيتهم الثقيلة ، وتسلح كل منهم بالشوم أو جريد النخل ، وتصاعد صوت ضابط العنبر بأوامر صارمة تطلب النظام والسرعة وعدم الكلام أو الحركة ·

أخرج الجميع من عنبر واحد الذى كانوا يسكنونه مع المسجونين ، وكل يحمل حاجياته ، وتجمعوا أمام هذا العنبر ·· فرض على الجميع أن يجلسوا القرفصاء ووجوههم الى الأرض ، وحولهم احتشد عدد كبير من الحراس والسجانة المسلحين بكل أنواع الأسلحة ومعهم فرقة اسماعيل همت ، ومن حاول أن يرفع رأسه فوجىء بضربة من حذاء أو شوم على رقبته فتخر رأسه الى الأرض ··

أدخل الجميع الى عنبر اثنين ، ثم بدأوا يخرجونهم على دفعات ، كل دفعة مكونة من ستة من الزملاء يتبعهم مجموعة من العساكر بالبنادق والشوم تحثهم ــ بالضرب والسباب والشتائم البذيئة ــ على الجرى وسط صفين من الجنود الذين يتناولونهم أيضا بالضرب والسب ·

ويسمع باقى من بالعنبر الذين ينتظرون دورهم صرخات السجانة والجنود تدوى ·· اجر ·· اجر ·· اجر ·· اركع ··

اركع ٠٠ اركع ، وصراخ يعلو : اسمك ايه يا كلب ، اسمك ايه يا ابن القحبة ٠

ويستمر طابور الجرى والمطاردة والضرب ، والويل لمن ينعثر ، فانه يلاقى ضربا مضاعفا ، وتتواصل المطاردة حتى خارج بوابة السجن ، حيث يجلس همت على منصة عالية وحوله المأمور وبعض الضباط وهنا يواجه الزميل بمن يمزق ملابسه ويأمره بخلعها مع وقع ضربات الشوم والجريد على كل جزء من جسمه ويصبح الزميل عاريا تماما مطالبا بالركوع أمام الحلاق لحلاقة شعره ثم استلام ملابس السجن . الطويلة .. القصيرة ، الواسعة الضيقة .. كل ونصيبه ٠٠ ثم اسمك ايه يا ولد ٠٠ اسمك ايه يا كلب ٠٠٠

كل هذه مراسم تتم مع الضرب والشتائم المقذعة ، ومن تبدو منه شبهة احتجاج ضوعف له الضرب وجلد على العروسة كما حدث لفخرى لبيب الذى أشرف على الموت من التعذيب ٠

جمع همت بعض حاجيات المعتقلين وأشعل فيها النيران ٠

ورغم أن الصاغ الدكتور محمود القويسنى يعرف همت ويعرف نقاط ضعفه ، ويعرفه همت جيدا ــ وقد توسل له همت ــ كما سبقت الاشارة الى ذلك ــ لأعادته الى الجيش بعد فصله رغم ذلك بدأ همت يمارس هوايته المفضلة مع الرجال الغرايا ٠

أشار الى الدكتور القويسى : اسمك ايه ياولد ــ الصاغ دكتور محمود القويسنى ــ صاغ ايه ودكتور ايه يا ابن القحبة ــ اسمك ايه يا ولد ــ الصاغ دكتور محمود القويسنى ــ بتتحدى يا بن ال ٠٠٠ والله لحط العصاية دى فى ٠٠٠ عيب يا اسماعيل يا همت !! وكانت العصى تتوالى على جسده العارى وهمت يشارك فى الضرب ٠

كانت الدفعة تعود الى العنبر لتواجه بنفس الضرب ، ثم تأتى دفعة ثانية ٠

واذا كان هدف هذه الحملة وغيرها هو الاذلال ٠٠ ورغم أن المعتقلين بملابس السجن التى فرضت عليهم وبالحلاقة المشوهة قد صاروا كفرقة من المهرجين ٠٠ رغم كل هذا فقد واجهوا حملة همت بالسخرية والضحك ، وتصاعدت روح المقاومة والاصرار ٠

لم يكتف همت بما حدث من تعذيب فى ٨ نوفمبر ١٩٥٩ انما تطبيقا لسياسة التصفية من خلال التعذيب والاتهاك ، جاء همت فى اليوم التالى بغـارات صـباحية ، فتحت الزنازين الواحدة بعد الأخرى ، وانهال العساكر على الزملاء بالضرب بالقوايش والخيزران ثم أخرجوا من العنبر الى فناء السجن ليجلسوا القرفصاء منكسى الرءوس فى جو شديد البرودة ـ الأجسام شبه عارية ، لا تسترها سوى غلالات خفيفة مهلهلة هى ملابس السجن ، ويعصف بها البرد القارص المسـتبد ، والأقدام حافية لا تقوى على لسـعات الرمال تحتها ، وقد تحولت الى ذرات من الثلج يسرى من القدم الى النخاع فتتجمد الدماء فى العروق ٠٠

استمر الوضع هكذا حوالى الساعة حتى نملت الأرجل وانعدم الاحسـاس بها واستبد القلق بالمعتقلين يحيط بهم عدد كبير من الحراس والسجانة ومأمور السجن والضباط والكل مسلح بكل أنواع الأسلحة ، ثم نفخ بروجى اللواء وجاء همت وفرقته ، وصدرت الأوامر بالنهوض والتقدم نحو بوابة السجن الخلفية بين صفين من الحراس بالمدافع الرشاشة بينما العساكر يتناولون الزملاء بالعصى والكرابيج وجريد النخيل مع السباب والشتائم ، وعند بوابة السجن طلب همت من المأمور أن يوقع على كشف البوابة فطلب المأمور من

ضابط عنبر المعتقلين ووكيل السجن عبد العال سلومة أن يوقع على الكشف ، ولكن هذا رفض بحجة أن هذه ليست مسئوليته ، وكان معروفا عنه صلته بالمباحث العامة وعداؤه للشيوعيين ، فطلب همت من المأمور أن يوقع لأنها مسئوليته فوقع المأمور وبذا أصبح مسئولا عن سلامة المعتقلين .

خرج المعتقلون من البوابة فى صفوف أربعة يحرسهم من الجانبين جنود الجنزيرين المسلحين بالبنادق والمدافع الرشاشة وكذلك فرقة همت المسلحة ، أما فى المقدمة فيجلس همت والمأمور والضباط فى عربات الجيب ، سار الموكب أربعة كيلو مترات ، وتوقف عند واد صغير يقع بين تلين من الرمال ، وأسرع همت إلى الصعود على أحد التلال كما أحاطت فرقته الزملاء من كل جانب بالمدافع الرشاشة ، وأراد همت أن ينفرد هو وفرقته بالزملاء فطلب من المأمور وضباطه وجنوده أن ينسحبوا ، ولكن المأمور لم ينفذ أوامر همت ، بل أصدر أوامره لضباطه وجنوده بالالتفاف حول المعتقلين والبقاء معهم ، ويرتفع صوت المأمور : اسمع انت وهو أنا عندى أوامر بضرب النار عند أى تمرد فاهمين ... مش عاوز أى تمرد ، دلوقتى الفئوس والفلقان راح تتوزع عليكم ، مطلوب أنكم تنقلوا التلال الرملية دى ، أى تقصير فى العمل راح أضرب بالنار فورا ، ووزع الزملاء الى فرق عمل ، واستمر العمل كما استمرت الشتائم والضرب .. ويعلو صوت همت : العساكر تشد حيلها شوية فى الضرب ، الأولاد اللى هناك دول ماشيين على مهلهم بيتفسحوا والا ايه ؟ ولاد ال ... ضرب الكرابيج أحسن .. عاوز أسمع صراخهم .. اضربوهم زى الكلاب ، ولكن لم تصدر عن أحد من المعتقلين صرخة واحدة .

في الساعة الرابعة بعد الظهر عاد المعتقلون الى السجن ، ولما نفخ البروجى فى النفير ومشى اللواء توقف الضرب وبصق الجميع عليه : المعتقلون والسجانة ٠

ولكن المعتقلين عادوا من هذه العاصفة العاتية من الظلم والتعسف وفى أجسام بعضهم آثار من هذه الهجمة الوحشية ، فهناك من كسرت ساقه أو ذراعه أو بعض ضلوعه ٠

وحيال هذه السخرة تساءل الكثيرون : هل عاد زمن العبيد ؟!

فوت الزملاء على نهمت مؤامرته التى كانت تهدف الى تدبير مذبحة حقيقية ، فأحنوا رؤوسهم قليلا حتى مرت العاصفة ٠٠ كانوا يقدرون أنها عاصفة مؤقتة سريعا ما تهمد وتتوقف ، رغم أن قائد المعتقل قد حرص بعد ذلك على أن يقوم بغارات صباحية يقوم فيها بفتح الزنازين وضرب المعتقلين بالقوايش والعصى مرة كل أسبوع أو عشرة أيام حتى يظل الجو ملتهبا ، وحرص على أن يأتى الى الجبل مرة فى الأسبوع لينشط التعذيب ، وليتحول الجبل فى ذلك اليوم الى حركة سريعة تترك فيها العصى والكرابيج على أجساد المعتقلين بصماتها من دماء متفجرة على الجبهة أو الرأس ، أو جسد ممزق من الجلد على العروسة ، أو أرجل تعرج من ضرب الفلكة أو ضلع مفقود من ضرب الشوم حتى رأس السنة لم يخل أيضا من المعاناة والتذكير بالتعذيب ، فقد اهتم الزملاء ــ وقد مر عام على بدء حركة الاعتقالات ــ بالاحتفال برأس السنة الجديدة ٠

بدأت الزنازين احتفالاتها بعد غلق باب العنبر ــ أشعلت « النوتو » ووضعت عليه أكواز الشاى ، ثم أخذ الزملاء يحتسون

الشاى لأول مرة بعد حفلة اللواء همت ،، « ويخمسون » السجائر ، كل مجموعة تتبادل الأنفاس فى سيجارة واحدة أو نصف سيجارة ، وفرها لهم زملاؤهم المسجونون ٠

تصاعدت الأمانى وتبادلت الزنازين تحيات الحب ، وأرسلت بسلامها وتحياتها ـ بمناسبة العام الجديد ـ الى الأبناء والأمهات والآباء والأخوات والزوجات والأصدقاء والصديقات والى أبناء وبنات مصر ، والى كل طفل وكل شيخ ٠٠ وارتفعت الأصوات فى الزنازين المختلفة كل يغنى أغنيته المحببة أو التى يجيدها أحد نزلائها ، فهذه الزنزانة تغنى :

بلدى يابلدى وأنا نفسى أروح بلدى
يا عزيز عينى السلطة خدت ولدى

وزنزانة أخرى تغنى :

فى يوم فى شهر فى سنة
تخلى السجون وتنام
وعمرى سجنى أنا أطول من الأيام

وثالثة تغنى : فوق الشوك مشانى زمانى

ورابعة تغنى لأم كلثوم وخامسة تغنى لعبد الوهاب ، وهناك غرف قدمت بعض التمثيليات أو القفشات والنكت ٠

الكل غنى ورقص ، ولكن الصدفة لعبت دورها فى افساد هذا الاحتفال وانهائه بحفلة أخرى من الضرب والتعذيب ، فقد وصل الى السجن دفعة جديدة من المعتقلين الذين قضوا فترة فى السجن

الحربى ، وبعضهم من المجندين والضباط ومعهم عشرون من أبناء غزة المعتقلين منهم الشاعر الفلسطينى معين بسيسو وعبد القادر ياسين ومدير التعليم فى قطاع غزة وغيرهم .

بينما المعتقلون فى الزنازين يغنون ويرقصون ويضحكون اذ بصوت يرتفع فى النبر : انتباه فظنه المعتقلون تقليدا لصوت الشاويش من بعض الزنازين ، بينما كان العنبر قد فتح فجأة دون أن يتنبه أحد لذلك .

وفى الدقائق الأولى من العام الجديد دخل العساكر فى خطوات سريعة ومعهم المأمور وبعض الضباط وترتفع أصواتهم بالشتائم البذيئة التى تنصب على المعتقلين وعلى آبائهم وأمهاتهم ، وفتحت الزنازين وأعمل العساكر العصى والقوايش فى نزلائها وأمروهم بالوقوف ووجوههم الى الحائط ، وارتفع صوت المأمور يشتم ويأمر بتشديد الضرب .

استمر المعتقلون على هذه الحال من التعذيب المتقطع الذى يشتد أحيانا أو يخمد على حسب مزاج مأمور السجن وهواه .. لكن الخروج الى السخرة فى الجبل والأحراش المحيطة بالسجن مستمر لتقطيع البوص والحشائش ونقل الأحجار والرمال لمجرد التعذيب والايلام فى جو شديد الحرارة كان العمل من السابعة صباحا حتى الرابعة بعد الظهر ، وكان جو العمل أحيانا يلتهب ويحمى وطيس الضرب ، وأحيانا يصبح خروجا روتينيا تلتف كل مجموعة حول أحد الشاويشية يجلسون تحت شجرة أو حول صخرة عالية يتسامرون ويتبادلون النكات ويستمر العمل بصورة هادئة .

قلت الشتائم أو انعدمت ، فمن خلال الحوار والمناقشات التى كانت تدور بين الزملاء والعساكر استطاع الزملاء أن يكسبوا عطفهم

ويذيبوا شحنات الكراهية التى شحنوا بها ضد الشيوعيين فى مراكز التدريب ، ويشلوا التعليمات الصادرة اليهم باستعمال القسوة رغم أن هؤلاء الحراس يختارون من العناصر الأكثر شراسة وعنفا ٠

أصبح هناك ما يشـــبه الاتفاق بين الحراس فى الجبل وبين المعتقلين وهو أن ينهضوا للعمل بسرعة اذا ظهرت من بعيد سيارة تحمل قائد المعتقل أو أحد الضباط ، وكان هناك من الزملاء من يقف فى نقطة مرتفعة لينبه الجميع بالقادم فيسرعون لحمل الرمال والصـــخور ٠

كان المكان الذى يتجمع المعتقلون فيه للعمل يســـمى وادى العقارب ، وكانت تكثر فى هذه الأماكن ـ بجانب العقارب ـ الحيات والثعابين خاصة ما يعرف بالطريشة ، وكانت تختفى فى الرمال وبين الأحجار ولا تظهر الا عند اقتراب فريستها لتقضى عليها ، كانت تشم رائحة الانسان من على بعد ثم تطير اليه وتهاجمه ، وكان خطرها يتضاعف مع خروج الزملاء للسخرة حفاة الأقدام ، ولكن لحسن الحظ أن للطريشة صـــوت له خشخشة غريبة يسبق تحركهـــا للانقضاض على الفريسة ، ولسعة هذه الحية اذا لم يسعف الانسان بالحقن المضادة خلال دقائق عاجلة الموت ٠

كنا نتوجس خيفة مما يخبئه القدر لنا ونحن نســـير حفاة ، وكنا نتصبب عرقا من شدة الحر ، فاذا عصفت الرياح تحول التراب على أجسادنا الى طين ٠

من خلال العلاقات التى توطدت مع بعض العساكر والشاويشية كسرت الكثير من حلقات العزل بين المعتقلين وبين الحياة فى خارج السجن ، فبدأت الجرائد تصل سرا الى المعتقل وبدأت الخطابات ترسل الى الأهالى ويستلم المعتقلون خطاباتهم سرا أيضا ٠

وحتى يضيق مأمور السجن على المعتقلين ويطبق سياسة العزل باحكام راقب بنفسه العمل فى الجبل ؛ وقام بحملات تفتيشية فى العنابر بحثا عن الأقلام والأوراق ، ورغم ذلك صدرت مجلات هوائية تسمع ولا تقرأ ، مجلة « الهواء » وتعبر عن رأى الحزب الشيوعى المصري (حدتو) ومجلة « الطريق » وتعبر عن رأى الحزب الشيوعى المصرى (ع ٠ ف ، الراية) وبعد ذلك ظهرت مجلة « الأفق » تعبر عن انشقاق فى الحزب الأخير خاصة من شباب الراية ٠

قدمت هذه المجلات أخبار مصر والعالم الخارجى ، كما قدمت الصورة والكاريكاتير والتحليل السـياسى الى جانب النقد الأدبى والشعر والقصة ٠

انكسرت حمية المأمور بعد أن باءت حملاته بالفشل ، ثم جاءت حادثة اصابة ولديه بالتسمم وانقاذ الأطباء الشيوعيين لهما لتطيح بغطرسته وتعسفه ٠

فذات ليلة فوجىء نزلاء العنبر بفتح أبوابه فى منتصف الليل ، واستيقظ الجميع على صـوت المأمور فريد شنيشن ، وهو يفتح الزنازين ويصيح ملتاعا شاحبا : عاوز دكتور ــ من فيكم دكتور فخرج له ليلتها الدكتور حمزة البسيونى والدكتور صلاح حافظ ، وذهبا معه الى فيلته المخصـصة له على بعد ثلاثة كيلومترات من السجن حيث كان يرقد ابناه ٠

كان الطفلان فى غفلة من أبويهما قد ابتلعا علبة كاملة من دواء لضغط الدم وهو « سر بازيل » الخاص بوالدتهما ، مما سبب لهما ما يشبه التسمم وأصيبا باغماء شديد وأشرفا على الموت ٠

قضى الدكتور حمزة والدكتور صلاح الليل كله وحتى الصباح يجاهدان لانقاذ حياة الطفلين ، أجريا لهما غسيل معدة ، وأعطيا لهما أدوية منبهة وعملا على تحريك الطفلين وايقاظهما وعدم الاستسلام للنوم ·· ظلت المحاولات لتنتصر الحياة مع الصباح وينقذ الطفلان ·

وقد لجأ فريد شنيشن مأمور السجن الى البحث عن طبيب من الشيوعيين ، لأن طبيب الواحة كان يقضى اجازته في القاهرة ، وأى طبيب آخر قريب على بعد عدة مئات من الكيلومترات ·

بعد هذه الحادثة تغير الرجل ، وبعد أن كان يزهو في خيلاء ، ويتباهى بقدراته أصبح يتجنب لقاء المعتقلين ، وسرعان ما استجاب الى تحويل العمل الذى لا فائدة منه في الجبل الى عمل نافع ، ومن هنا بدأت قصة الموافقة على استصلاح بعض الأراضى المجاورة للسجن وزراعتها ، وهكذا بدأت قصة المزرعة ·

استشهاد شهدى أوقف التعذيب فى جميع السجون :

لقد كسر شهدى باستشهاده طوابير السخرة وأوقف العودة الى زمن العبودية ·· لقد أنقذ بموته مئات من المعتقلين والمسجونين كان من الممكن أن يكون مصيرهم الموت العاجل أو البطىء بالضرب والسحل والتجويع والاجهاد ، لقد انتشلهم من مستنقع المهانة ورفع رءوسهم المنكسرة ورد اليهم أنفسهم وشموخهم ·

كانت مأساة شهدى حزنا خصبا ، خلقت للشعراء ولأدباء الرواية والقصة التجارب الحية للابداع الفنى والأدبى ، فكتبوا أدبا ونطقوا شعرا ارتقى أعلى مراحل الجودة ، وبددت كوابيس اليأس وفتحت نوافذ واسعة من الأمل المتجدد فى الحياة وفى المستقبل ··

كانت الحياة تخضر من جديد فى قلوب الزملاء بعد أن كادت تضيع بين الرمال الصحراوية القاحلة وكتل البازلت وهم يرددون مع ناظم حكمت :

ويكبر الاصرار فى قلوبنا يردد

لابد أن نعيش

انهم يحلمون بالمستقبل ·· بالحياة السعيدة ·· بالسلام والاخاء بين البشر والحرية ، وبالمجتمع الذى تزدهر فيه مبادىء : « دع مائة زهرة تتفتح » وبأن أجمل الكلمات تلك التى لم نقلها بعد وأجمل القبلات تلك التى لم نقبلها بعد وأجمل الضحكات تلك التى لم نضحكها بعد ·· انهم يتجاوزون حدود السجن يستشرفون المستقبل بخيالاتهم يرددون مع ناظم حكمت كلماته :

أحلم أنى خارج سجنى فى دنيا مشرقة حلوة

لم أر نفسى فى الحلم سجينا أبدا ·

لم أسقط فى الحلم من الجبل الى الهوة أبدا

بعد مقتل شهدى وفى يوم من أيام يونيو ١٩٦٠ وصلت أوامر لسجن المحاريق بتحسين المعاملة فتوقف فى هذا اليوم خروج المعتقلين الى السخرة ، سمح فقط للمسجونين بالخروج الى العمل فى مرافق السجن — كما هو المعتاد — ولم تفتح زنازين المعتقلين حتى الساعة الثانية عشرة ·· والكل يتساءل عن سبب ذلك ·· ثم جمع المأمور « فريد شنيشن » المعتقلين فى فناء السجن وأخبرهم أن برقية وصلته مساء أمس من القاهرة بتحسين معاملتهم ، وقال لهم : منذ اليوم يمكنكم أن تلبسوا أحذيتكم وأن تتسلموا خطابات من أهاليكم ، وترسلوا اليهم بخطاباتكم ، وسمح لكم بالتعامل مع

الكانتين وشراء ما تحتاجون اليه ، ولم يعد العمل اجباريا ٠٠ ثم قال انه سعيد بهذه الأوامر واعتذر عما بدر منه في الشهور الماضية بأنه لم يكن بارادته ، وانما هي أوامر كان ينفذها بمرونة ، وأمر أحد الضباط بفتح المخازن وتسليم المعتقلين أحذيتهم وملابسهم التى أخذت منهم يوم حفلة التعذيب التى قادها همت ٠

بعد أن استلم الزملاء أحذيتهم وما تبقى لهم من ملابس بعد حريق همت ٠٠ خيم الصمت على المعتقل كله ٠٠ انشغل كل زميل بشيء خاص به ، فهذا يقبل حذاءه ، وهذا يمسحه بسترته ، وذاك قد جلس على الأرض وحاول أن يدخل رجليه فيها بصعوبة فقد تفرطحت قدماه وكبرت عليها ، وهذا وجد نظارته وأخذ يضعها على عينيه يبصر من خلالها مشاهد لم يكن يتبينها قبل ذلك وآخر انتحى جانبا من سور السجن أو زاوية من الزنزانة أو طرقة العنبر يتأمل صورة فى يده ، قد تكون لابنه أو لزوجته أو لأمه أو لأخته أو لحبيبته وهو يقبلها ويتأمل فى ملامحها يسترجع معها ذكرياته الحلوة ويعيش فيها لحظات ٠٠ مشاهد انسانية يعجز القلم عن وصفها ٠

كان المأمور بعد كلمته فى المعتقلين قد طلب بعض الزملاء للاجتماع به فى مكتبه ، وهناك أخبرهم بنبأ استشهاد شهدى عطيه الشافعي ٠٠ انتشر الخبر وعم الحزن جميع أرجاء السجن ، وأدرك الجميع أن هذا هو ثمن وقف السخرة والتعذيب ٠

قلة الغذاء وانتشار الأمراض :

كان التجويع يمثل ركنا أساسيا من سياسة المباحث العامة في التعذيب والانهاك والقتل فمن لم يقتله الضرب والتعذيب قتل من الجوع والمرض وانعدام العلاج ٠

كانت التغذية سيئة جدا من حيث النوع والكمية ، كان الطعام عبارة عن قطعة جبن محجرة ذات رائحة عطنة وبعض العسل الأسود ذى الرائحة الكريهة وقروانة عدس أو فول مسوس ، أو أحيانا قروانة يقال انها خضار ، وهى من حشائش غريبة ذات طعم مقزز وبهـا قطعة صـغيرة مما يسمى باللحم وهى عبارة عن قطعة جلد أو شـــغت •

ورغم ما عليه هذا الغذاء من سوء ، فقد كانت الأشغال الشاقة والجوع والتوتر والقلق الذى يعانيه المعتقلون ، مما يجبرهم على تناول هذا الطعام ، كان الكثيرون ـ وكنت واحدا منهم ـ يلتهمون الوجبات الثلاث مرة واحدة ، ونبقى بقية اليوم فى حالة جوع حتى الساعة الرابعة من اليوم التالى •

كان هناك احساس حقيقى بالجوع الدائم ، بل كان هناك من الزملاء من هو مصاب بالتهاب فى القولون أو قرحة فى المعدة ، ومع ذلك فقد كانوا يلتهمون الفول والعدس بنهم شـــديد رغم علمهم بأضرار ذلك على صحتهم •• فى البداية لم يشك أحد ألما ـ لا لأن المرض قد زال من أجسامهم وانما لأن ارادة الحياة لديهم منحتهم القدرة على مواجهة الظروف الشاقة وأنستهم آلام أمراضهم مؤقتا ، فبعد فترة بدأت تظهر هذه الأمراض القاتلة فى المعدة وبدأ الزملاء يتساقطون شهداء •

لقد كنـا فى أمس الحاجة الى الكثير من الغـذاء وخاصـة الخضروات التى كان يندر تواجدها ، فقد كانت الخضروات تجلب من أسيوط بالسيارات مرة فى الأسبوع وعند وصولها تكون قد ذبلت وفقدت نضارتها ، كما كانت هناك مزرعة للسجن ولكن هذه كان يتحكم فيها الاخوان المسلمون ويحتكرون انتاجها ويضنون على

باقى نزلاء السجن بخيراتها ، كما كونوا يتحكمون فى المطبخ والفرن، ويميزون أنفسهم نوعا وكما بنصيب الأسد ، بينما يتركون الفتات لغيرهم ..

لقد كان لهم دورهم فى هذه المجاعة .. من هنا بذلنا جهدا كبيرا لاستصلاح أراضى جديدة حول السجن وزراعتها - كما سنوضحه فيما بعد - واشترك زملاء لنا فى أعمال المطبخ والفرن حتى نضمن الحصول على نصيبنا العادل .

لقد دفع الجوع بعدد كبير من الزملاء - أثناء وجودهم فى الجبل فى أشغال السخرة - الى أكل ثمار الخروع المجاور لفيلات الضباط ، واقتلاع نباتات البلح الحديثة لأكل جذورها ، كما أكلوا البرسيم ، باعتباره نبات الحلبة .

كان الزملاء يهربون من حرارة الشمس القاسية الى ظلال شجر الخروع الذى يحيط بمنازل الضباط ، تناول ظريف عبد الله المحامى بعض الثمار واستلذها فحرض الزملاء على التهامها وشبهها باللوز ، وأفتى الدكتور مختار السيد بأن أكل الخروع صحى وأكل منه.. ، ولم يستمعوا لصيحات عم نوح فلاح البحيرة الذى حذر من أكله قائلا ان الحمير لا تأكله ، بل دفع الجوع الزملاء الى الاتيان على ثمار الخروع فى الأشجار الموجودة بالمكان المحيط بهم .

عاد الزملاء الى السجن وفى المساء بعد أن أغلقت العنابر والزنازين بساعة ، بدأ عدد من الزملاء يشعرون بآلام حادة فى أمعائهم ، وأصيب البعض باسهال شديد وقىء .. أخذوا يدقون الأبواب طلبا للنجدة ، وطلبوا من العساكر فتح الزنازين ، فقد أصيب حوالى نصف عدد المعتقلين بالتسمم .

بدأ الزملاء يتساقطون فاقدى الوعى ، وحضر المأمور وقوة السجن ، كما حضر الزملاء الأطباء ، وتحولت الغرف الى مستشفيات، وأرسلت سيارة السجن الى مدينة الخارجة لاحضار بعض الأدوية ٠٠ قام الأطباء بغسيل للمعدة لبعض الزملاء ، وصل البعض الى مرحلة خطيرة لضعف نبضهم ، ونقل ما يقرب من سبعين زميلا الى مستشفى الخارجة ٠٠ أعطيت للكثيرين أدوية مضادة للتسمم ، وأجريت لهم عمليات غسيل للمعدة ، وظل السجن ومستشفى الخارجة فى حالة طوارىء حتى منتصف اليوم التالى حتى أنقذت حياة من أصيبوا بالغيبوبة وكانوا على حافة الموت ٠

ابتهج حسن المصيلحى عندما سمع بحادثة أكل ثمار الخروع وما نتج من تسمم ٠

كان لهذه الحادثة الهزلية المضحكة والمبكية فى آن واحد أثرها على صحة بعض الزملاء ، كما كان لسوء التغذية والأمراض الناتجة عنها وانعدام العلاج ومراوغة المباحث العامة وتلكئها فى السماح بنقل المرضى الى المستشفيات المختصة ، وضعف المقاومة بعد الاضراب الطويل كان لهذا كله أثره البالغ فى اشتداد الأمراض ببعض الزملاء ، فدفعوا ثمنا غاليا وهو حياتهم نفسها ٠ لقد هاجمتهم الدوسنتاريا وأمراض المثانة والكلى والمعدة والعيون ٠

أصبت مرة بالدوسنتاريا واستمرت معى أكثر من شهرين حتى هزل جسمى وخف وزنى ، لانعدام العلاج والغذاء ، بل كانت الانفلونزا تستمر فترة طويلة لندرة الخضروات الطازجة والعلاج اللازم ٠

قافلة طويلة من الزملاء استشهدوا لسوء التغذية وانعدام العلاج ٠

مات الفنان أحمد البيكار بعد عام نتيجة سرطان فى الأمعاء .. فى البداية أصيب بنزلة معوية قاسية ورحل للقصر العينى وأفرجوا عنه بعد أن اكتشفوا أن حالته ميئوس منها فمات بعد أسبوع من الافراج عنه .

والعامل على زهران مات بعد عام ونصف نتيجة تسمم حاد بسبب البولينا مما أجبر المباحث على ترحيله الى القصر العينى وفارق الحياة بعد وصوله بيومين .

وأصيب الزميل اسماعيل عبد الحكم بكر بالتهاب كبدى وبائى نتج عنه ضعف شديد وعدم القدرة على الحركة ؛ وكان لابد من نقله فورا الى القاهرة بعد أن عجزت مستشفى الخارجة عن علاجه ورفضت المباحث العامة فى البداية ، وتحت الضغط سمحت بسفره الى القاهرة بالطائرة وهو فى شبه غيبوبة وكان يرافقه الدكتور حمزة البسيونى لرعايته فى الرحلة .

وفى أول يناير ١٩٦٠ سقط على متولى الديب العامل فى مصنع الألياف بشبرا الخيمة بعد أن أصيب بدوسنتاريا قاتلة وكان عمره (٢٨ سنة) .

ومات المهندس الشاب رشدى خليل (٣٠ سنة) بعد أن تمزقت أمعاؤه من الحمى .

وقافلة الشهداء لا تتوقف : حسب الله على مرسى عامل نسيج ـ سيد أمين عامل نسيج نقابى ومناضل سياسى ، شعبان حافظ كان من قادة الحزب الشيوعى المصرى القديم ، أسقطت عنه الجنسية ونفى خارج البلاد وعاد اليها سرا ومات فى سجن المحاريق

فى ١٤ مارس عام ١٩٦٢ ٠٠ هلال عبد العزيز شعبان عامل نسيج بمصنع جورج أسود عضو نقابة شبرا الخيمة ٠

قام الزملاء الأطباء بدور أساسى فى علاج المعتقلين بل العساكر وأبناء الضباط ، وقد تعاونوا فى هذه المهمة الانسانية رغم الخلافات السياسية والتنظيمية ٠٠ كان الأهالى يرسلون الأدوية وكان الأطباء الزملاء يحضرون مع طبيب السجن ويقنعونه بحالة الزميل ، وكان العلاج بطانية اضافية أو قطعة كبدة أو لحم ، والحالات التى يتعذر علاجها فى السجن كان لابد من موافقة المباحث العامة على الترحيل الى أسيوط أو القاهرة ، وكانت المباحث تراوغ حتى يشرف المريض على الموت فتوافق على النقل ليموت هناك أو تفرج عنه صحيا لتبرأ من دمه ويصبح عبرة لغيره ٠

المزرعة :

قبل الموافقة على توجيه طاقاتنا الى استصلاح مســـاحة من الأرض نستعين بانتاجها على تعويض النقص فى التغذية ، كانت جهودنا تضيع هباء فى تقطيع البنوص من الأحراش ونقل الأحجار والرمال من مكان لآخر وأحيانا اعادتها الى ما كانت عليه مرة أخرى لأن الهدف هو التعذيب والانهاك ، لذا كانت المزرعة وسيلة ايجابية للاستفادة من طاقاتنا وافشال مخططات الموت ، كانت حلا جزئيــا ينقذنا من الجوع ويساعدنا على مقاومة الأمراض ٠

قمنا بمسح المنطقة من السجن وحتى منازل الضباط وهى مساحة تقترب من المائة فدان صالحة للاستصلاح وكان لابد لزراعتها من التغلب على المشكلات التى تتعلق بتسوية الأرض واقامة الجسور والطرق وعـــلاج الأرض الصلصالية بخلطها بكميات من الرمال ، وأيضا علاج مشكلات المياه والتسميد والتقاوى ٠

لم يكن المعتقلون على رأى واحد فى الحماس لانشاء المزرعة ، كان البعض يراها سخرة واستجابة لسياسة الحكومة فى تعذيبنا ، كان الأفضل لديهم أن يجلسوا فى الشمس أو تحت ظلال الأشجار أو بجوار سور السجن يثرثرون ، بينما كان هناك من تحمس لهذا العمل ووجد فيه حياة نافعة وفرصة لحرية الحركة فى الفضاء الطلق وكان أغلب هؤلاء من العمال أو الفلاحين أو المثقفين من أصول فلاحية هؤلاء هم الذين تحمسوا للعمل فى انشاء المزرعة ، وعلى أكتافهم قامت ، ولم يكونوا كثرة كثيرة بل قلة محدودة .

كونا لجنة لقيادة العمل فى المزرعة ممن لهم دراية بالزراعة مكونة من أحمد سليم وأنا (السيد يوسف) وعبد السلام خشان ومحمد فريد سيد أحمد وحسين عبدربه والشيخ محمد عراقى ، كنا نتناوب المسئولية ، كل منا يتولاها يوما فى الأسبوع . وكانت هناك نبطشيات للعمل فى المزرعة يوم أو اثنين أو ثلاثة فى الأسبوع حسب الظروف بالنسبة لزملاء آخرين ، وتكونت مجموعات عمل ولكل مجموعة مسئول .

قمنا بجهد خارق فى تمهيد الأرض وتسويتها معتمدين على الجهد العضلى والوسائل البدائية التى وفرتها لنا ادارة السجن وهى الفئوس والفلقان ، كنا نحملها على أكتافنا أو يشترك اثنان فى حمل الغلق الواحد .. أتذكر أننى كنت أشترك مع حسين عبدربه مرة أو فتحى مجاهد أو عبد السلام خشان أو محمد الامام أو ابراهيم العدل أو محمد فريد سيد أحمد أو الشيخ عراقى أو أحمد سليم أو سعيد فلاح دقهله أو صبحى رياض أو عبد المنعم درويش وغيرهم وغيرهم فى حمل الغلقان من الرمال عشرات الأمتار من الأماكن المرتفعة لنضعها فى الأماكن المنخفضة أو الصلصالية أو نقيم بها طرقا وجسورا .. كانت أيدينا تتسلخ من حمل هذه المقاطف حتى تصلب مكان الجروح وكون كالو فى موضع التسلخ .

أحيانا قليلة أمدتنا ادارة السجن بالمحراث والقصابية وعجلين لجرهما مساهمة فى عملية الاستصلاح كما جلب المأمور بولدوزر من الاصلاح الزراعى لمساعدتنا فى استصلاح مساحات أخرى من الأرض ٠

كنا اذا استصلحنا قطعة حرثناها ورويناها وبذرناها وانتقلنا الى قطعة أخرى مع متابعة الاشراف عليها ٠٠

كنا نعالج الأرض الصلصالية بنقل أربعة مقاطف من الرمال لكل متر منها ثم نقوم بحرثها ليختلط الرمل بالصلصال ويقوم بخلخلة التماسك فى تربتها حتى تسمح للبذرة بأن تشق طريقها الى الظهور والنمو ٠

أما عن المياه فقد كان هناك بئر جوفى بجوار مساكن الضباط ، وكانت هذه العين أعلى من مستوى الأرض المزروعة بثلاثة أمتار ، وحتى لا تضيع المياه فى الصحراء هدرا حاولنا الاستفادة من دوام تدفقها فى الرى والاستحمام والتخزين فقمنا بحفر خزان للمياه فى قطعة من الأرض مجاورة لعين الماء وللأرض المزروعة ، كانت القطعة مستطيلة مساحتها ١٠٠ متر × ٥٠ مترا ، حفرنا بالمحراث وبالفئوس وعمقنا قاعها الى مترين واستخدمنا القصابية والمقاطف فى رفع ما بها من رمال وصلصال لنكون به جدرانا للخزان ، كان قاع الخزان فى مستوى الأرض الزراعية ، ثم شققنا مجرى يوصل مياه البئر الى الخزان من أعلى وبشكل دائم فلا يضيع منه قطرة ، كانت المياه تتدفق من البئر ساخنة ولو وجهت الى الأرض المنزرعة مباشرة لريها لأحرقت الزرع فكان تحويلها الى الخزان وفتحها حسب الحاجة مما يساعد على تبريدها ، ومددنا مواسير من قاع الخزان توصل لقناة الرى الرئيسية ويمكن التحكم فى غلقها وفتحها حسب الحاجة

•• قمنا بدك قاع الخزان وتبطينه وتبطين جدرانه بالأحجار وكان للمهندس فوزي حبشي دور في تصميم الخزان •

ساعد الخزان على وفرة المياه وسرعة تدفقها وسرعة انجاز الري كما ساعد على زيادة مساحة الأرض المستصلحة واستعمل كحمام سباحة •

وفي افتتاح حمام السباحة أقيمت حفلة حوله في الصباح وزعت فيها الجوائز على الفائزين في مسابقة السباحة •

كانت مساحة الأرض التي تم استصلاحها واستزراعها ثلاثين فدانا •

شجعتنا اقامة الخزان على بناء استراحة حوله لتقينا من حرارة الشمس وزمهرير الشتاء ، كان الأمر يحتاج الى ضرب كمية من الطوب من الطفلة الموجودة بالبيئة وتركها حتى تجف كانت الاستراحة عربية التصميم مكونة من حجرة كبيرة بها عدد من المقاعد والدكك المبنية من الطوب ، وهناك حجرة صغيرة ، ويحيط بالاستراحة شرفة دائرية ذات بواكي وقباب تشبه الأرابيسك ، وكانت واجهتها بحرى وتطل على الخزان ، واستعملت بواكي الشرفة لتغيير الملابس حين صار الخزان أيضا حمام سباحة ، وقمنا بدهان الاستراحة باللون الأبيض وشتلنا حولها الأشجار فبدت دوحة جميلة تتحدى قتامة الصحراء وقسوتها •

في هذه الاستراحة وفي الحجرة الكبيرة ألقيت سلسلة من المحاضرات ذات الموضوعات المتنوعة ، أما الحجرة الصغيرة فكانت مخزنا للتقاوي وأدوات الزراعة ومحصولها •

أرسل بعض المعتقلين والمسجونين الى أهاليهم يطلبون ملابس السباحة ولوازمها من مايوهات وبشاكير ، وكان ذلك محل دهشة وتساؤل منهم .

خطا المعتقلون خطوة أكبر حين بدأوا فى دراسة التربة وتحليل مياه الواحات لدراسة امكانية تربية الأسماك وزرعها فى قلب هذه الصحراء تحديا لمواتها واثباتا لقدرة الانسان على الابداع والمقاومة .

أما عن تسميد الأرض فقد قمنا بحل هذه المشكلة من خلال ثلاثة مصادر :

المصدر الأول : هو استخدام فضلات السجن المتجمعة فى ترنشات خارج أسواره فى شكل مستنقعات نقوم بترسيبها بنزح هذه المجارى فى أحواض عن طريق الجرادل أو الطنبور ثم نترك هذه الأحواض لتتبخر بشدة الحرارة لمدة ثلاثة أو أربعة أيام وبعد أن تجف نكشط الطبقة السطحية المشتملة على الرواسب ، وننقلها خارج أحواض الترسيب ، وعندما تجف تماما ننقلها الى المزرعة بسيارة السجن .

كان النزول الى مستنقعات المجارى ينطوى على خطورة حقيقية ، ومع ذلك لم يدخر الزملاء وسعا فى خوض هذه المخاطرة التى لا مفر منها لنجاح المزرعة ، بل لم يجد بعض أبناء الذوات غضاضة فى النزول بأجسامهم فى هذه المستنقعات لنزحها بالجرادل أو الطنبور ، ولازلت أتذكر مشهد الدكتور شريف حتاتة وهو يقوم بهذا العمل بحماس وتفان .

المصدر الثانى : هو زريبة السجن فقد سلمتنا الادارة واحدة من الزريبتين (الحظيرتين) التابعتين للسجن وكان بها عجلان نقوم بالتتريب تحتهما ثم نرفعه بعد يوم أو يومين ونستخدمه كسباخ

المصدر الثالث : ما أخذناه من كيماوى من مخازن السجن ، وكان المصـــدر الثانى والثالث محدودا فكان الاعتماد الأكبر على المصدر الأول ٠

أما عن التقاوى فقد حصلنا على بعضها من مخازن السجن وبعضها الآخر مما تبقى لدى المسجونين من أيام سجن جنـــاح ، والباقى اشتريناه من اسيوط أو جاء الينا من الأهالى ٠

نجحت المزرعة نجاحا عظيما وحققت انتاجا وفيرا من مختلف أنواع الخضروات ٠٠ أنتجنا السبانخ والملوخية والبامية والباذلاء والباذنجان والطماطم والخيار والقثاء والكوسة والخص والفول والخبيزة والرجلة واللوبيا والفاصوليا والجرجير والجزر والفجل والبطيخ والشمام ٠

كنا نجمع الثمار فى أجولة يحملها الحمار الى مطبخ السجن ليســتفيد منهــا كل النزلاء ، والبعض الآخر يوزع على الحجرات ليستفيد منه الزملاء ويعوض ما يعانونه من نقص فى الكالسيوم والفوسفور ٠

لم نعرف الشبع الا بعد انتاج المزرعة حتى توقفنا عن استلام يمك العشاء من السجن أحيانا ٠

كانت المزرعة تغطى احتياجات السجن بكل فئاته من نزلاء وادارة ، وكانت ترســل الأقفــاص المحملة بالخضروات والفاكهة

للمحافظ وموظفى المحافظة ، وحصلت المزرعة على الجائزة الأولى فى معرض للمنتجات الزراعية أقيم بالواحات .

- لأكثر من ثلاث سنوات كان نصيب الفرد من نزلاء السجن وموظفيه لا يقل عن نصف كيلو يوميا من الخضار الطازج والفاكهة وعن ثلث كيلو من الخضار المطبوخ ، وقد قام بعض المعتقلين بتجفيف الفول الأخضر لعمل فول مدمس •

شجع نجاح المزرعة وانتاجها الوفير مأمور السجن على أن يقوم بتسليمنا مزرعة السجن الأصلية التي كان يشرف عليها الاخوان المسلمون ويحتكرون انتاجها ولا يبذلون فيها جهدا كافيا لتحسين انتاجها ، وكان تصرفهم فيها محل شكوى ، رغم أن أرضها رملية طفلية خصبة للغاية ، وفى منطقة منخفضة يسهل ريها ، وقمنا بزيادة انتاجية هذه المزرعة ، فساهمت فى حل أزمة التغذية •

كان الرفاق يبدأون يومهم بأن ينادى أحدهم صباحا فى لعنبر : « المزرعة يا زملاء » ويخرجون اليها الساعة الثامنة يستمرون حتى الظهيرة ، وفى بعض الأحيان يستمر بعضهم الى اخر النهار •

ومما يذكر أن المزرعة لم تكن موحدة بل كانت مقسمة الى قسمين : فقد قام كل تنظيم من التنظيمين الكبيرين : حدتو ، (الراية ــ ع• ف) بانشاء مزرعته الخاصة مع الاشتراك فى مصادر المياه •

لعبت المزرعة دورا هاما فى حياة المعتقلين المادية والمعنوية ، فقد أفلتوا بها من المجاعة ومن كثير من الأمراض وملأوا فراغهم

بعمل مفيد ، وأصبحت متنفسا صحيا فى هذا الخلاء الموحش الرهيب بعيدا عن كآبة السجن ، تمتعوا فيه ببعض الهواء الطلق بدلا من جو السجن الخانق ، لذلك أقبل كثير من الزملاء على الخروج الى المزرعة بحماس شديد يملأ قلوبهم كلمات ناظم حكمت :

ويكبر الاصرار فى قلوبنا يردد
لابد أن نعيش .. لابد أن نعيش

هكذا تغير الجو فى المعتقل ، كسرت العزلة والصحراء ، وانتقلنا الى عالم حياة صاخبة ، توقف التعذيب والعمل الاجبارى ، وبعد اغلاق الأوردى تجمع الكل تقريبا فى الواحات .. فتحت الزنازين ليلا وعشنا فى ظروف نسبية أفضل فى المعاملة ، وظهر هذا فى الاحتفال الصاخب برأس السنة الجديدة يناير ١٩٦١ .

أتذكر كيف احتفلنا .. أكلنا .. شربنا .. غنينا .. رقصنا، وسرنا طوابير مبتهجة تجرى فى العنبر ، وبعضنا يلبس ملابس متنكرة ، وأمامنا فؤاد حداد يغنى ونحن نغنى معه : كان ليه طاقية ..طاقية شسقية من شقاوتها بقت طرطور .. طرطور ، اعرض العرض وطال الطول .. طرطور .

وهكذا فرحنا وسعدنا بهذا اليوم ، وكأننا نعوض ما عانيناه طوال الفترة السابقة وننعم بثمار تضحيات أبى الشهداء : شهدى عطية الشافعى .

استمرار الاعتقال يتعارض مع الاجراءات الاقتصادية والاجتماعية :

بعد انحسار غبار الأزمة بين القوى الوطنية المصرية والعربية عامى ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ بدأت تتكشف مؤامرات الاستعمار والرجعية لضرب مكتسبات الثورة وجنى ثمار الأزمة .

بدا وكأن الثورة قد استوعبت الدرس ، لقد أكدت الصحف والاذاعات تلاشي أو انحسار حدة العداء والهجمات المتبادلة بين القوى الوطنية العربية ، وبدأت تظهر رياح تغيير تعطي الأمل فى انفراج الغمة بيننا وبين السلطة وأننا بسبيلنا الى الخروج الى حياة الحرية ٠

ظهر هذا فى عدة مواقف : تأميم بنك مصر فى فبراير ١٩٦٠ ـ تنظيم ملكية الصحف ـ حديث الصحف والاذاعة عن الحد من سيطرة رأس المال على الحكم وعن تغييرات متوقعة ٠

ثم كان موقف الحكومة المصرية قويا من مؤامرة مقاطعة الباخرة المصرية كليوباترا فى أحد الموانى الأمريكية ٠

ومع نهاية الاضراب عن الطعام الذى اشترك فيه عدد كبير من المعتقلين فى شهر يوليو عام ١٩٦١ حضر مندوب للرئاسة فى ٢١ يوليو وصرح بادانة التعذيب وأنه يجرى الآن محاسبة المسئولين عنه وأن الظروف التى أدت الى اعتقالنا قد انتهت ، وأن هناك بحثا جديا للافراج عنا وأن الدولة محتاجة اليكم فى المرحلة القادمة ، طلب أن نستمع الى خطاب الرئيس عبد الناصر مساء غد (٢٣ يوليو عام ١٩٦١) فهناك مفاجأة ٠

كانت المفاجأة هى اعلان الثورة الاشتراكية وصدور قوانين بحركة تأميمات واسعة للقطاعات الانتاجية شملت أكثر من ٨٠٪ من المؤسسات الصناعية والتجارية وتأميم البنوك وشركات التأمين والتجارة الخارجية والاصلاح الزراعى الثانى الذى وضع حدا أعلى لملكية الأسرة بمائة فدان ٠٠ شملت هذه الاجراءات الهجوم على الرأسمالية المصرية الكبيرة والدفاع عن مصالح العمال والفلاحين

واشتراك العمال في مجالس ادارات المؤسسات والشركات ، وتوزيع نسب من الأرباح عليهم ، وتبني النظرية الاشتراكية في التطور ، أى تحقيق أغلبية الشعارات التى رفعناها فى السنوات الأخيرة، ومع هذه الاجراءات فليس من المعقول أن يبقى الاشتراكيون في السجون ٠

ولكن لم تمضى على صدور هذه التأميمات أكثر من شهرين حتى ردت الرجعية والاستعمار عليهــا ففى سبتمبر ١٩٦١ حدث انقلاب الانفصال السورى ـ انفصال مأمون الكزبرى بسوريا عن الجمهورية العربية المتحدة ٠

كان رد عبد الناصر على الانفصال فى البداية غضبيا ، فقد أمر بتوجيه فرقة من المظليين الى اللاذقية للقضــاء على الانقلاب ، لكن سرعان ما ساد العقل ، فأذاع عبد الناصر في اليوم التالى بيانا أدان فيه الانفصال وأعلن أن مصر لن تستخدم السلاح فى فرض الوحــدة ٠

وبعد الانفصــال بعدة أيام ، وفى جامعــة القــاهرة خطب عبد الناصر ، فقدم نقدا ذاتيا ، جاء فيه أن الرأسمالية المصرية الكبيرة حاولت أن تسرق الثورة ، فتصورت أن معركة الاستقلال وما أعقبها من تمصير وتأميم للشركات الأجنبية هى فرصة لها لزيادة كعكتها على حساب الجماهير ٠

وقال ان الرجعية تغلغلت داخل الأجهزة ، وكانت تعمل من أجل السيطرة الكاملة على الدولة ، وان الذين تآمروا على الوحدة كانوا عناصر قيادية داخل الاتحاد القومى وداخل أجهزة الدولة ،

وان الاتحاد القومى كان مجرد لافتة لا فاعلية لها ، وان مصر ستضع يدها مع قوى الثورة العربية والعالمية فى كل مكان ٠

وأعلن أنه لا طريق أمامنا سوى مزيد من الحرية للجماهير والاعتماد على حركتها من أجل بناء مجتمع تسوده الكفاية والعدل ٠

ولطالما حذر الشيوعيون من ضرب الوحدة الوطنية ، وطالبوا بأن تترك للجماهير حريتها فى الحركة لحماية هذه الوحدة ، كما أيدوا الوحدة وطالبوا بأفضلية قيامها على أساس ديمقراطى مع مراعاة اختلاف مستويات التطور فى كل بلد ، ولكنهم عندما قالوا ذلك اتهموا بالخيانة والعداء للوحدة على لسان المنافقين وعملاء الرجعية والاستعمار فى أجهزة الاعلام ، وأودعوا فى السجون وعذبوا ٠

بعد الانفصال السورى بعدة أشهر أعلن ميثاق العمل الوطنى فى مايو ١٩٦٢ بعد مناقشته مناقشة ساخنة فى مؤتمر واسع ، حاولت فيه القوى الرجعية والمتخلفة أن تجهضه أو تفسره تفسيرا متخلفا يفرغه من ايجابياته ، وظهر هذا فى تقرير الميثاق ، ولكن عبد الناصر أعرض عن هذا التقرير ، فصدر الميثاق كوثيقة هامة وخطيرة ، ونقلة فكرية أرست قيما نضالية تقدمية ٠

قدم الميثاق لأول مرة تحليلا علميا عن تاريخ نضال الشعب المصرى منذ ثورة عرابى حتى ثورة ١٩٥٢ باعتباره سلسلة متصلة الحلقات من أجل الاستقلال والتحرر ، كما تحدث الميثاق عن الصراع الطبقى وضرورة حله لصالح الغالبية من الجماهير العاملة وعلى رأسها العمال والفلاحون ٠. كما أكد الدور الطليعى للطبقة

العاملة فى اجراء التغيير الاجتماعى ·· وتحدث عن الاشتراكية كطريق حتمى للتقدم ونص على الاشتراكية العلمية ·

والأهمية القصوى فى عرض هذه القيم هى أنها صادرة عن قيادة الثورة ·· وأن صدور الميثاق قد صاحبته لهجة حادة معادية للاستعمار فى الصحافة والاذاعة المصرية ·

ولقد أثار صدور ميثاق العمل الوطنى مناقشات واسعة بين التنظيمات المختلفة ·· رحب به الجميع ، ولكنهم اختلفوا فى تفسيره ، فالحزب الشيوعى المصري (حدتو) رآه تأكيدا لفكرة وجود مجموعة اشتراكية فى السلطة وضرورة التلاحم معها لبناء الاشتراكية ·

بينما الحزب الشيوعى المصرى (ع.ف ـ الراية) رآه وثيقة وطنية ديمقراطية يصلح كأساس لجبهة وطنية ديمقراطية ، مع التأكيد على أن استمرار اعتقال الاشتراكيين ، واستمرار نفس الأجهزة الرجعية فى الاشراف على تطبيقه ، وعدم وجود حركة وتنظيمات سياسية وجماهيرية قوية كفيل بتفريغ الميثاق من مضمونه ·

وبعد سيطرة حزب البعث على السلطة فى سوريا والعراق أجريت محادثات للوحدة بين قيادة هذا الحزب وبين القيادة المصرية استمرت لعدة شهور ، اتفقوا خلالها على الاتجاه الوطنى التقدمى فى حركة التحرر العربى ، وعبر كل منهما عن أهداف البورجوازية الصغيرة فى بناء مجتمع مستقل يقوم على أساس العدالة الاجتماعية·

استخدم عبد الناصر وميشيل عفلق فى هذه المحادثات تعبيرات ماركسية ، واستشهدوا بنصوص من لينين وستالين وماوتس تونج،

ورغم هذا الاتفــاق الموضـوعي فقد اختلفوا وتوقفت المحادثات وفشلت ، وبدأت أجهزة الاعلام فى اذاعة محاضر الجلسات وتبادل الشتائم ٠

كانت المحادثات تتم بطريقـة علويـة بعيدة عن مشـاركة أو مراقبة الجماهير ، ولم يرتبط الاتفاق أو الاختلاف بالموضوع ، بل بأهواء وطموحات الزعامات الفردية ٠

من هنا كانت الظروف الموضوعية تحتم ضرورة الافراج عن الماركسيين ، فكيف نظـل في المعتقـل مع موافقتنـا على كل هذه الخطوات التقدمية ، تساؤلات كثيرة كانت تعمق احساسنا بالحيرة .

وقد تدخل الكتاب اليساريون وبعضهم كان قد اعتقل ثم أفرج عنه منذ فترة افراجا سياسيا دون شروط ٠

كانت القوى الرجعية لازالت تعشش فى كثير من الأجهزة خاصة المباحث العامة ، والمخابرات ، وكان الافراج لا يسر هذه الأجهزة التى اتهمتنا اتهامات باطلة ، ثبت زيفها ، لذلك استماتت فى تعطيـل الافراج عنـا ، وواصلت معركتها للتصفية النفسـية والمعنوية للمعتقلين وأعادت المسجونين المفرج عنهم الى المعتقل ٠

عندما طلب عبد الناصر البدء فى الافراج ، طلب المصيلحى مهلة بحجة أنه لا يريد لنـا أن نخرج من المعتقل ولدينا احساس بأننا أبطال ، وأن سياستنا التى اعتقلنا بسببها ثبتت صحتها ، وزيف الاتهامات التى وجهت الينا ٠٠ كانت الأجهزة القديمة تعطل كل شىء مما يؤكد استحالة اجراء أى تغيير ثورى فى المجتمع بنفس هذه الأجهزة ٠

ولم يكن الأمر وقفا فقط على تآمر الأجهزة لتعطيل الافراج ، بل كانت القيادات التقدمية فى السلطة تريد أن تنفرد بها ، وتكره أن يشاركها أحد فيها أو يتطلع اليها ، كانت بأنانيتها وضيق أفقها تكره وجود تنظيم مستقل عنها ، حتى ولو تحالف معها ، لأنها لو قبلت بحقه اليوم فى التأييد فذلك قبول بحقه مستقلا فى الاختلاف .

انها ترفض من هذا التنظيم المستقل أن يضع نفسه بحريته تحت قيادتها ، انها تبغى فقط السمع والطاعة دون تنظيم فتتعامل مع الشعب كأفراد لا كتنظيمات أو تجمعات ، كانت هذه القيادات تطلب حل التنظيمات الماركسية قبل الافراج ، ودارت مراسلات بين عبد الناصر وقيادات التنظيمين داخل المعتقل بواسطة عدد من العناصر اليسارية الشريفة التى تؤمن بضرورة التلاحم بين عبد الناصر والماركسيين ..

كان التنظيمان الماركسيان قد اقتربا سياسيا بحلول عامى ٦٢ ، ١٩٦٣ وانحصر الخلاف فى طبيعة التأميمات وطبيعة السلطة. فبينما ترى « حدتو » أن الاجراءات تحول نحو البناء الاشتراكى وأن على رأس السلطة مجموعة اشتراكية ، ترى الراية أن الاجراءات ضربت الرأسمالية الكبيرة وقطاعات من المتوسطة وفتحت الطريق لبناء غير رأسمالى وأن السلطة هى سلطة الطبقة المتوسطة ثم تطور موقفهم بعد ذلك الى أن السلطة تقيم البناء الاشتراكى وأنها تعبر عن البورجوازية الصغيرة . أما (ع . ف) فترى أن الاجراءات رغم طابعها الوطنى والتقدمى لا تلغى قوانين المجتمع الرأسمالى وأن التأميم ليس اجراء اشتراكيا ، ولكن العبرة بعلاقات الانتاج القائمة ، وحركة التأميمات هى رأسمالية دولة وأن الديمقراطية هى

حجر الأساس فى الحكم على كل ما حدث ، وهى الضمانة لدفع التطور الاجتماعى (٢٢) ٠

ولكن هذا الرأى الأخير تطور الى التطابق مع رأى الراية الأخير ٠

وبعد الافراج أعلن كل من التنظيمين حل نفسه وانضمام الأعضاء الى الاتحاد الاشتراكى والتنظيم الطليعى ، وان كان هناك أفراد عارضوا ذلك وتمسكوا بمنبر مستقل للماركسيين مع التحالف أو الجبهة مع الاتحاد الاشتراكى ، ولكن ذلك لم يتحول الى فعل ٠

تم هذا الحل تحت ضغط السلطة لتكريس انفرادها بالقرار واخلاء الساحة من أى رأى مستقل ٠ لقد حفرت قبرها بنفسها ودفعها الحرص على الاستحواذ على السلطة وحدها الى عزل الجماهير وسلبها من كل سلاح تستطيع به أن تدافع عن مصالحها وعن مكتسباتها التى حققتها الثورة ٠

لذلك مع غروب عبد الناصر عن السلطة بوفاته ، ضربت هذه المكاسب ، ولم تجد لها قوة منظمة تستطيع الدفاع عنها ، لقد أجهض الحمق والحرص على السلطة كل المكاسب التى تحققت للشعب بنضاله وتضحيات أبنائه ٠

الضغط المعنوى للاستنكار جعلوه سبيلا للافراج :

يبدو أنه بعد استشهاد شهدى ، وما واجهه عبد الناصر من حرج فى يوغسلافيا ، وبعد أن اتضح هدف الاستعمار والرجعية

---

(٢٢) د٠ فتحى عبد الفتاح : شيوعيون وناصريون ، ص ٢٥٢ ٠

من ضرب الوحدة الوطنية ، واستعادة السيطرة على السلطة .
يبدو بعد هذا كله أنه كان هناك اتجاه قوى لتصفية المعتقلات فى مواجهة معارضة أو مراوغة مستميتة لتأجيل التنفيذ ، من قبل عناصر لها ثقلها فى أجهزة الدولة ، واستغلت المباحث هامش عدم الحسم من أجل الوصول الى تركيع واستسلام أكبر عدد ممكن من المعتقلين فى شكل التوقيع على ورقة الاستنكار وادانة الماضى السياسى ، كانت المباحث العامة أيضا تلعب على وتر رغبة حتى الجناح المتقدم فى السلطة ـ فى حل التنظيمات وعدم موافقته على وجود تنظيمات مستقلة خارج الاتحاد القومى .

كان حسن المصيلحى يتباهى بأنه لو كان فى كوبا لما وجد كاسترو ولا حزبه الشيوعى ، وأنه لن يسمح بوجود حزب شيوعى فى مصر .

من هنا اشتدت المباحث العامة فى ضغوطها المعنوية على المعتقلين لتحقيق هذه الأهداف .

فى أواخر نوفمبر ١٩٦٠ رحل من الواحات الى الفيوم ٨٠ معتقلا تمهيدا للافراج عنهم ، وصل هؤلاء الى الفيوم فوجدوا معاملة حسنة تختلف عما شهدته الفيوم قبل ذلك ، بل أفضل مما كانوا عليه فى الواحات .. لقد وجدوا العنابر مجهزة بسراير نظيفة وأبواب العنابر مفتوحة طوال النهار والتغذية جيدة وزيارة الأهالى والتعامل مع الكانتين مباحا ، كما سمحوا لهم بالجرائد والمجلات والكتب وكذلك الاستماع الى الراديو .. كل وسائل الراحة متاحة .

بعد أسبوع وصل المصيلحى وفرقته ليجنى ثمار التعذيب ، ويساوم على هذا الجو المريح مستخدما كل وسائل الترغيب

والترهيب .. استدعى كل معتقل على حدة وأخذ يوجه أسئلته : لماذا لا تخرج من المعتقل ؟ لماذا تبقى ؟ يمكنك أن تخرج الى أهلك فورا .. مطلوب منك فقط ورقة صغيرة تعترف فيها بأنك كنت مخطئا فى أفكارك وتتعهد بأنك لن تعمل بالسياسة بعد ذلك .. ويفاجأ الزميل بزيارة مفاجئة من أهله للضغط عليه للاعتراف والتعهد . الحرية مقابل ورقة .. بعض المعتقلين استسلم وأعلن استعداده للتوقف عن العمل بالسياسة ، ولكن هناك من رفضوا ، ووجدوا فى هذا اذلالا وامتهانا لكرامتهم وتحطيما لانسانيتهم .. وأجه هؤلاء تعذيبا نفسيا ومعنويا أقسى من التعذيب الجسمانى ، فقد سحبوا منهم كل الامتيازات التى تمتعوا بها فى الأيام الأولى ، وعزلوهم فى عنبر خاص بهم ، وجاءوا لبعضهم بأهاليهم يضغطون عليهم لكتابة ورقة حتى يتم الافراج عنهم ، فهذه زوجة لأحدهم جاءوا بها لترجوه بأن ينفذ ما يطلب منه ، وجاءوا بالأطفال الصغار يستغيثون بأبيهم ويبكون أمامه ، يشكون من سوء المعيشة وحاجتهم اليه ، وهذه زوجة تحمل طفلها وتسترحم زوجها : علشان خاطر الطفل ده اكتب ما يطلب منك ، وتصرخ فى وجه زوجها مش لاقيه آكله .

ـ اصبرى شوية .. معلهش .

ـ أصبر لأمتى .. لغاية ما انحرف علشان أأكل العيال .

ـ وزوجة تهدد زوجها بالطلاق ان لم يكتب الورقة .

وأخرى تمهله مدة ان لم يخرج أثناءها فسوف تلجأ الى المحكمة لطلب الطلاق .

وخطيبة ترسل لخطيبها عن طريق المباحث العامة تهدده بفسخ الخطبة ان لم يوقع ويخرج .

وأسفرت هذه الضـــغوط عن سقوط ٣٥ معتقلا استسلموا وكتبوا ورفض ٤٥ وعادوا الى الواحات فى يناير ١٩٦٢ ، ولكن قبل عودتهم دارت اشـاعات كثيرة ومتناقضـة حول الافراج عنهم أو تعذيبهم .

وقد أدى هذا الضغط النفسى الى أن فقد ثلاثة من الزملاء عقولهم وراحوا فى العنـابر والطرقات يهلوســون ، وطلبنا الافراج عنهم أو نقلهم الى المستشفى ، ولكن المباحث العامة رفضت ليصبح هؤلاء عبرة للباقين يؤكد مقولة المباحث العامة وشـعارها للمرحلة الجديدة : الموت فى الصحراء أو الجنون أو الافراج بعد كتابة ما يملى عليـــك .

وفى ١٢ فبراير ١٩٦١ وصل المصيلحى وأحمد صالح الى الواحات لمقابلة المعتقلين ، وطلب كتابة استنكارات ، ولكنهم واجهوه بعاصفة من الهجوم فعاد خائبا ، ولكن زيارته أكدت أن هناك رغبة فى السلطة لتصفية المعتقلات .

وفى هذه المرحلة من الضغوط النفسية حاولت المباحث ـ دون جدوى ـ استعمال نفس السلاح مع المسجونين الذين انتهت مدة عقوبتهم كاملة ، وأعادوهم الى الواحات مرة أخرى ولكن كمعتقلين فقدوا امتيازات المساجين التى تضمنها لهم لائحة السجون .

الاضراب عن الطعـام :

كان لضـغط المباحث العامة على المعتقلين طلبـا للاستنكار والمهانة ، وتخلى قيادة ع ، ف والراية عن المقاومة فى أبى زعبل ، وتحمل عذاب السخرة ، حتى جاء شهدى لينقذ الجميع باستشهاده ،

يضاف الى ذلك محاولة امتصاص تمرد القواعد والكوادر على الخط اليسارى الذى تتبناه (ع · ف) ، واحتدام الصراع السياسى والتنظيمى بين ع · ف والراية ·

كان لهذه العوامل أثرها فى اتخاذ الحزب الشيوعى المصرى (ع · ف والراية) قراره بدخول الاضراب عن الطعام ·

كان الاتجاه اليمينى (الراية) داخله يرى أن الاضراب مغامرة جديدة للخط اليسارى (ع · ف) والسبيل الصحيح يكمن فى معرفة الأسباب الحقيقية للاعتقال ، وفى رأى هذا الاتجاه أن موقف الدولة هو رد فعل لموقف التكتل منها ، فتغيير الخط اليسارى والقيادة اليسارية هما مفتاح الموقف ، وحل الأزمة برمتها ·

واتهم أصحاب هذا الرأى بأن منهجهم أقرب الى منهج مجموعة « حدتو » والتى رفضت الاضراب باعتباره استمرارا للخط اليسارى، وأن قضية الاعتقال يجب أن تحل سياسيا من خلال فكرة الوحدة الوطنية والتحالف بين القوى الوطنية ·· ومما تجدر الاشارة اليه أن معظم أعضاء (ع · ف والراية) يعترفون أن حدتو قد أرست تقاليد نضالية فى السجون والمعتقلات ·

وتاريخ اضرابات الشيوعيين عن الطعام فى السجون كانت تشهد دائما مواقف متعارضة بين التنظيمات المختلفة ، كما حدث فى يوليو عام ١٩٥٥ فقد أضرب المعتقلون من الحزب الشيوعى الموحد ــ وأغلبيته من حدتو ــ فى أوردى ليمان أبى زعبل ، وكانوا أغلبية كاسحة ، بينما رفض دخول الاضراب معهم زملاء الراية ، دش (ع · ف بعد ذلك) وأعلنوا هذا لادارة السجن حينما دخل علينا همت وفرقته ــ ونحن فى اليوم التاسع من الاضراب ــ وضرب

وكسر وجلد الكثيرين منا ـ وكنت واحدا منهم ـ وجمع ملابسنا وحاجياتنا ليسرقها العساكر ·

أما (ع · ف) فهناك رأى داخلها يدين الاضراب عن الطعام باعتباره أسلوبا سلبيا لا يليق بالمناضلين ، وهو يغذى الوهم بأن مثل هذه الأساليب يمكن أن تقود الى نتائج ثورية ، مما يتعارض مع التربية النضالية الواجبة ، ويضيفون الى ذلك أن الاضراب سينهك الزملاء صحيا ، وأن المطالب الأساسية لن يستجاب لها ، بينما المطالب الأخرى يمكن تحقيقها على مدى أطول وبخسائر أقل ·

أما مجموعة الأفق فرأت المزايدة فى هذه المعركة للتعجيز ، فطالبت بأن يستمر الاضراب حتى الافراج ·· وتغلب رأى أغلبية ع · ف الذى يطالب بدخول الاضراب بحجة أنه يمكن أن يوحد المعتقلين ويكون بمثابة اعلان جماعى ضد الاستنكار ·

كانت مطالب الاضراب هى الافراج ، والى أن يتم يجب تحسين المعاملة وتحقيق ظروف حياتية أفضل بالغاء السخرة وتحويل العمل فى المزرعة الى عمل اختيارى ، والسماح بزيارات الأهالى وتلقى خطاباتهم وطرود الأدوية والملابس والمأكولات ، والسماح للمعتقلين بارتداء الملابس الملكية الخارجية والداخلية ، والتحسين الشامل للطعام ، وزيادة التعامل مع الكانتين الى عشرة جنيهات للفرد الواحد فى الشهر ، وفتح الزنازين ليلا ونهارا ، والسماح للطلبة بتأدية الامتحانات واستلام كتبهم الدراسية ، والسماح بالصحف والمجلات والكتب والراديو والورق والقلم ، وتحويل من يستحق من المرضى الى المستشفيات المختصة ، وادانة سياسة الاستنكار ووقفها ، والافراج عن المسجونين الذين أنهوا مدة عقوبتهم وعدم تحويلهم الى معتقلين وتطبيق الافراج عليهم بثلاثة أرباع المدة ، وتشكيل لجنة سياسية قضائية للتحقيق فى جرائم القتل والتعذيب ·

دخل الاضراب حوالى ٢٥٠ معتقلا على دفعات بدأت فى أوائل يوليو ١٩٦١ وحتى اليوم الثالث عشر لم تكن الادارة قد تقدمت بأكثر من بعض التحسينات فى المعاملة وفى اليوم الخامس عشر ساءت صحة بعض الزملاء وسجل نائب الأحكام العسكرى الحالة وفى يوم ١٦ من الاضراب وصل رئيس النيابة العامة من القاهرة ووعد بنقل المطالب للجهات العليا وطمأن الجميع بمستقبل أفضل ، وبأنهم سيستمعون الى أخبار سارة فى نفس الليلة ـ ٢٣ يوليو وفعلا صدرت قرارات التأميم الواسعة ٠

أحس المضربون أنهم قد اختاروا الوقت الغير مناسب للاضراب، وأن الاستمرار فيه بعد صدور قرارات يوليو يعتبر خطأ كبيرا ، وأحسبت القيادة التى اتخذت قرار الاضراب بالحرج الشديد ، فهذه القرارات تتعارض مع خطهم السياسى اليسارى ومع الاستمرار فى الاضراب ، وأنهم لا يستطيعون أن يتخذوا موقفا يتعارض مع السياسة الرسمية للحزب ، ونصحهم أحد القياديين فى الراية وهو فى نفس الوقت مسئول الاضراب بأنه يمكن التصرف واتخاذ قرار بفك الاضراب دون الاشارة الى موقف الحزب ولكن زميلا من الأقلية علق على نصيحته بلهجة التشفى من موقف الأغلبية قائلا : أفتكر مش مهمتك انك تطلعهم من الورطة !

ومما يذكر أن زميلا سأل ابراهيم هرارى وهو من المنظرين لسياسة ع ٠ ف : ايه رأيك يا زميل هرارى فى قرارات التأميم ؟ فقال : ضربة حاسمة للبورجوازية الكبيرة ٠٠ فسأله الزميل : فقط ؟ فقال : وقطاعات هامة من البورجوازية المتوسطة ، وضحك من كانوا واقفين وقالوا : يعنى مش تدعيم للاحتكارية يا زميل هرارى ؟ ويبتسم ثم يقول : هذا كلام يعاد فيه النظر ٠

ورأى هرارى له أهميته لأنه يملك ثروة نظرية ، كما كان أحد المحامين القلائل للشركات المصرية الكبرى ، وكان بحكم عمله يعرف الكثير عن الاقتصاد المصرى .

غير هرارى رأيه هذا بعد أن كلفته قيـــادته أن يلقى خمس محاضرات متتالية تتلخص فى أن هذه القرارات تدعيم لرأسمالية الدولة الاحتكارية (٢٣) .

المقاومة بحركة ثقافية وفنية :

بعد صـــدور قرارات يوليو ١٩٦١ التأميمية ثم رد الرجعية عليها بالانفصال السورى ، وما أعقب ذلك من صدور ميثاق العمل الوطنى ، يضاف الى ذلك رفض الأفراج الملوث بالاستنكار والمهانة ، كان لهذا كله أثره فى احساسنا بالثقة والأمل فى انفراج المحنة .

كان المطلوب تجميد عقولنا بتحريم الورقة والقلم واعتبارهما من الكبائر .. وباحســـاس ذاتى بالدفاع عن النفس تحدينا هذا التعسف ، بل وتحدينا فقر الرمال وتيهها فى هذه الواحة الموغلة فى الصحراء .

كان علينا أن نتذكر كل ما خزناه فى عقولنـــا من ابداعات الانسانية لننشره بين الزملاء ، كنا كتبا متنقلة ، كان نبض الحياة يشع فى أعماقنا ، وكان الأمل فى حياة متجددة يملأ حياتنا .

تفجرت فى مواجهة حمـــلة الاستنكار حركة ثقافية لمقاومة التصفية واليأس اتسمت بالعناد لاشاعة الثقافة والضحكة والمرح فى شكل تمثيليات ومسرحيات وأغنيات وأشعار ومحاضرات ثقافية

---

(٢٣) مصطفى طيبة : رسائل سجين سياسى الى حبيبته ، جـ ٢ ، ص ١٢٦ ، ١٢٥ .

وتعليمية من أجل مزيد من الانتـــاج الفـــكرى والروحى والتوعية السـيـاسية لحماية أرواحنا وعقولنا ، ومن أجل مزيد من الانتاج الزراعى لانقاذ أجسامنا من الأمراض والعلل ، حتى ننتصر فى هذه الواحة المتطرفة على الجدب وافقار العقول ·· خلقنا حياة مزدهرة خففت من أحاسيس الوحشـــة ، وتفـــاعلت خبرات المعتقلين مع المسجونين القدامى ·

من هنا تنوعت الأشـــكال الثقـــافية والفنية التى ترفع من معنويات الانسان وتصلب ارادته وتشحذ قدراته الابداعية ·· كانت هذه الأشكال ردا فكريا على الواقع المر الذى وضعنا فيه ·

المحـــاضرات :

نظمت المحاضرات فى جميع فروع المعرفة ، حتى يصبح السجن بحق مدرســـة للثـــوار ·· كان المحاضرون يتنقلون بين الزنازين أو يلقون محاضراتهم فى طرقة العنبر أو فى موقع السخرة فى فجوات الأرض بين الرمال والأشواك أو فى المسرح فيما بعد أو فى حفرة فى المزرعة أو فى حجرة الاستراحة بها ويتجمع الزملاء حول المحاضر ·· كان الهدف التسلح بالنظرية وفهم الواقع وقضاياه والتزود بالثقافة العـــامة ·

من المحاضرات التى أقيمت بالمسرح محاضرات فى الاقتصاد قدمها عادل حسين بعد اجراءات يوليو ١٩٦١ يدلل بها على صحة الخط السياسى للحزب الشيوعى المصرى (حدتو) ، وقدم الدكتور فوزى منصور فى نفس الموضـــوع عدة محاضرات يؤكد بها صـــحة خط (ع · ف) ، وقدم أحمد طه عدة محاضرات عن الحركة النقابية فى مصر ومحمد على عامر قدم خبرته فى الحركة العمالية المصرية ،

كما قدم فؤاد حداد على المسرح وفى العنابر كثيرا من أشعاره : ملحمة أوردى ليمان أبى زعبل عن استشهاد شهدى وتعذيب زملائه، وبعض الرقصات وقصائد عن أبنائه مثل قصيدة عن عيد ميلاد ابنــــه :

اللى‌لادى (الليلة دى) اللى‌لادى قــال لى أمين وأمين كـــروان

فاتت سنة على يوم ميلادى

كبرت صبحت كبير الشانْ

بوسة وبوسة وبوسة كمان

بوسة شقاوة وبوسة جنان

بوسة تخلى الفجر يطلع

بوسة تخلى الصبح يبان

وقصـــيدة عن ابنه الذى افتقد حضـــنه وأخذ يبحث عنه ويتحسسه على السرير بجانبه :

على السرير بارد وخالى جنبى يابا مطرحك

أنا جسيته وسابت من عيونى دموع وسالت

وأنت يا باب مقفول وساكت امتى بابا يفتحك

وانت ياسلم ياسلم امتى بابا يطلعك

امتى بابا ينام بطوله جنبى ودراعى ينوله

ياالكلام اللى بقوله امتى بابا يسمعك

وأتحفنا فؤاد حدا بقصيدة عن السلام والحرية ورمز لهما بعنتر وعبلة :

عنتر ملك فى القوافى الحرب وغزلها
عشق حورية اسمها الحرية وغزالها
ذوبيان وطى وضرب فى الحى بالحدين
والسلم كان حلم ما اتلمت عليه يدين
ان عاد لعبلة قطف قبلة من الخدين
وجمع فى ثوبها خيوط الشمس وغزلها
دلوقت عنتر وعبلة فى كل حى كتار
دلوقت للسلم والحرية نفس التار
والسجن تضحية والحر اللى ما يختار
مش قبلة لكن براح الدنيا مغزى لها

كما قدم فؤاد حداد بالاشتراك مع متولى عبد اللطيف قصيدة الشاطر حسن ومطلعها :

كانت مهرة مالهاش شهرة الاهلال أبيض على القورة

كذلك قدم محمود شندى بعض أشعاره ، كما قدم محسن الأعسر تجربة الكفاح المسلح فى القتال عام ١٩٥١ وقدم رؤوف نظمى أغنية لولاك يابكره :

ولولاك يابكره ما كان النوم سكن عينى
ولا كنت أشوف فى المنام من كان تعشقه عينى
ولا كنت أسهر وأغنى وأقول ياليل ياعينى

وغنى لنا الشاعر مصطفى كمال حسن فؤاد من تأليفه

يا عطشجى القطر الميرى خليك مستنى شوية
عالسلم طالع طيرى وأنا سانده برمش عنية
قطرك عمال يتنهد وضلوعه حديد فى حديد
ايش حال قلبى المتسهد ايش حال والشوق بيزيد
بقالنا كتير نستنى أيامنا الحلوة تجينا
نزلنا قبل الجنة ونكمل على رجلينا
يا عطشجى القطر الميرى خليك مستنى شوية

كما ألقى علينا قصيدته عن السد العالى ومطلعها :

اعلى كمـان اعلى كمـان خلى شواشى الفجر تبان
يامنور من عند أسوان طل علينا واعلى كمان

وأقيمت جامعة شعبية يحاضر فيها عديد من المثقفين وأساتذة الجامعـــات ، ويعقدون الامتحانات لروادها ويمنحونهم الدرجات ويقيمون لهم الاحتفالات عند تخرج كل فوج .

والى جانب المحاضرات ازدهرت الندوات والمسابقات والمناظرات والمنتديات العامة فى العنابر وفى المزرعة واشترك فيها محمود أمين العالم ومحمد صدقى وابراهيم عبد الحليم وزكى مراد وصلاح حافظ وفتحى خليل وصـنع الله ابراهيم ومعين بسيسو وأمير اسـكندر ومحسن الخياط ورءوف نظمى .. وفيها تفجرت طاقات مبدعة فى القصة والرواية والمسرحية والشعر .

كما جذبت الصحافة الناطقة أعدادا كبيرة من المعتقلين والمسجونين فى طرقات العنابر ، كانت هناك مجلات أسبوعية تسمع ولا تقرأ ولها مكان وموعد محدد ، أصدرت حدتو مجلة الهواء ويرأس تحريرها محمد صدقى كسبه • ومصطفى كمال حسن فؤاد ، كما أصدرت ع • ف والراية المجلة الناطقة ويرأس تحريرها طاهر عبد الحكيم وأديب ديمترى وفتحى عبد الفتاح ، وأصدر مجلة الأفق تكتل من الراية ويرأس تحريرها فيليب جلاب ورؤوف نظمى •

كما ظهرت وكالة « واس » لعبد الستار الطويلة

كانت كل مجلة تعبر عن رأى التنظيم الذى أصدرها وتشتمل على تحليلات سياسية وبحوث نظرية وتاريخية ومناسبات وطنية أو قومية ، كما كانت تشترك فى الصراع بين التنظيمات ، وتقدم تعليقاتها على الأخبار ، كما تقدم نقدا أدبيا ومسرحيا •

المسرح :

مثلت بعض المسرحيات فى طرقة العنبر ، ثم نبتت فكرة بناء مسرح رومانى وضع تصميمه المهندس فوزى حبشى ، وأصدر الأستاذ حسن فؤاد مجلة يومية باسم « المسرح » لتثير الحماس لبنائه فى الركن الشمالى الشرقى من فناء السجن وكان يعاونه داود عزيز ، وقد صدر العدد الأول منها فى ١٢ يناير ١٩٦٢ •• كان الهدف أن يتم البناء ليقدم أول عرض عليه فى يوم المسرح العالمى فى ٢٧ مارس ١٩٦٢ •

كانت المشكلة هى ضرب كمية كبيرة من الطوب بما يكفى بناء المسرح ، وقام الزملاء بعدد من التجارب حتى يصنعوا طوبة صلبة ، ولكنها لم توفق ، وحل المشكلة الرفيق محمد شطا وهو عامل نسيج

وقائد نقابى قديم قاد العديد من الاضرابات العمالية وكان أحد قادة حدتو ، فأشـــار الى تكوين خلطة من تراب الصـــحراء + طين الصلصـــال + تبن = عجينة متماســـكة اذا جففت فى الشمس اكتسبت الصـــلابة ، ونجحت التجربة وبدأ العمل خمســـون زميلا لضرب الطوب ومثلهم لحفر أرضية المسرح ، وكانت المساحة المطلوب حفرها من الأرض ٢٠٠ × ٥٠ مترا وبعمق مترين فى المتوسط .

وأقيمت مســـابقات للحفر وضرب الطـــوب بين الزنازين ، وســـجلت زنزانة محمد شبـــطا الرقم القياسى فى عدد الطوب الذى أنتجته ، وكانت الجوائز توزع على الزنزانة الفائزة فى مسابقة ضرب الطوب أو الحفر .

فى أول يوم بدأ فيه الحفر وضرب الطوب لبناء المسرح مثلت فى طرقة أحد العنابر مسرحية العتمة لشـــوقى عبد الحكيم والتى أخرجها داود عزيز لتثير حماس الزملاء للمشاركة فى بناء المسرح .

كان للمسرح مدرجات دائرية كمقاعد للفرجة على هيئة حدوة حصـــان .

تم بناء المسرح فى الموعد المحدد وعرضت عليه أولى المسرحيات فى يوم المسرح العالمى عام ١٩٦٢ .

مثلت على المسرح مسرحيات : حلاق بغداد لمؤلفها ألفريد فرج ومسرحية الخبر عن حرية الصحافة وألفها ومثل فيها صلاح حافظ ، ومسرحية عائلة الدوغرى والناس اللى تحت لنعمـــان عاشـــور والسبنسة لسعد وهبه وبعض مسرحيات لشكسبير وبول ســـارتر وبرنارد شو وابسن ونجيب الريحانى ، وقدم حسن فؤاد « بيت

الدمية » « لإبسن » وفصلا من « ماكبث » ، كما ترجم لويس بقطر مسرحية « ماكبث » وقام باخراجها .

وقد رسم صبحى قلليني لوحة وضعت على الحائط الكبير فى المسرح لحمامة السلام ومساحتها عشرة أمتار فى ستة أمتار ، كما أعد وجهين أحدهما ضاحك والآخر باك .

وقد برع فى الاخراج صلاح حافظ وحسن فؤاد ولويس بقطر ، وأشرف ألفريد فرج على بعض المسرحيات ، وقام الفنانون بالمشاركة فى حياكة الملابس من ورق الكوريشة بألوانه المتعددة .

وكشف التمثيل عن مواهب متنوعة منها : على الشريف وأحمد حجازى وفخرى مكارى ومحمد حمام وخالد حمزة وصلاح حافظ ونبيل الهلالى وعدلى عزيز ومصطفى عبده وابراهيم مرسى ومحمد سعدة .

وقد حضر المحافظ ومأمور السجن وضباطه وبعض موظفى المحافظة بعض هذه العروض المسرحية وأعجبوا بها .

لعب المسرح دورا كبيرا فى التثقيف والترفيه ورفع المعنويات .

كما كان هناك مسرح العرائس الذى قدمه صلاح حافظ وبدأ أقرب الى الأراجوز ، ثم تطور الى مسرح عرائس حقيقى .

المكتبة :

نشطت الجهود لتكوين مكتبة فقام الزملاء باستجلاب بعض كتبهم الخاصة لاثراء مكتبة السجن حتى وصل عدد الكتب بها الى عشرة آلاف كتاب من النوع الجيد فى أفرع الثقافة والعلوم المختلفة .

التأليف والترجمة والنشر :

نشطت حركة التأليف والترجمة وأبدع الفنانون في اخراج هذه المؤلفات والمترجمات ، ووفرت الأوراق والأقلام وفرق للنسخ والاخراج والتجليد ثم التوزيع واعداد المخابىء ، وكانت تنسخ ثلاث نسخ لارسال أحداها الى الخارج وتبادل نسخة أخرى للقراءة أما الثالثة فتؤمن للطوارىء .

الفنون التشكيلية :

لعبت الفنون التشكيلية دورا كبيرا في تليين الادارة وكسب ودها وكسر حالات الطوارىء والتشديد في المعاملة ، فأنشئت المراسم والأتيليهات وأفران الخزف ورسمت مئات الصور للزملاء وللضباط وزينت العنابر خاصة في المناسبات الوطنية والقومية والدينية . زاد عدد المشاركين في فنون الرسم والنحت والخزف وصب الجبس . فانتشرت هذه الأعمال في كل ركن من أركان السجن ، وازداد عدد المتذوقين للفن . وعرضت أعمال الفنانين في طرقات العنابر وظهرت قدرات ابداعية على مستوى عالمي مثل الفنانين جبشى فؤاد وزهدى ، وكل منهما كان له أتيليه خاص ، وليم اسحق (الملك) وداود عزيز وعبد الوهاب الجريتلى ... الخ .

لقد شهدت السنتان الأخيرتان في سجن المحاريق نشاطا فنيا وثقافيا وفكريا وسياسيا واسعا لم تشهده أي بقعة أخرى من أرض مصر . كانت الحصيلة عظيمة في الحوار الفني والثقافي ، أما الحوار السياسي فكانت حصيلته أقل ، فقد تجمد الكثيرون على مواقفهم ، بينما تعاون المثقفون والفنانون من مختلف الاتجاهات . كانت المواهب الجديدة تلجأ اليهم بغض النظر عن التنظيم الذي ينتمي اليه هذا أو ذاك .

الألعـــاب الرياضـــية :

لحماية أجســـامنا حدث الاهتمام بالرياضة ، فكونت الفرق المختلفة : فرقة للكرة الطائرة وأخرى للسلة وهناك حمل الأثقال والتنس والمشى ، ولكل فرقة زيها الرياضى وحكامها وجمهورها .

الحياة داخل الزنزانة :

نظمت الحياة داخل الزنازين ، فلكل زنزانة عمدة يشرف على توزيع العمل بها فيكل زميل عليه نبطشية يوم فى خدمة الغرفة من استلام اليمك ، وتحسين طهيه بما يتوافر من امكانات خاصة بعد أن وفرت المزرعة لنا كثيرا من خيراتها ، وعليه مسح وغسل الأرضية يوميا وغسل القروان وغسل جردل البول بالتراب وبالمياه يوميا وكذا جردل الشرب ، وفى المساء يكون هناك زميل قد أعد نفسه لرواية قصة أو مسرحية أو بعض خبراته ، وقد تشترك الحجرة فى مناقشات سياسية أو تنظيمية بينما يقوم كل اثنين من المدخنين يتدخين نصف سيجارة ، وفى أحسن الأحوال سيجارة كاملة وينجز ، وأحيانا يتم هذا بعد اعـداد أكواز الشـــاى فى حالة اليسر وفـك التـكديرة .

كانت حياة السجن فى فتراته الأخيرة أشبه بمعسكر للكشافة، أبواب العنابر مفتوحة والتجول حر فى جوش السجن ، والشراء من الكانتين مباح ، وزيارات الأهالى لا تنقطع عن الموسرين لمشـــقتها وتكاليفها التى لا يتحملها الكثيرون ، والخروج الى المزرعة يعد نزهة ، والأعمال الفنية معروضة فى أركان السجن ، ونشرات واس متتالية تحمل لنا أخبار مصر والعالم من الترانزستورات السرية ، وراديو السجن يذيع الأخبار والأغانى والخطب السياسية ، هذا الى جانب الصحف الناطقة ، والكتب المؤلفة والمترجمة .

لقد أنطقنا الصخر وجعلناه ينبت الزهور ، فبين عنبرى ١ ، ٢ كانت الأرض صخرية حجرية فأقمنا عليها حديقة وشجرا وأحواضا للزهـــور .

بنـــاء المســـجد :

لم يكن بسجن المحاريق مسجد ، رغم وجود الاخوان المسلمين فيه لفترة طويلة وتمتعهم بحرياتهم داخله ، ورأى الشيوعيون علاج هذا النقص ، فقام حسن فؤاد والفنان زهدى وداود عزيز وعبد الوهاب الجريتلى بوضع تصميم لبناء مسجد داخل السجن ، شارك الجميع فى بنائه ، فقد قام الزميل محمد برق بصنع نموذج من الخشب لقالب الطوب وتعاون الزملاء فى ضرب كمية كافية من الطوب بنفس العجينة التى بنى بها المسرح ، وقام الزميل على الشريف والزميل عبد المنعم ناطورة وآخرون بالبناء .

وكان تعليق موظفى السجن أن من يقال انهم كفرة قاموا ببناء مسجد ، بينما الاخوان لا يفعلون شيئا سوى النوم تحت الشجر وبجوار حوش السجن .

صراع سياسى مفتوح :

فتحت حرية الحركة داخل سجن الواحات الباب لصراع سياسى مفتوح وعنيف بين التنظيمات الســـياسية من جهـــة وداخل هذه التنظيمات من جهة أخرى .. أعلن هذا الصراع عن نفسه من خلال المجلات الهوائية ومن خلال المناظرات والتقارير المكتوبة ، والاجتماعات التنظيمية أو المفتوحة ، والنقاش المحتدم داخل الزنازين وفى طرقات العنابر ، وحوش السجن وفى المزرعة ، ومن خلال هذه المنابر تبلورت ثلاثة اتجاهات :

الاتجاه الأول :

ويقول به الحزب الشيوعى المصرى (حدتو) يرى أن على قمة السلطة مجموعة اشتراكية يجب مساندتها وانجاز وحدة عمل معها ، وأن تأميمات يوليو الواسعة تضرب النمو الرأسمالى وأن ميثاق العمل الوطنى يأخذ بالمنهج الاشتراكى فى التطور ويقترب من الاشتراكية العلمية ، ويفتح الطريق لتحقيق الاشتراكية . وهذا الرأى لم يقولوا به بعد اجراءات يوليو ١٩٦١ وانما كان رأيهم قبل ذلك بكثير .

فقبل حملة الاعتقالات فى أول يناير ١٩٥٩ كان رأيهم أن عبد الناصر ومجموعة معه تمثل القوى المتقدمة فى البورجوازية الوطنية ، وكانوا يسعون لاقامة تحالف مع عبد الناصر ومجموعته فى السلطة ، ويعتبرون أن فى السلطة قوى يمينية تحاول ضرب هذا التحالف ، وجر عبد الناصر والحكومة ككل بقيادته الى الاتجاه اليمينى .

وبعد الاعتقال وبعد تأميم بنك مصر فى فبراير ١٩٦٠ وقبل محاكمة قضية شهدى بالاسكندرية عقدوا كونفرنسا سياسيا استمر سبعة شهور فى الاسكندرية وفى أبى زعبل وفى سجن القناطر وظهر فيه رأيان الأول يقول اننا فى مرحلة الثورة الاشتراكية ، وان هناك مجموعة فى السلطة هى ليست كل السلطة لها أفكار اشتراكية لكنها غير علمية .

وكان هناك رأى آخر يرفض فكرة المجموعة الاشتراكية ، غير أن الكل كان يعتبر عبد الناصر رجلا وطنيا .

انتهى الكونفرنس باصدار قرار المجموعة الاشتراكية الذى يقـــول :

انه بتأثير الحركة الشيوعية في مصر والمواقف الوطنية لهذه المجموعة « مجموعة عبد الناصر » وصدامها مع الرأسمالية الداخلية واتجاهها الوطني والاستقلالي عن الامبريالية العالمية وتأثير الأفكار الاشتراكية في العالم ، كل ذلك قد أدى الى وجود اتجاهات اشتراكية غير علمية ، لم تصل الى الفكر الماركسي اللينيني وان ذلك قد نشأ خلال الاتجاهات التجريبية لهذه المجموعة ، ورأى المجتمعون أن الموقف منها هو وحدة العمل من أجل الأهداف الوطنية الديمقراطية ، وفي الوقت نفسه العمل على دفعها في اتجاه الاشتراكية العلمية ، وكان في تقديرهم أنه توجد ظروف موضوعية تسمح بدفعها في هذا الاتجاه ، اتجاه تبني الماركسية اللينينية ، وأن هذه المسألة يمكن أن تحدث أو لا تحدث ، الا أن لهم دورا في اتجاه هذه المحاولة، وكان في تقديرهم أن فكر عبد الناصر يتطور الى الأمام وليس الى الوراء ، يتطور مقتربا من الماركسية ، وليس مبتعدا عنها .

كانت حدتو ترى أن الثورة الاشتراكية يمكن انجازها بحزب الطبقة العاملة الذي يتكون بوحدة الشيوعيين مع المجموعة الاشتراكية ، وأن هذا الحزب سوف يكون بقيادة عبد الناصر على أساس أن عبد الناصر سوف يتحول الى الاشتراكية الماركسية ــ كما فعل كاسترو ؛ وأن هناك ظروفا تمكن من هذا التحول .

الاتجـــاه الثـــاني :

وتمثله الراية وهي ترى أن حركة التأميمات تضرب وتصفي الرأسمالية الكبيرة وقطاعات من المتوسطة وتفتح الطريق أمام نمو غير رأسمالي ، لكنها اذا لم تقترن بتوفير مناخ ديمقراطي للجماهير ستكون عاجزة عن أن تتسم بالعمق والمحتوى الاجتماعي .

الاتجـــاه الثـــالث :

وتتمسك به ع · ف التى ترى أن التأميمات نوع من رأسمالية الدولة الاحتكارية وهى تدعم النمو الرأسمالى ·

والحقيقة أن الاتجاه الأخير قد فوجىء باجراءات يوليو ١٩٦١ التى لم يتوقعها أبدا انطلاقا من موقفه الفكرى اليسارى الذى رفع شعار اسقاط النظام ، لكن بعض رموزه ــ وقد أخذتهم المفاجأة ــ كانت بادرته الأولى ــ التى صرح بها حين سئل عنها ــ متعاطفة مع هذه التأمينات واقترب من التقييم الموضوعى لها ، ثم سريعا ــ أمام حملة الهجوم عليه ــ تراجع وحاول أن يلملم نفسه ويجتزىء من هنا أو من هناك بعض النصوص يقتبسها بقسوة بعيدا عن مناخها وسياقها ليرد بها على الهجوم الكاسح الذى تعرض له ويبرر بهـا سياسته اليسارية وفكره المنحرف ومثال ذلك ما حدث من الدكتور ابراهيم أرنست هرارى وهو أحد المنظرين للاتجاه الأخير حين سأله أحد الزملاء عن رأيه فى قرارات يوليو ١٩٦١ ــ وسبق أن أشرنا الى هذه الواقعة ·

ومثال آخر هو ما حدث من « أبو سيف يوسف » السكرتير العام للحزب الشيوعى المصرى (ع · ف ــ الراية) فقد غير رأيه اليســـارى بعد قرارات يوليو ١٩٦١ وأعلن رأيا قريبا من رأى (حدتو) أمام المحكمة عند محاكمته وأصدر به تقريرا وظل على هذا الرأى حتى وصل الى الواحات وأعلن أنه لن يرضخ لأى ضغوط لتغيير رأيه الذى أعلنه أمام المحكمة ، وكان هناك أمل كبير لتيار (الراية) أن يســتمر على رأيه ولا يخضع لضـغوط زملائه من « ع · ف » وهو تياره التاريخى ، ولكن حدث العكس فقد ضغطوا عليه وصوروا له أن استمراره فى موقفه لا يعنى سوى هزيمة تياره

التاريخي لصالح تيار تاريخي آخر ، فما كان منه الا أن قدم نقدا ذاتيا لنفسه في بيان له في اجتماع عام بطرقة أحد عنابر السجن ، ذكر فيه أنه اكتشف أنه وقع تحت تأثير سياسة حدتو وانزلق دون أن يدرى ـ الى الفكر اليميني ، لأنه كان وحده في الخارج بعيدا عن زملائه ، ولما اجتمع بزملائه اتضح له أن رأيه السياسي خطأ ويلتقي مع الآراء المعادية للطبقة العاملة ، وأنه الآن يوافق على خط الحزب الطبقي ويستنكر آراءه السابقة التي تخدم مصالح البورجوازية وتلتقي مع الفكر الرجعي واليميني !

وقبل أن يلقى سكرتير الحزب بيانه قدمه أحد زملائه القياديين، فندد بالفكر اليميني البراق الذى استطاع أن يؤثر في سكرتير الحزب وجعله يقف موقفا سياسيا خاطئا لكن زملاءه استطاعوا بالمناقشة أن يساعدوه على اكتشاف أخطائه المدمرة .

وبعد هذا المشوار الطويل في الانحراف اليساري أدرك بعض قادته الهوة الخاطئة التى اندفعوا اليها فحاولوا التماس العذر لهذا الشطط .

فأرجعه حلمي ياسين ـ بعد الافراج ـ الى صدور الأحكام القاسية في قضيته بعد اجراءات التأميم مما جعل الرؤية لهذه القرارات غير دقيقة (٢٤) .

مع أن الانحراف اليسارى سابق على صدور الأحكام بزمن طويل .

---

(٢٤) د. فخرى لبيب) الشيوعيون وعبد الناصر ، جـ ٢ ، ص ١٧٠ .

... ويبدو أن تجميع الشيوعيين في الواحات واحتدام الصراع السياسي بينهم كان مقصوداً من النظام لتصفية القضايا المثارة بينه وبين الشيوعيين باتاحة هذا المنتدى الفكري الذي يتحاورون داخله حول ما أنجزه النظام عملياً وما طرحه فكرياً ، وقد دار في هذا المنتدى حوار شاق وعميق ، يتضح منه خصوبة الفكر الشيوعي المصري على اختلاف اتجاهاته ، فقد طرحت في الواحات أفكار سابقة طرحت بعد ذلك في تجارب العالم الثالث في التنمية الاقتصادية والاجتماعية وفي النزوع الى التحولات الاجتماعية ذات الأفق الاشتراكي ، لقد شحذ الصراع في الواحات فكر الشيوعيين ازاء الانجازات العملية والفكرية داخل المجتمع ، فتحاوروا فيما بينهم لاثبات صحة النموذج الناصري للتنمية ، وكان النظام يستفيد من هذا الحوار في تخصيب أفكاره ومواقفه [illegible]

[illegible]

كانت قرارات يوليو ١٩٦١ تفترض الافراج عن الشيوعيين

لكن يبدو أن عبد الناصر أخر هذه الخطوة حتى يصل الشيوعيون بأنفسهم - ومن خلال تناطحهم - الى صحة النموذج الذي يصنعه عبد الناصر للتنمية وعدم جدوى النموذج الذي يطرحه الشيوعيون ، الاقرار بهزيمتهم فكريا هذا بالاضافة الى انحياز عبد الناصر موضحه واقامة الأدلة على صحته من خلال واقع الحياة العملية في مصر والصراع الفكري داخلها ، وبالفعل لم يتم الافراج عن الشيوعيين الا بعد أن تقاربت كل الأفكار من فكر النظام .

... لم يكن المطلوب فقط الايمان بالنموذج الناصري في التنمية ، انما كان المطلوب أيضا ونتيجة لذلك حل التنظيم المستقل وهي الفكرة التي طرحها السادات على محمود أمين العالم عام ١٩٥٨ وهدد بالشنق وبعزل الشيوعيين عن الجماهير عن طريق منافستهم في تنفيذ شعاراتهم ... ألم يكونوا على استعداد للمشاركة أخذا معهم

في الرأي أو الحكم ، لذلك رفضوا أي شكل تنظيمي مستقل حتى ولو كان مؤيداً لأنهم لو قبلوا بحقه في التأييد اليوم فذلك يعني القبول بحقه مستقبلاً في الاختلاف ، وهذا مرفوض من جانبهم ، لأنهم لا يقنعون الا بالسلطة الشاملة .

الرحلة الى أسيوط :

كسرت نظارتي في حفلة الاستقبال بأوردي ليمان أبي زعبل يوم ٩ نوفمبر ١٩٥٩ وعشت بلا نظارة عاماً ونصف العام لا أبصر الأشياء جيدا ، ومع ذلك تحملت وتحمل غيري ما كان يعانيه من أمراض ، بل لقد تورات هذه الأمراض ، وبدا وكأنهـــا اختفت واستوعبها الجسم بالحساسية بالخطر الذى كان يتهدده كل لحظة أمام آلة التعذيب الرهيبة ..

ولكن ما ان هدأت المخاطر الخارجية التى كان يتعرض لها الجسم حتى بدأت الأمراض تتكالب عليه وتعرض الزملاء لعديد منها فأخذت تلح طلبا للعلاج حيث يتوفر هذا العلاج في القاهرة أو في أسيوط .

لم تكن المعاملة في الفترة التي سبقت استشهاد شهدي تسمح بالموافقة على التحويل للمستشفيات المتخصصة للعلاج ، أما بعد استشهاد شهدي ووقف التعذيب فقد بدأ أطباء السـجن يكتبون بالتحويل وتوافق المباحث العامة بعد مراوغات .

وبالنسبة لى تمت الموافقة على ترحيلي الى سجن أسيوط ومن هنـاك الى مستشفى أسـيوط الأميرى لاجراء كشف نظارة تمهيدا لعملهـــا .

في أول ابريل ١٩٦١ رحلت بالأوتوبيس من أمام السجن في حراسة ضابط وثلاثة عساكر من المحاريق الى أسيوط ٠٠ بدأت السيارة تمرق بنا وسط الرمال الصفراء والحجارة الصماء والتيه الشاسع والحرارة المحرقة ، ونودع معها مؤقتا مظاهر الحياة التى ان تنوعت فهي راكدة محدودة وحين أصبحنا على مشارف وادى النيل ، بدأ الهواء المنعش يهب علينا ويرطب قلوبنا وينعش مشاعرنا بحياة متدفقة ، وانطلق العمال الصعايدة الذين يعملون بالوادى الجديد ، وهم الآن يعودون بالأوتوبيس الى قراهم لقضاء اجازاتهم بها ، انطلقوا فى أغانيهم التى تمتلىء بالحنين والشوق الى أهاليهم وقراهم والى النيل والخضرة :

بلدى يابلدى وأنا نفسى أروح بلدى

ياعزيز عينى السلطة خدت ولدى

ارتعش جسمي وانتفض جلدى ، كان الاحساس أننى أنتقل من العدم الى جو ينبض بالحياة والخضرة ٠٠ رياح النيل تهب علينا فتحيي الآمال ٠٠ نرى خـــلال الطريق مياه النيل تتدفق ، ونرى الفلاح يكد فى أرضه منحنيا عليها يعزقها أو يرويها ، كما نرى أولادا صغارا وبناتا ونساء ورجالا عاديين يمشون فى الطرقات ، ونسمع أصوات العصافير وهى تمرح وتطير بين أغصان الشجر ٠٠ مناظر غابت عنا لفترة طويلة ٠٠ لذلك كنت أعيش كل دقيقة تمر بى ، والسيارة تخترق المزارع وتطل على النيل ، كنت أملأ عينى وصدرى وحواسى بالحياة التى نمر بها ، كما كان نظرى ينعطف أحيانا لتأمل مناظر الركاب بالسيارة ٠٠ مشاهد أردت أن أعوض بها الرصيد الذى استنزف فى السـجون والمعتقلات طوال العامين الماضـيين ٠

ومع ذلك كان هناك الاحساس بالقلق والحرمان ، فهذه الرحلة بالأوتوبيس التى استغرقت ثلاث ساعات كان يقطعها القطار البطىء فى ١٢ ساعة ، لكنني لن أرى أهلى ولن أكون حرا فى تنقلاتى ٠٠ لم أشعر بالزهو حين وجدت تشريفة ضخمة فى انتظارى ، جيشا من العساكر والضباط ، أحاطنى هذا الجيش وأنا فى الطريق الى سجن أسيوط وقد تجمع الناس على جانبيه يرصدون فى سخط وتعجب هذا المشهد الغريب لشاب أفندى مقيد بالسلاسل يلبس بدلته ويحمل حقيبته ويحيط به جيش شاهر سلاحه ٠٠ أى خطر يمثله هذا الشاب ؟! الله فى عونه من هذا الظلم ٠

وصلت الى السجن ووضعت فى احدى الزنازين منفردا ، لأن أوامر المباحث عزلى عن الاختلاط بالمساجين ٠

سجن أسيوط يشبه سجن مصر فقد شيد على النظام الانجليزى ثلاثة أو أربعة عنابر يضم كل منها أربعة أو خمسة أدوار ويحتوى كل دور على خمسين زنزانة ٠

ويتميز سجن أسيوط عن سجن مصر مثلا بأن غالبية المسجونين به محكوم عليهم فى قضايا تتعلق بالشرف أو الثأر أو نزاع حول الرى أو دفاع عن الأرض ، بينما القليلون هم الذين دخلوا السجن بسبب السرقة أو الاختلاس أو المخدرات ، أما فى سجن مصر فأغلب المسجونين محكوم عليهم فى قضايا الاختلاس والمخدرات والسرقة والتزوير والنفقة والمنازعات حول الميراث ٠

ذهبت لمستشفى الرمد مرة واحدة وحصلت على كشف النظارة ــ ولازال عندى هذا الكشف حتى اليوم احتفظ به من ذكريات الاعتقال ٠

عدت مرة أخرى الى الواحات بعد أن مكثت بسجن أسيوط عدة أيام ٠

الفصل التاسع

التمهيد للافراج

الترحيل الى الفيوم :

فى أواخر عام ١٩٦٣ رحلت مع مجموعة من المعتقلين الى معتقل عزب الفيوم لمرة أخرى — بعد أن مكثت بسجن المحاريق بالواحات الخارجة أكثر من ثلاث سنوات — كنت مسئولا عن المجموعة التى رحلت معى واستمر اعتقالنا بالفيوم حوالى خمسة شهور .

والتعذيب البدنى وان كان قد توقف فى الفيوم غير أن الحياة هناك كانت أسوأ حالا من الواحات ، فالعنابر منفصلة عن بعضها حتى فى الفسح ، يمنع الاختلاط بينها بحواجز متباعدة من الأسلاك الشائكة

لم أقابل طوال فترة الاعتقال أخى أحمد فقد قبض عليه قبلى بأيام فى سبتمبر ١٩٥٩ وقبل ترحيلى لمعتقل الفيوم كان موجودا به ، وكنت آمل أن ألقاه هناك لكنهم رحلوه الى السجن الحربى قبل أن أصل الى الفيوم ، لذلك لم نلتق الا بعد الافراج فقد أفرج عنه قبلى بحوالى شهرين .

عشنا فى الفيوم الفترة الأخيرة من الاعتقال فى عزلة وحياة خاملة نعانى من الناموس الذى يؤرق حياتنا ، وكان البعض منا يتقيه بعض الشيء باقامة خيمة من القماش الخفيف على مرتبته ٠

رغم هذا التضييق تمكنا من الحصول على راديو ترانزستور نسمع منه الأخبار كما نستمع منه الى حفلات أم كلثوم ٠٠٠ كان هذا يتم سرا وحفرنا له مخبأ لتأمينه ، كنا نصدر مجلة مكتوبة فى اخراج فنى راق نتداولها ، وتتسع لنشر الأخبار والتحليلات التى تساعد على توحيد أفكارنا كما تتضمن المقالات التى تتناول قضايا الصراع السياسى والفكرى الدائريين التنظيمات المختلفة والآراء المتباينة فى المشكلات المختلف عليها ٠

لم أعرف شيئا عن أخبار أسرتى طوال فترة الاعتقال التى تقترب من الخمس سنوات ، كانت أول رسالة وصلتنى قبل الافراج عنى بشهر تقريبا حين أفرج عن أخى أحمد فأرسل الى بعض الملابس وداخل الخياطة بها أرسل لى رسالة يخبرنى فيها بأحوال الأسرة ، ووقتها فقط عرفت من مات ومن تزوج منها كما عرفت أحوالها المالية التى تدهورت واضطربت أثناء فترة اعتقالنا فمحل أخى أحمد الذى كان يعد لافتتاحه توقف بالقبض عليه والمحل التجارى الخاص بأخى الحاج محمد قد تأثر فأغلق منذ سنوات ، وتوفيت جدتى منذ شهور قليلة وكان أملها أن ترانا قبل أن تموت ٠

إتخذت تصفية المعتقلات وقتا طويلا ٠٠ كانت الرجعية التى عششت وتحصنت فى كثير من أجهزة الدولة خاصة المباحث العامة والمخابرات ، تعارض اتمام الافراج وتقوم بالتآمر ووضع العقبات أمام تنفيذه ، بحجة أنها لا تريد أن يخرج المعتقلون أبطالا وتطلب اعطاءها مهلة ، حتى يتم التنفيذ ، ونشطت المباحث لفرض الاستسلام

والاذلال بالاستنكار ولم يستجب لها الا عدد محدود وقد وجهت جهودها بالمقاومة والصمود ..

كانت أول دفعة أفرج عنها سياسيا دون تنازلات تضم عناصر مستقلة عن التنظيمات وان كان لها انتماؤها الفكرى والسياسى ، وكان ذلك عام ١٩٦٠ بعد تأميم بنك مصر وبعد استشهاد شهدى .

كان أول من خرج الى الحرية المستشار سعيد الخيال ثم يوسف حلمى فلطفى الخولى فلويس عوض وعبد الرازق حسن ، تم الافراج عن هؤلاء فى حدود أسبوعين أو ثلاثة .

أتذكر أن الدكتور لويس عوض كان يؤكد لى — ونحن فى أوردى ليمان أبى زعبل نعانى التعذيب — أنه لا يمكن أن يكتب مرة أخرى فى الصحافة فى ظل انعدام الحريات ومعاداة الديمقراطية .. ولكنه خرج وكتب فى الصحافة ، بل وسمعت أنه قام بدور فى تعليم صلاح سالم اللغة الانجليزية ، وفسرت تصريحاته السابقة بأنها مجرد انفعال وقتى له ما يبرره ، فهو ناتج عن التعذيب الذى عاشه ولم يكن يتوقعه فى أى يوم فى حياته .

هذه المجموعة التى أفرج عنهـــا لعبت دورها مع آخرين من العناصر اليســـارية الشريفة : فى تمهيد الطريق للافراج وتصـــفية المعتقلات ، فقد أثارت موضوع الاعتقالات مع أحمد سيكوتورى رئيس غينيا حتى يناقشــــه مع جمال عبد الناصر ، كما أثارته مع قيادة الثورة الجزائرية ومع قيادة الثورة الفلسطينية كما شجعت الصحفى الفرنسى أريك رولو على الحضور الى مصر ، وهو مسئول عن قسم الشرق الأوسط بجريدة « الموند » الفرنسية وهو يهودى ومصرى الأصل وتقدمى ، وطلبت منه أن يستعين بالأستاذ محمد حسنين

هيكل ليسهل له مقابلة عبد الناصر ويثير معه الأوضـــاع الداخلية والخارجية والمعركة مع الاستعمار والصهيونية والرجعية ، وقضية الديمقراطية والمسجونين والمعتقلين ، وقدموا له المعلومات الدقيقة عن حالة المعتقلين ٠٠٠ قابل الصحفى عبد الناصر الذى أعلن له لأول مرة عن وجود معتقلين ، وأنه بسبيل الافراج عنهم ٠

دهش عبد الناصر للمعلومات الدقيقة التى يعرفها الصحفى عن المعتقلين ، فسأله عن مصدرها وبدلا من أن يخبره بأن مصدرها هم الصحفيون المصريون اليســـاريون ، قال له انها من أرشيف « الموند » ٠

كانت البشائر الايجابية لانفراج الغمة هى الافراج عن جميع المعتقلات السياسيات وعددهن ٣٥ سيدة وآنسة من سجن القناطر نساء فى ٢٤ يوليو ١٩٦٣ ٠

ومع هذه الجهود والتصريحات استمرت المناورات والعراقيل حتى آخر لحظة ٠

كان من الواضح أن هناك عناصر مضـــادة لنا فى كثير من الأجهزة ، بل كان هناك صراع على الســـلطة ، فالاشتراكية التى أعلنها الميثاق كان هناك من يرى أنها اشتراكية عربية ومن كان يرى أنها تطبيق عربى للاشتراكية ٠

حين اقترح لطفى الخولى عمل دراسة عن التركيب الطبقى لرجال الجيش باعتبار ثورة الجيش لهـا دور وطنى ، استحسنها هيكل ورحب بها عبد الحـــكيم عامر ، وتعهد بوضع ملفات كل الضباط تحت يده ، ثم توقف ذلك ٠

لم يكن عبد الناصر مطلق الحرية تماما فى اتخاذ ما يراه من قرارات ، بل كانت له حدود ، وقد اتضح ذلك بعد محاكمة عبد الحكيم عامر ، كان البعض يتساءل فى حيرة : لماذا لا يفعل عبد الناصر كذا وكذا من الأمور ، لكن هيكل الذى كان مطلعا على الخلفيات أجابهم : « انتو ناسيين أن البلد فيها جيش » • كان هؤلاء يتصورون أن عبد الناصر هو الكل فى الكل ، ولكن القوى المتخلفة ـ وحتى عبد الناصر ومجموعته ـ كانت تضيق ذرعا بوجود تنظيم مستقل بعيد عن سيطرتها ، كانوا لا يرغبون فى وجود تنظيم آخر غير تنظيمهم ، وكانت هذه هى نقطة الالتقاء بين عبد الناصر ومجموعته وبين القوى الرجعية •

ولكن كانت مصر قد اتفقت مع الاتحاد السوفيتى على بناء السد العالى بعد أن تخلت عنه أمريكا والغرب والبنك الدولى ، ونشط السوفيت فى بناء السد واقترب موعد افتتاحه فى مايو ١٩٦٤ وكان خروشوف سيحضر هذا الافتتاح ، ورأى عبد الناصر أنه ليس من اللائق أن يزور خروشوف مصر وفى معتقلاتها حوالى الألف من المعتقلين والمسجونين الشيوعيين والوطنيين والتقدميين والنقابيين ، وأشيع أن هذا كان شرط خروشوف لزيارة مصر ، فأخذ عبد الناصر فى الافراج عن المعتقلين •

فى الثانى من ابريل طلب منا الاستعداد للرحيل من الفيوم أعددنا حقائبنا وحملنا معنا جهاز الترانزستور وأرشيف المجلات والتقارير التى أصدرناها فى الفيوم •

أذكر أننى فى مساء هذا اليوم ذهبت لأغسل وجهى بدورة المياه ثم خرجت الى الفناء بين العنابر ، تنفست هواء عميقا ، شعرت بالقوة وبراحة الضمير ، أحسست أننى خرجت من تجربة الخمس

سنوات وأنا محافظ على قوتى وصلابتى ونقائى .. لم أضعف ولم أستسلم ولم أرتكب أى سقطة تضعف من كرامتى ، وانطلق لسانى : الحمد لله .. الحمد لله ..

لقد حافظنا طوال هذه الفترة على تاريخنا السياسى الطويل المعادى للاستعمار والمتطلع الى الاشتراكية ، لم نخنه ولم نتخل عنه ، وصمدنا أمام كل المحن .

السجن الحربى :

أقلتنا السيارات الى جهة القاهرة وأنزلتنا فى السجن الحربى .. ولأول مرة أدخله ، كان اسمه ورهبته وشهرته فى قسوة المعاملة تسبقه ، ولكننا كنا ندرك أننا فى طريقنا الى الافراج .

يقع السجن الحربى فى ذلك الوقت فى منطقة صحراوية منعزلا عن المناطق الآهلة بالسكان وهو مبنى ضخم أصم نوافذه صغيرة كالثقوب ، من دخله يشعر بعزلة لا عن العالم فقط بل عن الزمان والمكان .. ان السجين تتلاشى كل مكوناته فى هذا المكان ويتحول الى مجرد رقم تتحكم فيه زبانية تقيم له جحيما ، وأحاطت هذا الجحيم بسلطات سماوية ادعتها ، والمسكين ليس أمامه الا الخضوع ...

ان هذا المبنى يختزن فى داخله كل صراخ العالم ، ويحتوى خلف جدرانه دويا مكتوما لآلام تفوق طاقة البشر .

يضم السجن الحربى عدة سجون : مبنى اسمه السجن الكبير يضم الجنود السجناء فى غير القضايا السياسية ، ويعاملون معاملة بربرية الى درجة التعدى على رجولتهم لاذلالهم ، ولا يترك تعذيب

الواحد منهم حتى يختار لنفسه اسم امرأة ينادى عليه به طوال مدة سجنه ، وهناك مبنى كبار العسكريين من الضباط السجناء ويسمى اسم « الأسير » وهو معتقل ارستقراطى الى حد ما يشبه الفيلا فى بنائه ، وهناك المعتقل رقم واحد الى جوار مبنى الادارة ، والمعتقل رقم ثلاثة وهو معتقل التكدير الخفيف ، ثم المعتقل رقم ٤ وهو أسوأ المعتقلات جميعا ، ففيه التعذيب الذى يستهدف التركيع ، وللمعتقل باب حديدى ضخم يفتح على فناء غير مسقوف تتوسطه دورة مياه حولها فراغ يحيط به دائريا طابقان اثنان من صفوف الزنازين ٠

لم نمكث فى السجن الحربى سوى ليلة واحدة ، وفى الليلة الثانية حملتنا السيارات ونزلنا منها فى الشوارع ٠

أذكر أننى نزلت من السيارة فى شارع نوبار باشا بالقرب من الداخلية ، وأخذت حقيبتى وتركتها فى محل بقالة بحى عابدين يملكه ابن خالتى ، ثم مشيت حرا لأول مرة ــ بعد خمس سنوات فى المعتقل ، مشيت لمكتب الأستاذ أحمد مجاهد بشارع شريف ، ولما لم أجده عدت وأخذت حقيبتى ، وذهبت الى خالى المتولى بالخلمية الجديدة ، وفى اليوم التالى سافرت الى قريتى وأهلى بميت الحلوج مركز دكرنس ٠

كان ذلك يوم ١٩٦٤/٤/٤ وعنــــد هذا اليوم كان جميع المعتقلين قد أفرج عنهم ، ولم يتبق فى سجن المحاريق سوى مائة واثنين من المسجونين الشيوعيين ٠

كانت الرجعية حتى آخر لحظة تعمل على منع الافراج عنهم حتى فى اللحظة الأخيرة التى خرج فيها المعتقلون من سجن المحاريق يوم ١٩٦٤/٤/٤ دبروا اغتيال لويس اسحق ردا على قرار الافراج عن المعتقلين ومحاولة لمنع اصدار عفو عام عن المحكوم عليهم ٠

ويبدو أن حادث الاغتيال هذا قد أسرع بصدور العفو عن المسجونين الشيوعيين ٠

ومع ذلك ونتيجة لتصارع القوى فى قمة السلطة وحبك المؤامرات فى أجهزة المباحث العامة والمخابرات تعرض المسجونون لمدة شهر وعدة أيام لحالة من الشد والجذب بين الافراج والاستمرار فى الحبس ، فقد تم ترحيلهم لأسيوط وبذا خلا سجن المحاريق من الشيوعيين المعتقلين والمسجونين ثم شتتوهم فى سجون المحافظات ثم جمعوهم فى سجن مصر ، ثم أفرج عنهم ، واستغرق ذلك شهرا وكانت آخر دفعة أفرج عنها يوم ١٩٦٤/٥/١٠ بعد بدء زيارة خروشوف بيوم ٠

خرجنا الى الحرية والى تغيير فى حياة الناس :

خرجنا الى الحرية وذهبت الى القرية ، وكنت وزميلى عبد السلام خشان آخر من أفرج عنهما من الثمانية المعتقلين من القرية ، فقد خرج الستة الآخرون تباعا خلال السنة الأخيرة من الاعتقال ٠

استقبلتنا القرية استقبالا طيبا ، ولكن الخوف كان قد ملأ قلوب الناس خلال تجربة الخمس سنوات من الاعتقال التى حجبنا فيها عن القرية ٠

كانت المباحث قد ركزت عليها فى المراقبة والمتابعة ، فلا يخلو يوم الا ويجوس فيها المخبرون ، ولا تمر صلاة جمعة فى المسجد الا وكان لهم وجود دائم به ، وأصبح لهم عملاء مرشدون يجالسونهم حتى صاروا من وجهاء القرية بعد أن كانوا من العاطلين « الصيع » الضائعين الذين ينفر منهم الناس ويننبذونهم حتى صاروا قادة فى البلد يقودون المظاهرات التى تهتف ضدنا ونحن فى السجون مجاملة للحكومة ورعبا منها واثباتا لبراءتهم ٠

تغيرت الأحوال في القرية ــ كان الناس قبل اعتقالنا يفتخرون بمصاحبتنا وينصحون أبناءهم بملازمتنا ومجالستنا والسير معنا ، فكنا اذا جلسنا في مقهى أو على مصطبة أو حول دكان المزينين أو سرنا على شاطىء البحر الصغير التفت حولنا جموع الشباب .

الآن تغير الموقف .. يقابلنا الناس في الشوارع فيسلمون علينا باحترام وينصرفون .. كنت أنا وعبد السلام خشان نسير على شاطىء البحر وحدنا ونسمع « مصمصة » بعض الناس وهم يجلسون على الكوبرى ينعون حالنا ويتصعبون لما وصلنا اليه ونسمع : « ضيعوا أنفسهم كانوا أحسن الشباب وأذكى الطلبة ، ضيعوا مستقبلهم » ، أصبح الذين ضحينا من أجلهم يتخلون عنا !!

كنت قبل الاعتقال قد تخرجت من الكلية ، ورغم فصلي السياسي من الحكومة فقد عملت في مدرسة أجنبية ، وكان دخلي من الناحية المالية طيبا .. الآن وبعد خروجي من المعتقل فلا عمل لي ، لا طالب ولا موظف .

وكذلك عبد السلام خشان تخرج من كلية أصول الدين قبل الاعتقال ، والآن هو عاطل بلا عمل وكان أحمد عبد الرازق قد فصل من التدريس وهو بالمعتقل ، فلما أفرج عنه قبلنا بأكثر من سنة اشتغل بالتدريس بمدرسة خاصة بالقاهرة ثم سعى لاستصدار قرار من وزارة التربية والتعليم باعادة تعيينه ، وبعد معاناة أعادوا تعيينه عضوا فنيا مع حرمانه من التدريس ، أما فتحي مجاهد وأحمد العدل فقد خرجا قبلنا بعدة أشهر والتحقا بكلياتهما وفرض فتحي مجاهد نفسه للعمل في مصنع ملابس جاهزة بالقاهرة أنشأه زميلان لنا أفرج عنهما قبلنا بفترة هما محمد الزعفراني وشحاته النشار ، وعمل محمد الامام لفترة كمحصل على خزينة محل سندوتشات بشارع

مجلس النواب ، ثم عاد الى عمله عضـــوا فنيا بعد أن أبعد عن التدريس ـ لأنهم نسوا فصله بعد اعتقاله ، واستكمل دراسته في كلية الآداب ، أما أحمد أخى فقد ضاع منه المحل الذى كان قد بدأ فى افتتاحه قبل الاعتقال ، وبعد خروجه من المعتقل عمل لعدة شهور عاملا « بياعا » بأحد محلات الأقمشة بدكرنس ، واضطرت الأسرة الى أن تبيع له نصف فدان من الأرض المتبقية لنا بعد بيع أغلبها أثناء الاعتقال ، وفتح المحل الذى كان يديره أخى الأكبر ـ الحاج محمد ـ والذى كان قد أغلقه بسبب الأزمات المالية التى لاحقته أثناء اعتقالنا . أما عبد الحميد عبد الرازق فقد مارس مهنته كترزى فى اطار ضيق .

كانت خطة الحكومة لاعادة المعتقلين والمسـجونين السياسيين الى أعمالهم وتوفير أماكن عمل لمن فقدوا أعمالهم هى الامعان فى القهر والتعذيب والمطاردة ، كانت استمرارا للاعتقال والسجن فى صورة أخرى ، كانت الخطة تعنى الاذلال والمماطلة والمراوغة لترك الناس فترة طويلة ، فى حالة بطالة وضياع لاستنزاف طاقاتهم فى الجرى وراء اعادة تعيينهم حتى يصلوا الى درجة الاستسلام والرضا بأى وضع يلقى اليهم .

ولم يحدث هذا فقط بل الى جانب تأخير التشغيل لأطول مدة ممكنة كانت هناك تفرقة بين العمال والمثقفين عموما ، ثم الاذلال للجميع بتعيينهم فى غير تخصصاتهم حتى يوقفوا نموهم الوظيفى ، ويفرضوا عليهم الغربة فى أعمالهم ، كمـا يتم التعيين فى أدنى الدرجات وبمرتبات ضئيلة تبدأ بأول مربوط الدرجة للشـهادات الحاصلين عليها دون مراعاة لمدة الخدمة السابقة والخبرة ، حتى أصبح هناك فرق شاسع بينهم وبين زملائهم العاديين فى التخرج ، وكان هذا مقصودا حتى يستنزفوا جهودنا لسنوات أخرى فى السعى

لتسوية حالاتنا ومساواتنا بزملائنا فى التخرج ، وهذا ما حدث فعلا بعد ذلك ٠

كانت اللجنة التى أوكل اليها أمر التشغيل تسمى لجنة العطار ومقرها بالجهاز المركزى للتنظيم والادارة وتصدر قراراتها باسم علي صبري رئيس الوزراء ، ولم تشكل الا بعد شهور طويلة من الافراج وكان التقديم اليها فرديا — لمزيد من الاذلال ، وكان الواجب أن يتم ذلك من خلال كشوف تقدم من قبل التنظيمات التى حلت نفسها حتى تشمل كل الأسماء ، ولكن الحكومة رفضت التقديم الجماعي ، لذلك كان هناك من لم يتقدم لهذه اللجنة ، وكنت أحدهم — لأنني تقدمت لوزارة التربية والتعليم أنا وعدد من المدرسين الذين تسبق فصلهم لاعادة تعيينا ، وكانت هذه اللجنة لم تتشكل بعد ٠٠

وهكذا يتضح من هذا المسلك روح التشفى والعداء الذى يتعارض مع الوعود البراقة التى كانت تدعو الى حل الحزب وتكوين تنظيم واحد يضم كل الاشتراكيين فى مصر بقيادة جمال عبد الناصر ٠٠ ان هذا المسلك الفظ يفضح الشرك الخادع الذى نصبته الحكومة للشيوعيين ٠٠ ويا ليتها بذلك خدمت نفسها أو خدمت أهدافها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ٠ بل لقد حفرت قبرها بنفسها ، وجنت على الوطن والأمة وضيعت كفاح الشعب سنوات طويلة من أجل بناء وطن حر ومستقل واشتراكي — فما ان توارى عبد الناصر حتى استدار السادات بسياسة مصر ١٨٠ درجة كاملة فهدم كل ايجابيات الثورة التى لم تجد لها من يحميها ويحافظ على استمرارها ٠

قلت ان القرية قد امتلأت رعبا فى فترة الاعتقال ، وزادها رعبا وخوفا قصص التعذيب التى عانيناها فى السجون والتى كان فتحى مجاهد ومحمد الامام يطنبان فى حكيها لأهل القرية بعد الافراج عنهما ٠

كان الجو السياسى يساعد فى عملية عزلنا وابتعاد الناس عنا ، فقد حققت الثورة للفئات الشعبية كثيرا من المكاسب ، التى كنا دائما نطالب بها ، فالى جانب الاصلاح الزراعى قامت بتأميمات واسعة وأشركت العمـــال فى مجالس الادارة وفى الأرباح وأقرت المعاشات وحددت ساعات العمل ، ورفعت مرتبات كثير من فئات الموظفين الصغار ، وخلقت كثيرا من فرص العمل وأنشأت العديد من المدارس والجمعيات التعاونية لمد الزراع ببعض احتياجاتهم وتوفير بعض السلف لهم ، وتسويق منتجاتهم مع انتهاج نظام التجميع الزراعى ٠٠ هذا الى جانب الشـــعارات الوطنية والقومية ومعاداة الاستعمار والاقطاع والرأسمالية المتحـالفة مع الاستعمار ومحـاربة الأحلاف والانفتاح على المعســكر الاشتراكى بصفقات الســلاح والتصنيع وبناء الســد العالى ، بل لقد رفعت الثورة شعار تطبيق الاشتراكية ، وأصدرت ميثاق العمل الوطنى كوثيقة فكرية فى هذا الاتجـــاه ٠

كان كل هذا يشد حماس وتأييد الجماهير للثورة ، ويثير فيها الروح المتوثبة ، وأصبحت خطب عبد الناصر كأنها البلسم تجد قبولا وراحة لدى الشعب ، وتمسح عنه ما يعانيه من مشـــكلات وتعطيه الأمل فى مستقبل أفضل ٠٠ كان قائدا له حضوره وتأثيره الطاغى على الجماهير التى يصعب اقناعها بأن هناك أشياء ناقصة يجب أن تتوفر لحماية هذه المكاسب ، والا تعرض كل ذلك للانهيار ٠٠ كان الناس يقولون لنا « عبد الناصر عمل اللى انتم عاوزينه ، وكنتم تطالبون به ـ أمال انتم عاوزين ايه ؟! تريدون الحكم ؟

مسألة الحريات والديمقراطية وتعدد الأحزاب والرأى والرأى الآخر والرقابة الشعبية مسألة لا يفهمها ولا يعيرها اهتماما سوى نخبة من المثقفين ، أما الجماهير العريضة فلم يكن يعنيها هذا كثيرا فهى ليست مسيسة وليست هناك أحزاب تعمق هذه المفاهيم ٠

كنا ونحن فى المعتقل وأمام الاجراءات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأمام السـياسة الخارجية المتقدمة للثورة قد اقتربنا كثيرا من فكر عبد الناصر ، كما اقترب هو من فكرنا الى درجة التنظير بأن هناك مجموعة اشتراكية فى السلطة يجب علينا أن نندمج معها لبناء المستقبل الاشتراكى لمصر فلما خرجنا من المعتقل لم نجد ولم يجد الناس منا فروقا واضحة بين ما نقوله وما يفعله عبد الناصر ، وانعكس هذا الفكر على التنظيم الذى أصيب بحالة تميع وانعدام القوام ، كان نشاط الكوادر والأعضاء نشاطا محليا واقليميا يحركه الحماس والايمان الذاتى أكثر منه حركة مخططة منظمة من أعلى ٠

كان العمل التنظيمى المستقل للحزب بطيئا ومحدودا وروتينيا أقرب الى الدفاع الذاتى ، وأبعد عن الابتكار والابداع ، كنا معزولا لخمس سنوات عن الواقع وعن الناس ، هؤلاء الناس الذين ضحـ وسجنا من أجلهم يرفضوننا الآن ولا يتحمسون لنا ٠

هذا الواقع كان له انعكاساته على حماس الأعضاء وايمانهم باستمرار التنظيم المستقل ٠

كانت السلطة تدرك ذلك ، فالتقطت بعض الأفراد خاصة من القيادات التى خرجت من المعتقلات والسجون تباعا وألحقتها بالتنظيم الطليعى الذى أنشأه عبد الناصر فى مجموعات مختلفة منها مجموعة أحمد فؤاد ومجموعة خالد محى الدين ومجموعة مجدى حسـنين ومجموعة سامى شرف وكل مجموعة لها قيادة ، وتجتمع هذه القيادات مع شعراوى جمعة الذى كان ممسكا بالتنظيم الطليعى ٠

الفصـــل العـــاشر

الخداع وحل الحزب واستمرار المطاردة

ثم حل الحزب واستمرت المعاناة والمطاردة :

كانت هذه هى الأرضية التى دفعت كوادر الحزب الى الاقتناع بانهاء الشكل المستقل والانضمام إلى تنظيم عبد الناصر .

لم يكن السبب أن الناس قد ضعفوا أو أن التنظيم تفسخ ولكنها الظروف الموضوعية التى تركت انعكاساتها الذاتية الخطيرة حتى عبر الزميل عبد السلام خشان عن ارتياحه للحل بأنه كان يحمل زكيبة كبيرة واستراح منها .

كان شيئا ملفتا للنظر أن ينعقد ـ على عجل ـ كونفرنس لبعض كوادر الحزب فى بيت يوسف صديق بالهرم ـ وقد حضرت هذا الكونفرنس ـ ليناقش المجتمعون فيه إنهاء الوجود المستقل للحـزب .

كان المتفق عليه فى الحزب ـ وقد تضـمنه تقرير منه قدم للكونفرنس ـ وجوب استمرار الحزب وعدم انهاء وجوده الا فى حزب واحد مع المجموعة الاشتراكية على أساس الماركسية اللينينية، وهو نفس الموقف الذى اتخذ داخل السجن وقبل الافراج .

ولكن النقاش في الكونفرنس جرى حول انهاء الوجود المستقل، وعلى أساس أن هذه الخطوة يمكن أن تساعد على تحقيق تكوين الحزب الواحد ، وبناء على هذه المناقشة اتخذ القرار بانهاء الوجود المستقبل للحزب الشيوعى المصرى « حدتو » ، وذلك من أجل تكوين الحزب الواحد ٠٠ الخ ، على أن هذا لا يعنى وقف النشاط وانما زيادته ، كما اتفق على بقاء واحد يكون كرمز للحزب ــ وهو كمال عبد الحليم ــ يعبر عن استمرار حدتو ، حتى يتم هذا التنظيم الواحد ، وقد تمت الصياغة بهذا الشكل حتى يؤخذ القرار بالاجماع ، ولكن كان هناك عدد محدود على رأسه محمد عباس وطاهر البدرى رفض فكرة الحل واستمر فى نشاطه ، ولكنه كان محدود التأثير والحجم ٠

كان على كمال عبد الحليم أن يقدر الظروف ويحدد أن عملية الاندماج قد تمت ، ولكننا فوجئنا به فى نفس الجلسة يعلن انهاء جوده المستقل ويرسل برقية الى عبد الناصر بهذا المعنى يوم تخابه رئيسا للجمهورية ٠

كان ملفتا للنظر أيضا أن كثيرا من القادة والكوادر الأساسية تحضر هذا الكونفرنس لأنها كانت قد انضمت للتنظيم الطليعى ٠

كان هناك قرار بأن من يدخل التنظيم الطليعى يقطع صلته بالتنظيم الحزبى ، وعليه أن يكافح من داخل التنظيم الطليعى فى اتجاه الدمج ودخول كل الناس ورفع العزل السياسى عن الشيوعيين والكفاح ضد القوى الرجعية ، وجرت مناقشات قيل فيها ان حدتو كلها سوف تدخل التنظيم الطليعى وأن التنظيم الطليعى سوف يكون ماركسيا لينينيا ، وأن هذا هو الاندماج الكامل الذى كنا نطالب به وعلى أساس الماركسية اللينينية ٠

جرى هذا الكلام مع أحمد فؤاد وأحمد حمروش ، وبعد مرور أسبوع قالوا للزملاء لقد كان هناك لبس ·· كان هناك خطأ ·· وانتهى الأمر بالقول انهم سيأخذون جزءا منا ثم طلبوا أناسا بالاسم ·

كانت مأساة مضحكة تطورت اليها الأحداث ، وأراحت الكثيرين ، ومع ذلك فقد سمعت أن الثورة لم تقتنع بحجم هذا الكونفرنس وطلبت تعميم الموافقة على قراراته ، ويبدو أنه تمت اجتماعات أخرى أكدت هذه القرارات ، كما صحب ذلك جمع توقيعات ممن لم يحضر هذه الاجتماعات ·

ومع ذلك يبدو أن هذا الحل كان اجراء عبثيا ، وأنه أحيط بكثير من الوعود وعمليات الخداع والغش ، ثم تبخر كل هذا ، فلا التنظيم الطليعى ضم كل الفعاليات النشطة ولا توحد هذا التنظيم وواجه قضايا مجتمعه بجدية وحسم ، بل يبدو أنه كان هياكل هشة ومتصارعة أقرب الى الدكاكين الخاصة منه الى تنظيم حقيقى موحد ، فلم يثبت فعالية فى المواقف الحاسمة ·

ومن سخريات القدر أن التنظيم الطليعى بعد قرار الحل قام بعملية فرز لمن دخلوا فيه من الماركسيين قبل الحل ، واستبعد كثيرا منهم بحجة أنه سيقوم بتوحيد فروعه المختلفة وعلى كل واحد انضم الى أحد هذه الفروع أن ينتظر حتى يتم الاتصال به ، واتصلوا بالبعض ممن يرغبون فى الاتصال به ، ولم يتصلوا بالآخرين ··· وهكذا حلت حدتو نفسها ولم يتكون الحزب الواحد لا بالدمج الفورى ولا بالدمج المتدرج ·

هل كان قرار الحل صائبا ؟ صحيح كانت الظروف الموضوعية والذاتية صعبة ، وكان تعنت الحكومة وحتى الجناح المتقدم فيها

قد أعمته السلطة والتفاف الجماهير حوله وتصوره أن الدنيا ملك يديه ، وأنه يمتلك الحاضر والمستقبل ، فوضع الشيوعيين أمام طريق مسدود في وقت كانوا فيه في شبه عزلة عن الجماهير ، وحاصرهم بالتهديد والوعيد ، ولم يترك لهم الا خيارا واحدا وهو حل تنظيمهم .

كانت القضية تفتقد القيادة الملهمة النافذة البصيرة التى تستطيع أن تخترق الحجب وضجيج الجماهير الملتفة حول هيلمان السلطة فأعطتها الحصانة والقداسة .. كانت النظرة الملهمة كفيلة باكتشاف هشاشة هذه السلطة التى استأسدت علينا ، وادراك فداحة أزمتها وعدم قدرتها على الاستمرار طويلا بهذه الأساليب الأنانية والانتهازية .

لو كانت هناك هذه القيادة لتجنبنا المصير المؤلم الذى عانيناه وعانته الثورة نفسها وحميناها من حماقتها ومن سوء تصرفها وتقديرها الذى عرته تماما نكسة ١٩٦٧ ثم غياب عبد الناصر المفاجيء فى سبتمبر ١٩٧٠ .

لقد تبدى لنا بعد ذلك أن انهاء التنظيم لم يكن العلاج الصحيح بل كان التمسك به ضرورة يحتمها الاحتياط للمستقبل .

ومع ذلك ونتيجة أيضا لافتقاد القيادة الملهمة انتقلت عدوى الحل الى التنظيم الآخر ـ الحزب الشيوعى المصرى (ع . ف ـ الراية) الذى لم يكن حظه أحسن حالا ، فقد واجه نفس المناخ الذى دفعه الى الموافقة على حل نفسه فى ابريل ١٩٦٥ .. لقد خرج من المعتقل فوجد نفسه معزولا عن الواقع ، كما انتشرت الشللية والانقسامية فى صفوفه حتى بدا محلولا قبل الافراج .

وبهذا الواقع الذى فرض نفسه يعترف الدكتور فؤاد مرسى وهو أحد القادة الأساسيين لهذا الحزب فيقول :

« لم يكن أمامنا الا أن نقبل فكرة الحل ·· ان هذا الحل يتم لاعتبارات عملية لا شأن لها بالنظرية ·· انه خروج على النظرية لاعتبارات عملية ·· موقف عملى مفروض علينا فى هذا الوقت بحكم القوة ·· ولاعتبار أساسى وهو العودة للمجتمع من جديد ·· لأننا لم نكن معزولين فقط فكريا أو معنويا أو سياسيا ، انما كنا معزولين (بالحرف) ، لا وجود اجتماعى لنا ، لا نحن طلابا ولا نحن عمالا ولا نحن فلاحين ولا نحن أساتذة ولا نحن نقابيين ·· لذلك كان يعنينى للغاية عودة هذه المجموعة المتمسكة بفكرها الى المجتمع من جديد ، وأن تحتل بداخله مراكز تتفاوت من أعلى الى أسفل ومن أسفل الى أعلى ·· أن يوجدوا فى المجتمع ، وأن يوجدوا كى يجددوا صلاتهم الاجتماعية، يجددوا فكرهم مع المجتمع ، يدافعوا عن فكرهم الذى خرجوا به من المعتقل ، كانت الفكرة الأساسية عندى أن يعود الطالب طالبا ويستكمل دراسته ، كان ممنوعا أن يعود الأستاذ أستاذا أو الموظف موظفا ·· كانت هناك قرارات منع وفصل ، وكان المطلوب أن يستعيد هؤلاء وجودهم الاجتماعى أولا كى يستعيدوا وجودهم السياسى ··· كيف ندافع عن مجتمع ونحن خارجه ؟ كيف نعبر عن مجتمع ونحن خارجه ؟ كيف نعبر عن مصـــالح الفئات الاجتماعية ونحن خارجها ؟

عندما خرجنا ركزنا على الوجود الحزبى المستقل ، وقمنا بمحاولة يائسة لتجميع الناس ، وأقول يائسة لأننا عجزنا عن تجميع الذين خرجوا ، وتلك تجربتى ، عملية تجميع الناس كانت عملية مرهقة وغير مجدية فى نهاية الأمر ، لأن عددا من الكوادر هو الذى ظل معنا ــ فى نفس الوقت كان التطبيق العملى للميثاق الوطنى

والتأمينات موجودة في البلد ، وشعرنا كأي مواطنين بمدى التغيير الذي طرأ على مصر نتيجة التحول الجديد في النظام ابتداء من الستينيات ، وكان هذا ملموسا لدى الأسر كلها في معيشتها ونطلعاتها وأحاديثها ، ثم رأينا الى أي مدى يروج الفكر الميناقي وهو يدور حول الإشتراكية ، وكيف أن الاشتراكية بالفعل هي دستور البلد ، وأصبح هنالك نحد واضح ، تحد موضوع في التطبيق ، ان النظام نفسه يتبنى الاشتراكية متلما نتبناها ، ثم ان النظام يطبقها أو يطبق ما يشبهها أو ما يسير نحوها دون أن يعرض أنصار هذه الاشتراكية لدخول السجن ، وجدنا الناس بالفعل مستعدة للانتماء لاشتراكية النظام .وليس لاشتراكيتنا ، لأنها اشتراكية وان تكن أكثر جدية ، وهي الاشتراكية الحقيقية لكنها مع ذلك تعرض الناس لخطر السجن وجدنا هذا في الجو العام داخل البلد ، وفي نفس الوقت كان الفكر الذي طرحه خروتشوف وقتها في ضرورة معاملة التجربة الجديدة كتجربة تتجه الى الاشـــتراكية ، والتقة بالنظام المصري والثقة بقيادته الممثلة في عبد الناصر ، وكان لهذا انعكاسه على صفوف الشيوعيين المصريين وصفوف المشتغلين بالسياسة داخل مصر .

ثم أشار الى الهجوم على الشيوعيين المصريين الذين خرجوا من السجون من قبل النظام لحل الحزب أو حل التنظيم الشيوعي ، وهي عملية مفررة من داخل النظام ، وقام بالاتصالات لتحقيق هذا الهدف عناصر يسارية قريبة من النظام : كمال رفعت . خالد محي الدين ــ ابراهيم سعد الدين ، أحمد حمروش ــ ميشيل كامل وذلك من أجل تكوين شيء واحد ، وحدث تهديد بالسجن ان لم نحل الحزب .

الذي شغلني هو مدى عزلتنا فعلا داخل المجتمع المصري ، كان الجو هو جو العزلة ليس جو اللقاء والتقبل والاندماج أو الترحيب بنا كأناس كانوا طلائع هذا الفكر .

كان النظام يحقق انجـــازات ، وله جهاز اعلامي رهيب فيما يتعلق بهذه الانجازات ، والناس مشغولة بحياتها التي تتحسن بالفعل ولا تسوء ، وهي معجبة بالنظام تمنحه ثقتها ، والعمال بالذات وهم الطبقة الأساسية التي تمنح ثقتها للنظام وانجازاته في التصنيع وميدان التأمينات والأجور جو العزلة هو الذى صدمني شخصيا ، وشعوري أن المجتمع يمكن أن يعيش بدوننا هو الذى شغلني • الفكر الاشتراكي الحق الماركسي اللينيني كيف يوجد في هذا المجتمع ؟ هذه هي الفكرة التي شغلتني •• سياستنا اتسمت بانحراف يســـاري حقيقي أدى الى عزلة الفكر الاشتراكي العلمي ولتنظيمه بين الناس •• الناس تقارن بين واقعها وبين ما نقوله ، وهذا قطع جذورنا التي كانت موجودة •

الفكرية اليســـارية ، والتحولات الاقتصـــادية والاجتماعية الضـــخمة ، والفكرية التي تبناها خروتشـــوف عدلت تفكيرنا . فسياسيا النظام يعلن تبنيه للاشتراكية العلمية ، ويجرى انجازات ذات طبيعة اجتماعية ضخمة ليست اشتراكية وبالتالي يمكن اللقاء بين الشيوعيين والنظام في الحزب الطليعي الذى نص عليه الميثاق الوطني •

في هذه الظروف قبلنا فكرة الحل بانتهاء الالتزام التنظيمي لكل منا حتى يستطيع أن ينضم للتنظيم السياسي للنظام وهو الاتحاد الاشتراكي ، كان من الصعب علينا حتى أن نلفظ كلمة الحل •

ويواصل الدكتور فؤاد مرسى الى القول بأن التجربة كانت عنيفة وقاسية ، وأن الجانب الآخر ظل متعنتا معنا في كلا المسألتين الاجتماعية والســـياسية فلم نعـــامل معـــاملة كريمة لا اجتماعيا ولا سياســـيا •

فمى الجانب الاجتماعى لم يعد الناس الى أعمالهم الا بعد شهور عديدة بل سنوات ومن عاد أجرى معهم نوع من التمييز الاجتماعى أو الطبقى ٠

أما على الجانب السياسى فلم يقبل الرفاق داخل الاتحاد الاشتراكى الافرادى وبصورة انتقائية ٠ لقد كان مرفوضا حتى وفاة عبد الناصر دخول العديد من رفاقنا فى الاتحاد الاشتراكى ٠

لذلك قلت انه من حق أى واحد منا أن يعيد تأسيس الحزب الشيوعى ليجد المجال لطبيعى لعمله السياسى ، فنحن لا نعترف بالاحالة الى المعاش فى العمل السياسى ، فمن حق الكوادر الراغبة فى خدمة بلدها أن تجد مجالا وتنظيما سياسيا تعمل فيه ٠٠ وقد نصحت الحزب الشيوعى السودانى بالا يكرر تجربتنا فى الحل حين وقع انقلاب نميرى وطالبه بحل نفسه حتى يتفاهم معه ٠

وذكر الدكتور فؤاد مرسى أن سبب العزلة الاجتماعية والسياسية هو الغياب الطويل فى المعتقلات والسجون وتحقيق الثورة لبرنامج الشيوعيين دون ديمقراطية ودون مشاركة حقيقية من الجماهير ٠

والى جانب العزلة الاجتماعية والسياسية كمبرر للحل أشار الى عامل تنظيمى وهو انتشار السلبية والانقسامية داخل حزبه فقال :

أنا لم أود أن أقول جملة يمكن أن تكون صارخة أن الحزب كان محلولا قبل خروجنا (من السجن)

ويؤكد هذه الحقيقة د٠ فخرى لبيب حين يقول :

كان هناك شيء من هذا القبيل ، أما بخصوص العجز الذى واجهناه ، فقد كنت أنا حينذاك المسئول التنظيمى للحزب . وكنت أعجز أحيانا عن تدبير مكان تجتمع فيه اللجنة المركزية ، وكانت تلك مأساة رهيبة ، لم يكن الأهل على استعداد لتقبل تكرار المأساة بالنسبة لهم مرة أخرى كان الكثيرون منهم متعاطفين معنا الا أنهم أيضا كانوا يخشون علينا من أن نعود الى ما كنا فيه ، كان تعاطفا انسانيا بحتا ، كما كنا أيضا عاطلين ، ولم يكن الحزب بقادر على معالجة هذه البطالة والتى كانت تشكل عنصرا مدمرا للغاية ٠

وفى رده على اقتراحات تتفادى حل التنظيم المستقل قال د٠ فؤاد مرسى :

كان المطلوب حينذاك شيئا أكثر من التحالف بيننا وبين النظام ، ولا يمكن الدخول على هذا العمل السياسى الكبير بالحيل ، من الممكن أن أستقيل من الحزب الا أن المشكلة لم تحل ٠ المشكلة هى التلاقى بين الاشتراكيين الجدد والاشتراكيين الماركسيين ٠

ويعترف د٠ فؤاد مرسى بأن الحكومة استخدمت القوة والخديعة ، ورغم ذلك فهناك قضية سياسية كبيرة واجبة الحل وعلينا التصدى لها ، والا فلن ينجزها أحد ، وهى اللقاء بين الطبقة العاملة والبورجوازية الصغيرة ، أى تشكيل تنظيم مناضل من أجل الاشتراكية يتكلم باسم الاشتراكية العلمية ويسلم بقيادة الطبقة العاملة ، مهمة سوف نناضل من أجلها سواء استقلت من الحزب ، حل الحزب أو لم يحل ، سواء كنت الى جوار عبد الناصر أو ضده ، كان المطلوب حل هذه المشكلة ، وهى مشكلة سياسية مطروحة

بأبعادها الفكرية والسياسية والاجتماعية والانسانية كان مسار الثورة متوقفا على حل هذه القضية ، بل لقد أصبحت هذه المشكلة عندئذ هى عقدة الثورة المصرية ، ولا مجال للتفكير فى هذا الا على مستوى حزبى وبحلول حزبية (٢٥) ٠

كان النظام مستأسدا يملى شروطه ، ويرفض كل الاقتراحات التى تحاول تعديل بعضها ، كانت السلطة قد أعمته عن تبين الصديق من العدو ، كان يبدو محصنا مهاب الجانب لا يتطاول اليه نقد أو نصيحة ، يبدو عصيا عن أى تحرك جماهيرى معارض ، تلتف حوله الجماهير بوعى أو بدون وعى ٠٠ ولكن فجأة جاءت هزيمة عام ١٩٦٧ لتعصف بهذا كله وتقضى على كثير من المقدسات السياسية والأساطير التى صنعها الخيال أو الخوف والوهم ٠٠ وثبت أن اجراءات الثورة ومواقفها الايجابية كانت بلا حراسة ، بلا حماية ، بلا رجال يؤمنون بها ، وبلا تنظيم يطورها ، بل كثيرا ما كان حماتها هم أعداؤها ٠

وبمجرد أن مات عبد الناصر انتكس كل ذلك وعادت الأمور الى الوراء مائة وثمانين درجة ولم تجد ايجابيات الثورة من يحميها أو يترحم عليها ، وثبت أن من ادعوا انتسابهم اليها كانوا مجرد هياكل هشة متصارعة على المغانم ، وارتفعت أصوات الناعقين بسلبياتها يضخمون منها ويستثمرونها فى تشويه ايجابياتها وهدمها ٠

يكفى للتعبير عن ذلك الاستقبال الأسطورى للرئيس الأمريكى نيكسون فى القاهرة والأوهام والأمنيات العذبة التى أشاعتها حكومة السادات حول هذه الزيارة ، والخير العميم الذى سيصحبها ٠

---

(٢٥) د٠ فخرى لبيب : الشيوعيون وعبد الناصر ، ج ٢ ، ص ٥٠٧ ـ ٥١٢ ، ٤٩٠ ـ ٤٨٤ ٠

وجدت القوى التقدمية نفسها فى العراء ، فحاولت أن تلعق جراحها وتلملم بعض أشلائها فى جو مغاير صـعب وصـاخب ، ومستقبل هذا كله فى مهب الريح لا يعلم سوى الله ماذا سيصير اليـه ٠

استعادة ثقة القرية :

بعد هذا الاسترسال نعود الى القرية التى شحنتها سنوات الاعتقال بالخوف والرعب ، كان علينا أن نخرج من هذه العزلة التى وضعنا فيها وأن نزيل الخوف الذى ملأ قلوب الناس فقمنا بعدد من التحركات :

١ ـ استضفنا بعض الصحفيين للقرية لاجراء تحقيق صحفى ونشر ذلك فى الصحف وكتبت بعض الأخبار والمقالات بعضها عما شاهدته من تغيير فى حياة القرية بعد سنوات الاعتقال ، ونشر ذلك فى روزاليوسف المرحوم الأستاذ فتحى خليل واطلع عليها أهل القـرية ٠

٢ ـ عقدنا ندوة عن التعـاون الزراعى بمضـيفة العمدة واستضفنا فيها عضو مجلس الشعب الأستاذ محمود موسى ، وحين حاول مخبر المباحث حضور هذه الندوة ليختال على الناس ، كما كان يفعل قبل ذلك بالقرية وملأها رعبا وتسيد عليها ، قمت بطرده من الندوة ، ففوجىء أهل القرية وتعجبوا ٠

٣ ـ قمنـا بدعاية واسـعة فى القرية للتوعية والتثقيف بأهدافنا ، وأنها لا تتعارض مع توجهات الثورة لأننا معها ولسنا ضدها ، وما نطلبه هو حمايتها لتستمر فى ايجابياتها ٠

٤ ـ وعن التعذيب ركزنا على ما تخلله من عنصر المقاومة والبطولة ، وأن التعذيب وسيلة خسيسة مدانة ومنافية لحق

الانسان فى الحرية والكرامة وحرية الاختيار ، وأن التعذيب يسىء الى سمعة الدولة التى تنتهجه ، وليس هذا شرفا لها ولا بطولة منها أن تعذب الأسير الأعزل وهى تملك القوة والجبروت ٠

٥ ـ أقبلت القرية على معركة لانتخاب العمدة ، ورشح للعمودية أحد أذناب القوى العميلة للمباحث ، والتى استثمرت اعتقالنا لاشاعة جو من الارهاب فى القرية يكرس قيادتها لها ، فقمنا بدعاية واسعة وجريئة استقطبنا فيها كل شباب القرية وأغلبية أهلها لتأييد المرشح الآخر فكانت هزيمة ساحقة لهذه القوى ، واستعدنا بذلك مكانتنا وتأثيرنا مرة أخرى ٠

لكن ذلك استغرق منا جهدا ومعاناة نفسية كانت أقسى علينا من فترة الاعتقال ، كانت البطالة تهز وجداننا ، خاصة وأن أسرنا قد تعبت وساء حالها وتدهورت معيشتها حتى عيرها بعض الأوغاد والأغبياء بنا ونحن فى المعتقل ٠

معاناة للعودة للعمل :

أحيانا يصاب الانسان بحالة سوداوية فيتخيل الموت يترصده وتتوارد عليه فى منامه كوابيس مزعجة على عكس الأحلام الجميلة المبهجة التى كنا نحلم بها فى السجن ٠

كنت أقطع هذه الحلقة السوداوية بكثرة السفر مرة الى بور سعيد لاستعادة ذكريات حلوة عشتها بها فترة عملى قبل الاعتقال ولتحصيل مستحقات كانت متبقية لى طرف المدرسة اليونانية من مكافآت ومرتبات معلقة ، وحين شعر بوجودى ببور سعيد بعض أولياء الأمور من اليونانيين الذين كنت أعطى دروسا لأبنائهم أسرعو لمقابلتى ودفعوا ما كان متبقيا لى عندهم من نقود منذ خمس سنوات ٠٠

كنت فى حاجة ماسة لهذه النقود ، فلم يكن هناك دخل لى ، فالأسرة فى حالة مالية سيئة لا تقوى على مساعدتى ، سوى جنيهات قليلة حصلت عليها من بعض أخواتى بعضها على سبيل المجاملة وبعضها دين أدفعه عند الاستطاعة ٠

سافرت كثيرا الى القاهرة لمتابعة اعادتى الى العمل ، والبحث عما اذا كان قد صدر لى قرار تعيين بوزارة التربية والتعليم ــ أثناء الاعتقال ــ مع زملائى الذين حصلوا على ليسانس كلية دار العلوم التربوى لأستند اليه فى استصدار قرار باعادة تعيينى ــ وسبق أن قلت اننى لم أقدم مسوغات لهذا التعيين لسبق فصلى بقرار من مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء فى أول مايو ١٩٥٦ ، ولم أعثر فى ملفات الوزارة على شيء يفيد فى هذا الأمر ٠ وقد طلبت الوزارة رأى المباحث العامة فأفادت أنه سبق فصلى وأنه لا مانع لديها من اعادة تعيينى فى غير وظائف التدريس ٠

فى فترات سفرى الى القاهرة كنت أنزل على فتحى مجاهد ومحمد الامام وكانا يسكنان فى حجرة ضيقة داخل شقة تسكنها مجموعة أخرى من الموظفين الصغار العذاب فى أحد حوارى القلعة ، كانت الحجرة تضيق بنا الى حد يتعـذر معـه النوم خاصـة اذا استقبلت المزيد من الزملاء وكان يتوارد عليها أحيانا الزملاء : عبد السـلام خشان ومحمود صبيح بالاضافة الى طاهر البدرى الذى جعل اقامته بالحجرة وكان مراقبا ويتمم عليه من القسم كل ليلة .٠ لقد أصبحت الحجرة فى الحرية أسوأ من زنزانة السجن ٠

أخيرا وبعد مجهود شـاق استغرق ستة شهور صدر قرار اعـادة التعـيين من وزارة التربيـة والتعـليم فى ١٩٦٤/١٠/٧ بالمنصورة بمرتب خريج مبتدىء ٠

عرفت بعد استلامى العمل بفترة أنه كان قد صدر لى قرار من الوزارة بتعيينى مدرسا بالمنيا فى ١٩٦١/٩/٢ وأنا بالمعتقل ، وحين تابعت الأمر فى المنيا عندما نقلت اليها منفيا فى عام ١٩٦٧ تبين أن المنيا فصلتنى لعدم استلامى العمل ولعدم استيفاء مسوغات التعيين .

كان هذا الجرى والنشاط رغم قسوته مما خفف الضغط النفسى عنى ، بينما قبع زميلى عبد السلام خشان فى القرية ـ لسوء الحالة المالية ـ يجتر أحزانه وأحواله النفسية السيئة مما ترك أثره المميت على صحته فانفجر منه نزيف المرىء والكبد عدة مرات ـ وكان قد عين واستلم عمله بمصنع الخشب الحبيبى بالمنصورة ـ وعانى عدة مرات من الغيبوبة حتى توفى فى ١٩٧٠/٥/١٢ .

نشــاط متميز فى العمل :

استلمت العمل فى منطقة المنصورة التعليمية فى ١٠/١٠/ ١٩٦٤ عضوا فنيا فى شئون الطلبة والامتحانات ، ثم بعد حوالى الشهر رشحت للعلاقات العامة فنقلت اليها عضوا فنيا ، وكان رئيسها رجلا دعيا وسطحيا ولم يكن كفؤا لهذا المنصب ، وكان المحافظ فى ذلك الوقت اسماعيل فريد قد أنشأ مصيف جمصة ، ودعا عددا كبيرا من الصحفيين والكتاب والمفكرين فى المؤتمر الثالث للفكر الذى انعقد بالدقهلية ، وعهد الى الأستاذ عبد العزيز السيد وكيل الوزارة للتربية والتعليم بالدقهلية بجمع الكلمات والقصائد الشعرية التى ألقيت بالمؤتمر لاخراجها فى كتاب تطبعه المحافظة ، وسلمونى المسجل والشرائط التى سجلت عليها الكلمات لجمعها وكتابتها ، وقمت بهذا العمل بشــكل متميز ، كما كتبت تقريرا تحليليا لهذه الكلمات والأشعار ، فكان هذا العمل محل تقدير واحترام كبيرين من وكيل الوزارة ومن المحافظ ، وترتب عليه أن

أصدر وكيل الوزارة قرارا بندبي مديرا للعلاقات العامة فكنت من ناحية السن والدرجة والمرتب أقل من المرءوسين لى · وأثار هذا أحقادا كثيرة ، رغم أن العلاقات العامة قد تحولت الى خلية من النشاط الثقافي والاعلامي على مستوى المحافظة كلها فأعياد العلم رتبت للاحتفال به في كل مركز ، وجذبت العلاقات العامة الصحفيين والشعراء والمثقفين ، وكان مندوبو الصحف لا يهمهم من المديرية سوى الحصول على الاعلانات مدفوعة الأجر وكان الموظفون يتقاضون عليها العمولات فأوقفت هذا وحولته الى مجرد كتابة أخبار المديرية فى الصحف بدون أجر مقابل تقديم شهادات تقدير فى عيد العلم للمتعاونين من الصحفيين مع المديرية ·· وعممت مسابقات أوائل الطلبة التى تذاع فى الاذاعة ومسابقة الكاس لمين التى يذيعها التليفزيون بين جميع المدارس الاعدادية والثانوية فى تصفيات متعددة فى المراكز مع منح المدارس الفائزة والطلبة المتفوقين الجوائز عى عيد العلم ·

كان الاتحاد الاشتراكي يطبع مجلة « الاشتراكى » و لايقرأها الا عدد محدود ، فوزعتها داخل المدارس الثانوية ودور المعلمين والمعلمات ، وجعل المدرسون مما ينشر بها مادة للمسابقات الثقافية بين الطلبة والطالبات ·

سعيت لربط المدرسة بالبيئة بالمشاركة فى محو الأمية وتعليم الكبار ــ رجالا ونساء ــ ونشر الوعى الصحى ، واقناع السيدات بقيد أسمائهن فى جداول الانتخابات ، وكانت الدقهلية هى صاحبة المرتبة الأولى بين المحافظات من جهة عدد السيدات المقيدات فى جداول الانتخابات .

كتبت عمودا أسبوعيا فى جريدة المنصورة لحل مشكلات الطلاب وأولياء الأمور مع التربية والتعليم ، والاجابة عن تساؤلاتهم وشكاواهم ·

. . اشتركت بالعلاقات العامة مع المحافظة والاتحاد الاشتراكى فى قوافل للتثقيف والتوعية داخل القرى سواء بالنسبة لمحو الأميه أو التعاون والارشاد الزراعى وغيرها من القضايا والمشكلات .

ساعدت على انشاء المدرسة ذات الفصل الواحد ولأول مرة فى قرية الحدادة مركز دكرنس .

نظمت مع قائد ادارة المرور بالدقهلية برنامجا لنشر الوعى المرورى بالمدارس وعبأت معنا سيارة الوسائل التعليمية وأجهزتها فى التسجيل والتصوير ، وقمنا بعديد من الندوات والمحاضرات اشترك معى فيها قائد المرور وبعض ضباطه فى عدد من المدارس الثانوية والاعدادية ودار المعلمات .

كتبت عدة مقالات فى جريدة المنصورة عن المشكلة الزراعية وكيفية حلها ، وعددا من التحقيقات الصحفية عن مشكلات توزيع أراضى الاصلاح الزراعى والجمعيات التعاونية فى عزب طناح وميت السودان ، وعن سوء استخدام الميكنة الزراعية فى بعض الجمعيات التعاونية .

كتبت بالاشتراك مع زميلى الأستاذ عبد السلام خشان كتيبا عن الاصلاح الزراعى بمناسبة عيد الفلاح فى ٩ سبتمبر عام ١٩٦٥ لتنشره المحافظة .

كتبت دراسة عن الاصلاح الزراعى واستصلاح الأراضى الجديدة وكيفية التصرف فيها ــ ردا على مقالات للمهندس سيد مرعى نشرها بالأهرام .

لجنــة الدعوة والفكر :

اشتركت مع مجموعة من الزملاء : عبد السلام خشان ورفعت السعيد وحسين عبد ربه وعبد الله الزغبى وحسن عباس ورشدى

عبد البارى وغيرهم فى لجنة الدعوة والفكر بالاتحاد الاشتراكى بالمحافظة ، وتقدمنا بخطة عمل فكرى وثقافى داخل المحافظة حين كان الأستاذ محمد المصرى مسئولا عن الاتحاد الاشتراكى بالدقهلية ٠

كما اشتركت فى الجهود التى بذلت فى النضال ضد الاقطاعيين ومحاولتهم التهرب من تطبيق قوانين الاصلاح الزراعى ٠

أثار هذا النشاط أحقادا وعداوات ممن لا يريدون خيرا للوطن ، ومن أعداء أى نجاح ، بل ومن جهات فى السلطة والمباحث والاتحاد الاشتراكى فعملوا على تشتيت هذه المجموعة من الشيوعيين التى انضمت الى لجنة الدعوة والفكر ، لابعادها عن الدقهلية والتخلص منها قبل أن تمتد جذورها على نطاق أوسع بقرى المحافظة ٠

كان الموقف هو امتصاص طاقة هذه المجموعة فى مجرد كتابة الخطط والاقتراحات ، ثم وضع كل ذلك فى ثلاجة دون الموافقة على أ نتتحول أى خطة الى عمل وحركة فى الواقع ٠

كانت لجنة الدعوة والفكر بالمحافظة تابعة لكمال رفعت الأمين العام للدعوة والفكر بالاتحاد الاشتراكى وكان نائبه محمد نصير فكنا دائما على اتصال به وبالأستاذ عبد المنعم القصاص ٠

كان النشاط لا يزيد عن حضور الاجتماعات وكتابة التقارير بالخطط التى نقترحها للتوعية الفكرية والثقافية بين الجماهير ، وحضور الندوات التى تعقد بالمركز العام للاتحاد الاشتراكى بالقاهرة ٠

في احدى هذه الندوات ـ وكانت عن قرارات المؤتمر القومي للتعليم الذى كان منعقدا بنقابه المعلمين قبل ايام للتعريف بهذه القرارات ـ التى انعقدت بقاعة الاتحاد الاشتراكى وجدت الاستاذ عبد العزيز السيد وكان وكيلا لوزارة التربية والتعليم بالدقهلية ويحاول جاهدا أن يجد له مكانا فى الأجهزة القيادية بالاتحاد الاشتراكى ، فوجئ بى فى الصالة والأستاذ محمد نصير ينادينى بالاسم ـ وهو يجلس بجانبه على المنصة ـ فاندهش لهذه المفاجأة وقال لى مش تقوللى ان لك هذه الاتصالات وتوثقت علاقته بى من يومها ، وكان قبل ذلك قد بدأ يستمع لنقد القوى الرجعية بالدقهلية واعتراضها على وجودى مديرا للعلاقات العامة ، وكان ينوى الاستجابة لها بالاطاحة بى ، لكن توقفت المحاولة من ذلك اليوم .

ضقنا ذرعا بحالة الجمود فى نشاطنا .. فمن حقنا أن يكون لنا نشاطنا السياسى فى خدمة وطننا .فنحن لا نعترف بالاحالة الى المعاش فى العمل السياسى .

شكوت للأستاذ محمد نصير .. قلت له اننا فككنا الحزب لتحول نشاطنا للاتحاد الاشتراكى لا أن نتجمد .. فما كان منه الا أن ترك الموضوع الرئيسى للشكوى وعلق على مسألة فك الحزب ـ وكنا نتحرج ونجد صعوبة فى مجرد النطق بكلمة : حل الحزب ـ قال : أنتم لم تفكوا الحزب بل أنتم قمتم بحل الحزب وهناك فرق كبير بينهما !!

شعرت حينئذ بغصة وبحرج كبير ، بل شعرت بالهزيمة لنا وبروح التشفى والانتصار لديه .. وهذه مشاعر متباينة لا تصلح أساسا لقيام لحمة تنظيمية بيننا وبينهم ... وهكذا سارت الأمور لا الى لحمة وانما الى فرقة وتباعد ، حتى بيننا وبين القوى المتقدمة فى السلطة .

النقـــل للمنيـــا :

انتهزت قوى التخلف هذا المناخ غير الصحى وأخذت تكتب التقارير ضده نشاطنا لو أده ، ومحاولة مطاردتنا خارج المحافظة .. كان نشـــاطى فى التربيـــة والتعـــليم هو الأكثر بروزا ووضـــوحا واعتبروه الأكثر خطرا لأهمية التربية والتعليم واتساع مجالها فتمكنوا بتقاريرهـــم الملونة من استصدار قرار من وزير التربية والتعليم « السيد يوسف » بنقلى الى المنيا وابعادى عن أى نشاط له صلة بالجمهور .. حاولت وقف هذا القرار فأرسلت المنطقة التعليمية بقرار من وكيل الوزارة الأستاذ عبد العظيم درويش الى الوزارة بتقرير يثنى على ويشيد بنشاطى وبجهدى المتميز فى خدمة التربيـــة والتعـــليم ، كما أرســـل الى المحـــافظ والى أمين الاتحاد الاشتراكى بالدقهليـــة بهذا المضمون ، وكتب لى وكيـــل الوزارة ـ وهو رئيسى المباشر شهادات تقدير وثناء وشكر على مجهوداتى فى هذا الخصوص لتقديمها الى من يهمة الأمر .

ذهبت الى مكتب السيد الوزير لمعرفة سبب القرار ، فقالوا لى انهم لا شأن لهم فى ذلك وانما السبب هو الاتحاد الاشتراكى ووزارة الداخلية التى أرسلت لوزارة التربية تطلب منها نقلى من الدقهليـــة وابعـــادى عن أى نشـــاط جماهيرى فاتصلت بالاتحاد الاشتراكى وبالمباحث العامة بالدقهلية فادعوا أن لا شأن لهم بذلك ، فذهبت الى الأســـتاذ كمال الحناوى أمين وجـــه بحرى بالاتحـــاد الاشتراكى بالقاهرة ـ ولم تكن لى صلة به قبل ذلك ـ وكان مسئولا عن شئون وجه بحرى ، وقابلت صدفة عنـــده الأستاذ الشـــاعر عبد الرحمن الخميسى فتعانقنا ، وتحدثت فى موضـــــوعى ، فثار الأستاذ كمال الحناوى على قيادات المنصورة ، واتهمها بأنها تعمل العملة وتتنـــكر لها ثم تنسبها الى الغير ، وأنهم يفصلون الأعضاء

ويتبرأون من فعلتهم ويتهمون القيادة المركزية بذلك ، ثم طلب ملفي واطلع عليه ثم قال لى انهم أرسلوا له خطابا يطلبون فيه نقلى من الدقهليه وابعادى عن العمل الجماهيرى ، وأرفقوه بتقرير صادر من منظمة الشباب موقع من السيد شيحه أمين الاتحاد الاشتراكى بدكرنس ، يذكر فيه أننى قلت فى جلسة فى قريتى ان منظمة الشباب تشبه الحرس الأحمر الصينى ، وإن الاتحاد الاشتراكى بالدقهلية مشرف على تغييرات فى قياداته وإن الذى بلغه بذلك هو أمين الاتحاد الاشتراكى بميت الحلوج حمدى عبد الفتاح ومعه عضـوا المكتب عثمان مجاهـد وأحمد السـيد فهؤلاء لم يكونوا سـياسيين ولم يعملو عمـلا سـياسيا ، بل كان عملهم أقرب الى المرشدين والجواسيس ٠

اعتمد هذا التقرير من أمين الشباب ابراهيم أمين ومن أمين الاتحاد الاشتراكى بالدقهلية ، محمد المصرى ٠

وذكر كمال الحناوى أنه تعجب من هذا التقرير ومن الطلب المرفق واكتفى بأن أرسله كما هو ــ دون تعليق ــ الى وزير التربية التعليم ليتصرف كما يحلو له ٠

أما وزارة التربية فقد أرادت أن تتـأكد من هذا الموضوع فأرسلت الى وزارة الداخلية تطلب تقريرهـا عنى فأسرعت هذه وانتهزت الفرصـة لترد بتقرير أسـوأ ٠ قالت ان المذكور من الأزهريين القـلائل الذين خرجوا عن دينهم ــ (وهـكذا سـبقت الداخلية الى اتهام الشرفاء بالكفر فسبقت بذلك جماعات التكفير وأعطت لنفسها الحق فى منح وحجب صكوك الغفران عن المصريين ويبدو أن الاتهام بالتكفير نقمة سريعا ما تعود على أصحابها ، فها هى جماعـات التـكفير تتهم المجتمع ورجال وزارة الداخليـة بالذات

بالكفر) ـ واعتنقوا الشيوعية ، وهو يهاجم الاتحاد الاشتراكي ومنظمة الشباب ويتهمها بالفاشية وبأنها تشبه الجستابو الألمانى ، وان الموافقة على اعادة تعيينه كانت مشروطة بابعادة عن التدريس وعن الاتصال بالجمهور ٠

ازاء هذا قرر وزير التربية والتعليم نقلى من الدقهلية الى مديرية التربية والتعليم بالمنيا واستدعى مديرها الأستاذ عثمان فيظ الله ، وذكر له انه نقل اليه موظفا مشاغبا وثوريا وأنه أرسل الى محافظ المنيا بخطاب بخصوص هذا الموظف ليساعدة فى متابعته وترويضه بواسطة أجهزة الأمن عنده (هذا ما ذكره لى الأستاذ عثمان فيظ الله بعد أن توطدت علاقتى به بعد ذلك وتعاطف مع قضيتى) ٠

كانت تأشيرة الوزير بالنقل قد صدرت فى نوفمبر ١٩٦٦ وكنت وقتها فى معسكر تدريب لقادة الرحلات بمدرسة الزراعة بالمنصورة وكنت مديرا لهذا المعسكر ، ولم يكن قرار النقل قد وصل بشكل رسمى ، ولكنى علمت به من الأستاذ عبد التواب يوسف رئيس قسم الصحافة بالعلاقات العامة بالوزارة وكان قد حضر الى المنصورة لاجراء مسابقة أوائل الطلبة بمدرسة المنصورة الثانوية للبنات ٠٠ وقد علم بهذا القرار فى الوزارة وكان مستغربا من صدوره ، واستفسر منى عن سببه ، ولم أكن أعرف عنه شيئا ٠

نصحنى الأستاذ عبد الرحيم رشوان وكيل المديرية فى ذلك الوقت بالاسراع بالانقطاع عن العمل والتبليغ عن طلب أجازة مرضية حتى لا يفاجئنى القرار وأنا فى العمل فأضطر الى تنفيذه واتصل يومها الأستاذ عبد العظيم درويش بالاتحاد الاشتراكى للشكوى اليه والثناء على ، والاستفسار عن سبب النقل ، لأننى استنتجت

أن يكون الاتحاد الاشتراكي وراء هذا القرار ، فادعى الأستاذ محمد المصرى أمين الاتحاد الاشتراكى عدم العلم به بل أثنى على ·

انقطعت عن العمل وحصلت على اجازات مرضية مدفوعة الأجر تواصلت حتى عدوان يونيه ١٩٦٧ ، كنت أثناءها دائب الحركة والسفر الى القاهرة والجرى بين وزارة التربية ووزارة الداخلية والاتحاد الاشتراكي بالقاهرة والمنصورة والمباحث العامة بالدقهلية .

عرفت من الاتصالات خلفيات هذا القرار كما شرحت سابقا ، وتقدمت باستقالة مسببة ورفضت ·

ومن المفارقات أننى بعد خروجى من مقابلة الأستاذ كمال الحناوى ـ وقد عرفت منه أن سبب المشكلة نابع من الاتحاد الاشتراكى بالمنصورة ـ قابلت عند الأسانسير الأستاذ محمد المصرى أمين عام الاتحاد الاشتراكى بالمنصورة ـ وكان وقتها فى حالة انكسار واذلال لعزله من هذا المنصب هو واللواء عبد الفتاح فؤاد محافظ الدقهلية بسبب قسوة الصراع بينهما .

ذكرت له انه هو السبب فيما حدث لى ولكنه ـ كما تعود على الكذب والمكر ـ أنكر ذلك ومن المعروف أن محمد المصرى كان يعمل قبل ذلك ضابطا بالأمن برئاسة الجمهورية ، وحين جاء الى الدقهلية ـ وهى موطنه الأصلى ـ حاول بنعومة ودهاء أن يقرب اليه النخبة المثقفة فى الدقهلية ، ولكنه عمل على اشعال الصراع وخلق التناقضات وضرب الأجهزة ببعضها ، حتى عم الاضطراب وفقدان الثقة بين الناس ، وهو الذى اخترع مع منظمة الشباب اشاعة تسرب امتحانات الاعدادية العامة بالدقهلية عام ١٩٦٦ ·

لقد نسى المسئولون واجبهم تجاه الشعب والتفتوا الى صراع المصالح والمغانم فكان هذا المناخ المهيىء للهزيمة .

حين وقع عدوان اسرائيل فى ٥ يونيه ١٩٦٧ أحسست أن واجبى أن أكون فى موقعى ، وعلى أن ألملم جراحى وأتحمل ما نزل بى من ظلم وأقطع اجازتى المرضية ، وأذهب لاستلام العمل وتنفيذ قرار النقل ، وفعلا ذهبت فورا يوم ٥ يونيه الى منطقة المنصورة التعليمية واستلمت العمل بها وأخليت طرفى منها على أن أستلم عملى فى المنيا يوم ٧ يونيه ١٩٦٧ وسافرت الى المنيا وقابلت المدير العام الأستاذ عثمان فيظ الله وكان رجلا قصير القامة وفيه ذكاء ولماحية وطيبة .. طلب لى شايا ، وكان منشغلا فى توقيع أوراق أمامه ، وحوله بعض الموظفين .. جاء الشاى فأخرجت عليه السجائر وعزمت عليه فامتنع ، فقلت له لن أشرب الشــــاى الا اذا أخذت السجارة ، فتناولها وأشعلتها له ، فبادرنى بقوله : « انت حتنام فين » فقلت له حجزت فى لوكاندة بميدان المحطة ، فقال سأحجز لك مكانا فى نادى المعلمين فهو أحسن وأرخص والنادى يقدم وجبات غذاء رخيصة ، وكان النادى مكانا لمبيت المفتشين وكبار الموظفين الزائرين للمديرية .. ويبدو أن من أسباب حجزه مكانا لى بالنادى هو سهولة متابعتى ومراقبتى .

تابع المدير حديثه : نحن فى انتظارك منذ زمن طويل وقد حجزنا مرتبك حتى تستلم ، وسنأمر بصرف مستحقاتك الآن بعد استلامك العمل .. ثم قال مبتسما : احنا حنلبسك ميرى فقلت له أن ما دفعنى الى الاستلام هو دافع وطنى ، وقد تقدمت باستقالتى ورفضت ، وأنا هنا لن أقوم بأى عمل ، لأننى نفيت ظلما ، ولذا أطلب من سيادتك تزكية طلبى بالغـــاء قرار النقل واعادتى الى موطنى الدقهلية حيث لا مصلحة لى ولا أهل فى المنيا ، ولن يكون عندى أى دافع للعمل مع شعورى بالظلم .

انسحب الجيش المصرى من سيناء واحتلها الاسرائيليون ، ووجدت لافتات وشعارات المقاومة المرفوعة فى الشوارع وعلى واجهات المحلات والمنازل وعلى نادى المعلمين ـ تنزع ، وأحسست بانقباضة فى القلب . هل من المعقول بهذه السرعة والسهولة أن تستسلم البلد ، وأن تخفت شعارات المقاومة ، سمعنا أن جمال عبد الناصر قد تنحى عن السلطة ، وأن الجماهير انطلقت فى القاهرة وفى كل مكان كالموج الزاحف تصر على بقاء عبد الناصر فى مكانه من السلطة ليرد الهزيمة ، ويقود الشعب الى معركة الثأر والكرامة .

ودارت حول حركة الجماهير هذه أقوال : هل كانت مديرة أم تلقائية عفوية ، مع أن التدبير لم يكن باستطاعته أن يصنع مثل هذه الأمواج المتلاطمة من البشر !

أسرعت الى مكتب التلغراف لأرسل الى عبد الناصر برقية بالتمسك به قائدا ، ورفض التنحى والعمل على تحقيق الثأر والنصر .

وأرسل مجلس الشعب وفدا اليه يجدد الثقة به ويرفض طلب التنحى ، ويقرر الاستمرار فى الانعقاد حتى يسحب عبد الناصر قرار تنحيه ، ويقبل الاستمرار فى مكان القيادة .

عاد عبد الناصر الى مكانه ليعد العدة لاصلاح الأوضاع الفاسدة ويخطط لمعركة الشرف والثأر .

لم أمكث أسبوعا فى المنيا ، أحسست بالاختناق ، ورسلت للمنيا أطلب تحويلى للقومسيون الطبى بالمنصورة .

حين عدت من الاجازة المرضية وجدت بالمنطقة التعليمية ضجة وتحقيقا حول توقيعي بالانصراف الساعة الثانية ظهرا مع أنني سافرت بالأوتوبيس في الساعة الواحدة حسب متابعات المباحث العامة .

أخذت خلال عام ١٩٦٧ والنصف الأول من عام ٦٨ اجازات متقطعة بعضها اعتيادى وبعضها استقطع من مرتبي ، وبعضها مرضى من القومسيون الطبي بالمنصورة وبالقاهرة بعد أن طلبت الوزارة أن يتم عرضي على القومسيون الطبي العام ، كانت هناك ثغرات ، دفعني العناد واليقين بأنني مظلوم الى الاستفادة منها .

في احدى الاجازات جاءني خطاب من المديرية تذكر فيه أن المحافظ يتمنى لي الشفاء وهو في انتظار مقابلتي بعد شفائي وعودتي للعمل ، وحينما انتهت الاجازة وعدت للمديرية صحبني مديرها العام الى المحافظة ، وقابلنا المحافظ فرحب بي وعرض على أي منصب أختاره بالمديرية أو أنتدب الى المحافظة كمدير للعلاقات العامة بها ، فأخبرته أنني في المنيا منفي ظلما ومادام هذا شعوري فلن أجيد أي عمل ، ولهذا فأنا مضرب عن العمل ، وسأنتهز كل فرصة للحصول على اجازات حتى أنقل الى بلدى ، فتفهم المحافظ موقفي وأحسست بتعاطفه معي ووعدني بأنه سيعمل على الاستجابة لطلب عودتي الى بلدى في خلال ثلاثة أشهر .

لم أعتمد على هذا الوعد كثيرا لأنه في خلال هذه الفترة قد ينقل المحافظ أو يعزل ، فلا أمان لمثل هذه المناصب في الاستمرار، وقد حدث ما توقعته .

اتصلت بالدكتور عبد العظيم أنيس ــ وكان وقتها رئيسا لمجلس ادارة هيئة الكتاب ــ فاتصل بالدكتور حلمي مراد وزير

التربية والتعليم وقتها للاستماع الى قضيتي وأخذت منه موعدا وذهبت لمقابلته وشرحت له موضوعي فتعاطف معي ووعدني بالاستجابة لطلبي بعد الاتصال بالاتحاد الاشتراكي ووزارة الداخلية ، وكنت قد قمت بالاتصالات اللازمة مع الاتحاد الاشتراكي وأخذت وعدا بالموافقة على طلبي بالعودة الى الدقهلية .

ولما ذهبت الى الداخلية وقابلت العميد محمود يونس بالمباحث العامة وافق على النقل لكن لا الى الدقهلية لأنني معروف بها ووضعي فيها حساس ، وأي موقف مني حتى ولو كان تأييدا للحكومة سيفهم على وجه آخر ، ومن الأفضل أن أختار محافظة أخرى ، فاخترت القاهرة ، وجاءت ردود الاتحاد الاشتراكي ووزارة الداخلية في هذا الاتجاه .

النقل للقاهرة :

صدر قرار الوزارة بنقلي الى القاهرة في يوليو ١٩٦٨ ، وكنت في هذه الاتصالات أنسق مع الأستاذ منصور حسين وكان في ذلك الوقت المدير الفني لوزير التربية والتعليم ثم أصبح وكيلا للوزارة ثم نائبا للوزير ثم وزيرا .

أخليت طرفي من المنيا واستلمت في القاهرة ، وفي تنسيق مديرية التربية والتعليم وزعت على مصر الجديدة — التي كنت قد أجرت بها سكنا لأتزوج فيه — وذهبت الى الدكتور عبد الفتاح شلبي وكان موجها أول للغة العربية وطلبت منه توزيعي كمدرس ثانوي على مدرسة ثانوية فوزعني على مدرسة مصر الجديدة الثانوية للبنين — ولم يكن أحد يعرف أنني ممنوع من التدريس حسب أوامر المباحث العامة .

لم أمارس التدريس قبـل ذلك منـذ كنت أدرس حصص التربية العملية وأنا بالكلية ، ولكنني كنت أمارس القاء المحاضرات سواء في العمل السياسي أو الوظيفي ، ومع ذلك كان التدريس يحتاج الى جهد لفهم المادة وطريقـة توصيلها الى الطلبة ، وقد قمت بذلك حتى أكون مدرسا على مستوى طيب وحتى أتمكن من أن أعطى حصصا اضافية للمجموعات الدراسية والانتداب لحصص بالمدارس الخاصة والدروس الخصوصـيـة ٠٠ فقد كانت حالتي المالية تدفعني الى ذلك لسداد الأقساط الشهرية من ثمن أثاث وعفش الزواج خاصة وأنني أثناء فترة نقلى الى المنيا قد اشتركت في مشروع خاسر هو اقامة مصنع للملابس الجاهزة في ظروف الهزيمة والجمود الاقتصادى فخسرت فيه وخسر من اشترك معى ٠

أضف الى هذا المجهود أننى كنت ملتحقا بمعهد الدراسات الاسلاميـة منذ عام ١٩٦٧ ونجحت في السـنة الأولى ثم دخلت امتحان السنة الثانية ونجحت بتقدير جيد جدا عام ١٩٦٨ ٠

قلت ان اعادة تعييني تمت بمرتب أول مربوط الدرجة التي يعين عليها خريج الجامعـة الجديد ولم يعر القرار اهتماما بمدة خدمتي السابقة ولا مساواتي بزملائي في التخرج ، فبقي البون شاسعا بيني وبينهم في الدرجة والمرتب ٠

كان هذا الفارق الظالم مقصودا لشغل الناس وامتصاص طاقاتهم وأوقاتهم في الجرى وراء مساواتهم بزملائهم ٠٠ لم يكن الأمر متعلقا بى فقط بل يشمل عددا كبيرا ممن سبق اعتقالهم ٠٠ وقد اسـتغرق هذا سـنوات عدة ، واحتاج الأمر الى استصـدار قرارات جمهورية متعددة ومتدرجة لاصلاح هذا الخلل ٠

كان البون شاسعا بينى وبين زملائى المتخرجين معى فى الكلية سواء فى الدرجة أو المرتب أو الاستقرار المعيشى وامتلاك مقر السكن وأثاثه وحيازة الآلات المنزلية الحديثة ٠

كانت حالتى أكثر تعقيدا ٠٠ كنت قد سبقتهم فى التعيين فى نوفمبر ١٩٥١ بمؤهل الصيارف بسنوات عديدة مع الاستمرار فى دراستى ٠٠ كان دخلى من الوظيفة يؤهلنى للزواج ، ولحياة الاستقرار ، ولكن السياسة شدتنى اليها ، ثم جاء الفصل السياسى أثناء الاعتقال ، بقرار من مجلس قيادة الثورة فى أول مايو ١٩٥٦ وتصديق مجلس الوزراء فى اليوم التالى ٢ مايو١٩٥٦ ليلقى بى فى الشارع بلا دخل مادى ٠٠ واصلت الدراسة بمساعدة الأسرة التى كانت متعثرة فى ذلك الوقت ٠

كان المفروض أن أتخرج من كلية دار العلوم عام ١٩٥٦ ولكنهم حرمونى ـ كما حرموا غيرى من المعتقلين السياسيين ـ من الامتحان سنتين فتخرجت عام ١٩٥٨ ، ولم ألحق فى التعيين بدفعة ١٩٥٦ التى سبقتنى ، ولا بدفعة ١٩٥٨ المتخرجة معى ، حيث سبق فصلى سياسيا ٠

كان يشترط فى تعيين أى موظف موافقة المباحث العامة ، وكانت هذه تتحكم فى التعيينات وترفض تعيين أمثالى خاصة من سبق فصلهم سياسيا ٠٠ ثم جاءت اعادة التعيين أخيرا فى ١٩٦٤/١٠/٧ بأول مربوط الدرجة ، ولم تتم تسوية حالتى للمساواة بزملائى الا فى عام ١٩٦٩ ٠

الاعارة لليبيا :

من هنا تخلفت عن زملائى لا فى المرتب والدرجة فحسب بل فى فرص الاعارة الى الخارج أيضا ، وكانت هذه أمل كل مدرس وموظف فى مصر لتحسين حالته المادية .

أتيحت لزملائى الاعارة الى الخارج مرة أو مرتين .. بينما على أن أعيش فى حدود مرتبى المتواضع أنا وزوجتى وأولادى ، وان أردت تحسينا فعلى أن ألهث ليل نهار فى أعمال اضافية حتى أسدد أقساط أثاث شقة الزوجية التى كانت كلها بالتقسيط ، هذا علاوة على أن كثرة الاعتقالات وطولها فرض على التأخير فى الزواج .

كانت حياتى الوظيفية تجسد مفارقة غريبة ، فزملائى سبقونى ماديا بينما أتاحت لى امكاناتى فى الفترة الأولى من الوظيفة مناصب وترقيات أعلى مما أتيح لهؤلاء الزملاء لكن ليس بالمنصب وحده يعيش الانسان ، فالحياة ومتطلباتها والخلفية التى جفت مواردها تحتاج الى مزيد من الدخل المادى ، ولا حل لمثل هذه المشاكل الا الاعارة الى الخارج . ولكن دون هذه الاعارة حواجز وعقبات ، حيث قبضة المباحث العامة والمخابرات تخيط بكل شىء ، ولا عمل فى الخارج أو سفر الا بموافقتها.. ورغم ذلك فعلى أن أنتظر عدة سنوات من اعادة التعيين ، وأن أحصل على تقدير امتياز عدة سنوات حتى أدرج فى كشوف الاعارات .

بعد أن تحققت هذه الشروط صدر قرار وزارة التربية والتعليم عام ١٩٧٢ باعارتى الى ليبيا ـ وكانت ليبيا فى ذلك العام هى الأولى فى المعاملة المالية .. وأدخلت نفسى عضوا فى لجنة توزيع المعارين على محافظات ليبيا ، بالوزارة ، وتقدمت بأوراقى الى وزارة الداخلية للحصول منها على تصريح عمل ، ولكن بعد مراوغة فوجئت برفض المباحث العامة اعارتى الى ليبيا وادعت أن مكتب أشرف مروان التابع لرئاسة الجمهورية هو الذى رفض، والمكتب بدوره يتهم الداخلية بالرفض ، فبذلت جهدا شاقا للحصول على وثيقة رسمية من الداخلية بهذا الرفض لأقدمه

لوزارة التربيــة والتعليم لتحول الاعارة الى بلد آخر ، اذ كان الاعتراض ـ كما يقولون ـ قاصرا على الاعارة الى ليبيا فقط .

حتى الحصول على ورقة برفض التصريح لى بالعمل بليبيا كان فى حاجة الى واسطة فتحرك معى للحصول على هذه الوثيقة الأستاذ أحمد مجاهد عضو مجلس الشعب فقابلنا اللواء النبوى اسماعيل وكان وقتها مديرا لمكتب وزير الداخلية وحصلنا على الوثيقة بعد فترة ولكنها لم تفدنى فى شىء لأن قرارات الاعارات لكل البلاد قد صدرت .

ولكن الأمور فى هذا البلد كثيرا ما تسير بشكل غير طبيعى لا يخضع لقواعد معينة ، وأحيانا تحسم العلاقة الشخصية كثيرا من المشكلات .

تعاطف مع حالتى حين علم بها زميل قديم هو الأستاذ حلمى رمضـان كان يعمل مدرسـا بمدرسة الليسـيه بمصر الجديدة ويدرس لابنة أحد الموظفين الكبار فى مكتب الأستاذ أشرف مروان كلمه فى الموضوع محتجا بأنهم يقطعون أرزاق الناس بلا مبرر ، فطلب منه أتقدم له بمذكرة لاعادة النظر فى التصريح لى بالاعارة .

كان جهدى قد نفذ ، ولم تعد عندى قدرة على مواصلة السعى فى هذا النيه الظالم فشرحت له يأسى من اعادة المحاولة ، فطلب منه أن أتقدم له بمذكرة لاعادة النظر فى التصريح لى بالاعارة .

كان جهدى قد نفذ ، ولم تعد عندى قدرة على مواصلة السعى فى هذا التيه الظالم ، فشرحت له يأسى من اعادة المحاولة فطلب منى كتابة هذه المذكرة وسيقوم هو بتقديمها وفعلا أعيد النظر وسحبوا منى وثيقة الرفض وسلمونى تصريحا بالموافقة على اعارتى الى ليبيا .

كانت الموافقة متأخرة فقد سافرت كل الدفعات منذ فترة ، ونصحنى البعض بالســفر منفردا وتقديم نفسى لوزارة التعـليم

بليبيا ، ولكنني رفضت هذه المغامرة ، فلم تعد عندى طاقة تسمح بالمجازفة ، والسؤال عن سبب التأخير ، وقد نكون ليبيا قد اكتفت ولم تعد بحاجة الى مدرسين ، فلا داعى للتعرض للاحراج والعودة بخفى حنين .

فى العام التـالى ١٩٧٣ أصـبح لى الحق فى الاعارة بحكم القرار السابق ، وتأخيرى كان لعذر خارج عن ارادتي فصدر قرار الوزارة باعارتى ، ولاحساس مكتب أشرف مروان بمسئوليته عن عدم سفرى فى العام الماضى ضم اسمى الى كشف الاعارة المسماة الصادرة من مكتبه ٠٠ وكان بالاسم خطأ اضطررنا لتصحيحه ، وأصبح هناك قراران باعارتى الى ليبيا عام ١٩٧٣ ٠

فى هذا العام صدر قرار باعارة زوجتى الى « أبو ظبى » فحاولنا لجمع الأسرة تحويل اعارتها الى ليبيا فرفض الطلب لأن ليبيـا أفضـل فى المعـاملة المالية فطلبت تحويـل اعارتى الى « أبو ظبى » فرفض لأن اعارتى مسماة فقلت اننى أعرت أيضا فى كشـوف الاعارة العادية الصـادرة من الوزارة ولكنهم استكثروا الاعارتين علينا فتنازلت زوجتى عن الاعارة وسافرت معى الى ليبيا كمرافقة فى أجازة بدون مرتب ٠

فى طرابلس بليبيا مكثت أربع سنوات لم أزر مصر فيها حتى فى الاجازات الصيفية الا بعد مرور ثلاث سنوات لأننى لم أكن مطمئنا الى سهولة الحصـول على تجديد التصريح لى بالعمل من وزارة الداخلية بعد التجربة المريرة السابقة ٠

مقالات بصحف ليبيا :

فى العـام الأول من الاعارة ترددت على مكتبـة طرابلس واستخرجت كارنيه اعارة منها ، وفى الاجازة الصـيفية للعام الأول كتبت عشرين مقـالة نشرت فى الجرائد الليبية اليوميـة والأسبوعيـة :

منها دراسة استغرقت ٩ مقالات عن « ابن خلدون ونشاطه السياسى فى المغرب وريادته لعلم الاجتماع » ، ودراسة أخرى استغرقت سبع مقالات عن « ابن رشد » ونشر ذلك بجريدة « الجهاد » اليومية • ومقالات عن « سياسة المال عند عمر ابن الخطاب » ومقال عن « أبى ذر الغفارى أول ثائر فى الاسلام » ومقال عن « التراث واستنهاض الأمة » ونشر ذلك فى مجلة « الأسبوع الثقافى » •

كانت السنة الأولى واجازتها الصيفية فترة خصبة من النشاط الثقافى والفكرى ولكننى انشغلت فى الفترة الباقية فى أمور عائلية عاقتنى عن مواصلة هذا النشاط •

فى مفترق الطرق :

بعد حل الحزب وانضمامنا الى لجنة الدعوة والفكر ، وما واجهناه أثناءها من عبث وخداع ثم النقل للمنيا ثم القاهرة ، ثم الاعارة ومصاعب التصريح بها والمراوحة بين الرفض والموافقة ، وجدت نفسى فى مفترق طرق ، هل أواصل نشاطا سياسيا تنظيميا ، أم عملا ثقافيا فكريا ؟

الأول مارسته لفترة فى المنصورة ، حتى من خلال المنابر الرسمية والعلنية ، فكانت العواصف والزوابع والنفى الى المنيا ، وفى ظلال التفكك والهزيمة وتهرب البعض من الزملاء ممن وضعوا فى مناصب مرموقة ، واجهت المحنة وحدى حتى زالت بعد أن أجهدت أعصابى ، ••• ملت الى الطريق الثانى لعلى بهذا أعمل عملا وأؤدى واجبا هو فى النهاية فى خدمة الحقيقة وكشف الأوهام والزيف والخداع من وراء اللافتات البراقة ، والشعارات

التى تلبس مسوح القداسة ، حتى أساهم فى أن يتلمس الشعب طريقه الذى به يستطيع أن يرتفع بمستواه المادى والثقافى ، بعيدا عن الوعى الزائف والمغلوط الذى يضع العقبات والمعوقات فى طريق نهوضه وتقدمه .

دراسات عن الحركة الاسلامية :

لقد قمت بدراسة ظاهرة الاسلام السياسى فى العصر الحديث وتتبعت مراحلها المختلفة وأعلامها لما لهذه الظاهرة من تأثير متنام فى حياة الشعوب العربية والاسلامية لابراز الجوانب الايجابية فيما يحتويه الاسلام من مبادىء تعلى من قدر الانسان ، وتنحاز الى الحرية والعدالة والشورى وترفع من قيمة العقل والعلم ، وتحث على الاجتهاد ومراعاة المصلحة ودرء المفسدة ، ومراعاة تجدد الأحكام مع تجدد الأزمان حتى لا يتحجر الدين ويصبح قيدا على تطور الحياة وسعادة الانسان .

بينت أن هناك فارقا بين هذه القيم ، وبين من يحاول استخدام الدين واستغلاله كستار يخفى طمع الطامعين وشهوات الطغاة الظالمين ، يحتكرون الدين لحسابهم ، ويعتبرونه حانوتا خاصا بهم يبيعون فيه صكوك الغفران ، ويصدرون منه أحكام التكفير والردة على الناس .

الاسلام أكبر من هذه الأوهام وأرحب صدرا من هذه القلوب الغليظة القاسية ، وأرحم من الجفاة الأدعياء المنحرفين .

كانت الدراسة فى البداية مشروع رسالة ماجستير بعنوان « موقع الشيخ حسن البنا من حركة التجديد الاسلامى فى العصر الحديث » مقدم الى معهد الدراسات الاسلامية ، واتفقت مع

الدكتور عبد العظيم رمضان ليكون مشرفا على هذه الرسالة ، ولكن لجنة الأبحاث بالمعهد ـ كما قالوا لى ـ لم توافق على البحث بهذا الاشراف ، وكان على أن أختار مشرفا آخر ، وأخذت موافقة الدكتور ابراهيم أبو الخشب ، وكان يدرس بالمعهد عن التجديد فى الاسلام ، فوافقت اللجنة عليه .

لكن البحث تشعب عندى الى آفاق أوسع ، وأدركت بعد مناقشات أولية مع المشرف أننا لن نتفق حول كثير من القضايا ، وأن الأفضل أن أسير فى الدراسة حرا فى اجتهادى بدلا من معوقات الاشراف ، على أن أكتفى بنشرها فى اطارها الذى يرتضيه اجتهادى ، واستبعدت مسألة الماجستير أو الدكتوراه .

كانت نتيجة هذه الدراسة الموسوعية والأكاديمية الموثقة هذه الكتب التى طبع بعضها ولا زال بعضها الآخر تحت الطبع :

أما ما طبع منها فهو :

— الاخوان المسلمون هل هى صحوة اسلامية ؟!

الجزء الأول : حسن البنا وبناء التنظيم وبه ملحق احصائى عن كل ما كتبه حسن البنا .

الجزء الثانى : حسن البنا والبناء الفكرى .

الجزء الثالث : الجماعة والعنف .

الجزء الرابع : الجماعة وحركة التحرر الوطنى .

الجزء الخامس : الجماعة والأحزاب .

الجزء السادس : الجماعة والسراى والجيش والوحدة الوطنية .

ــ الاخوان المسلمون والدولة الاسلامية ٠

ــ المرأة وحقوقها فى منظور الاخوان المسلمين ٠

ــ الشيخ محمد عبده رائد الاجتهاد والتجديد فى العصر الحديث ٠

ــ جمال الدين الأفغانى الثائر والمجدد ٠

أما ما هو تحت الطبع فهو :

ــ فجر الحركة الاسلامية الحديثة ٠

ــ عبد الرحمن الكواكبى رائد القومية العربية ٠

ــ محمد رشيد رضا والعودة الى منهج السلف ٠

ــ التراث واستنهاض الأمة ٠

حصـاد السنين :

بعد هذا العرض لبعض مشاهد السيرة الذاتية أرى لزاماً على أن أختمها باستخلاص بعض الدلالات من هذه المشاهد :

أولا :

حين تعرضت الى حياتي في القرية لم يكن هدفي سرد ملامح حياة شخصية ، بل بغرض عرض صورة للحياة في الريف المصرى ـ وقريتنا نموذج فقط ، بل ونموذج متقدم ـ منذ أكثر من خمسين عاما لادراك حجم التطور السريع وللمقارنة بين حياة الأمس وحياة اليوم في القرية المصرية .

كانت أدوات القرية التكنولوجيـة : في الزراعة المحرات والساقية والشادوف والفأس والمنجل والنورج ، فأصـبح الآن آلات الري الميكانيكية الحديثة وآلات الحرث والبذر والحصـد والتدرية .. كانت الملكيات القزمية تتجاور في زراعات مختلفة يضر بعضها بعضا ، فأصبحت الآن جزءا من تجميع زراعى يشمل مساحات واسعة تخضع لدورات زراعية على أسس علمية .

كانت هنـــاك الاقطاعيـات الكبيرة التي يمتلـكها كبـار الاقطاعيين ، والفلاحون يعملون بها كأجراء من العبيد ، يعيشون في أحط حالة من الفقر والجهل والمرض ، فتناول الاصلاح الزراعى

هذه الاقطاعيات ووزعها على صغار الفلاحين ليحررهم من عبودية الاقطاعي ويرفع قامتهم التى أحناها القهر والاستغلال ليعيشوا أحرارا أعزاء ، يتنفسون روح الاستقلال وتتجدد طموحاتهم الى حياة أفضل ٠

كانت أدوات الفلاح فى المنزل هى « الكانون » لطهى الطعام، وفى احسن الأحوال وابور الغاز وكانت وسيلة الانارة هى اللمبة أم شعلة التى يتصاعد دخانها فيلوث جو المنزل ويطلي جدرانه وأسقفه بالسواد وفى أحسن الأحوال لمبة الغاز ذات الزجاج رقم ٥ أو ١٠ وفى البيوت المتيسرة رقم ١٥ وفى المناسبات الكلوب ذو الرتينة والذى يتجمع حوله كل ناموس القرية أو ما يسمى بالهاموشن ٠

كانت وسيلة الشرب هى القلة والبلاص والزير الذى تجلب مياهه من البحر أو الترع مباشرة وتستخدم نواة المشمش أو الشبة فى تنقيته من الرمال والأتربة فقط لا من الجراثيم والطفليات وكثيرا ما كان البحر أو الترعة أو المسجد مكانا يلجأ اليه الفلاح وأبناؤه للاستحمام ، ففى بعض المساجد كانت المياه ترفع من الآبار بآلات رفع يدوية بدائية ٠

كانت الأسرة الريفية تقضى حاجتها فى الخلاء وفى أحسن الأحوال فى كنيف بدائى يصرف فى حفرة داخل المنزل أو فى الشارع وتنزح بعد أن تمتلىء لتلقى على « الكيمان » فى أنحاء القرية ليتجمع عليها الذباب والناموس وكل الحشرات الضارة .

كانت القرية محرومة من المياه النقية والكهرباء والمجارى ، أما التليفونات فلم تكن توجد الا فى مركز البوليس وأحيانا يوجد فرع فى بعض القرى عند العمدة يتصل فقط بمركز الشرطة ٠

أما المذياع فقد عاشت أغلبية القرى دون أن تعرفه الا بعد سنوات طويلة من انشاء الاذاعة المصرية ٠

أما عن التعليم فلم يكن ميسرا للطبقات الفقيرة وحتى المتوسطة لقلة المدارس وبعدها ، وارتفاع مصروفاتها ٠٠ كان الطفل يمكث سنوات محدودة فى التعليم الالزامى – ان لم يتسرب منه – ثم يعود الى الأمية وكأنه لم يدخل مدرسة ٠

أين هذا التخلف والحياة البدائية مما تعيشه القرية الآن خاصة بعد عمل الكثيرين من أبناء القرية فى الدول البترولية ، فأغلب المنازل يبنى بالمسلح وتؤسس بكل الأجهزة الحديثة من راديوهات وتليفزيونات وفيديو ومراوح وأجهزة تكييف وثلاجات وغسالات ومكانس كهربائية وتليفونات ٠

دخلت المياه النقية والكهرباء والمجارى الريف وبدأ رصف بعض الطرق وأنشئت المدارس في كل القرى والمراكز وتوزعت الجامعات في عواصم الأقاليم بل وجدت مزوع لها فى بعض المراكز واحتشدت القرية بالمئات من خريجي الجامعات واعتلى أبناؤها الكثير من المناصب فى الدولة وفى مؤسسات القطاع العام والخاص ٠

ان الفضل الأول فى هذا يعود للتقدم العلمى وثورة الاتصالات التى حدثت فى العالم خصوصا فى النصف الثانى من القرن العشرين ، ولا ننسى دور الثورة فى نشر التعليم وتيسيره على أبناء الفقراء بمجانيته وفتح المدارس الجديدة ، كما لا ننسى دور الثورة فى التصنيع وبناء السد العالى ومحاولة اللحاق بركب التقدم العالمى ٠

ثانيـا :

اذا كانت الثورة قد حفرت فى مجرى تطور المجتمع المصرى آثارا اجتماعية واقتصادية عميقة ، فقد كانت لها سلبياتها فى المجال السياسى ، فرغم أن القائمين بها كانوا يعبرون عن جبهة عريضـة ومدارس فكرية مختلفة ، ورغم أنها قامت فى منـاخ سياسى موات صنعته وشكلته القوى السياسية الديمقراطيـة والتقدمية والاشتراكية والشيوعية التى كانت موجودة فى الساحة قبل قيام الثورة ، غير أن عناصر من داخل قيادة الثورة قد قامت بتصفية الأجنحة الأخرى حتى تنفرد بالقيادة ، ثم قامت بتصفية كل القوى السياسية في المجتمع من أحزاب وتنظيمات وجمعيات حتى لا يكون هنـاك منافس لهـا ، وبذلـك ضربت الديمقراطية ورفضـت حتى الاسـتماع لـرأى آخـر ، حتى لو كـان هـذا الرأى مؤيـدا لهـا ومدعما لتوجهـاتها ، مادام هـذا الرأى صادرا من تنظيم آخر ، وفرضت بذلك حكما شموليا فتح الباب واسعا لـكل المداحين والدجـالين والانتهازيين والوصـوليين أصحاب المصلحة الخاصة الذين انضموا الى الزفة ليحققوا مآربهم على حساب الشعب ، فاتسع الفساد فى الأرض وخلق مناخا ملائما لولادة التطرف والارهاب ·

لقد كانت هذه سياسة خرقاء ــ أتاحت لها بعض الانتصارات فى البداية أن توطد أركانها ، كما أكدتها نشوة السلطة والأنانية فى الاستئثار بها ·

تصورت قيادة الثورة أنها يمكن أن تعبر بمفردها عن ضمير الشعب وطموحاته ، وأن تكون بديلا للشعب وتنظيماته السياسية والنقـابية ، وأن تختزل الصراع الطـبقى فى شخص جمال

عبد الناصر فهو الذى يعالج هذا الصراع ويعيد اليه التوازن فى غيبة عن حركة هذه الطبقات ·

من هنا وضعت الثورة فى قيادة النقابات والجمعيات واتحادات الطلبة وجميع التنظيمات المختلفة العناصر التى أعدتها أجهزة المباحث العامة والمخابرات وتصورتها عناصر مطيعة لها ، فتحولت هذه التشكيلات إلى هياكل هشة لا عقيدة لها ولا ايمان ، منفصلة عن جماهيرها ، لا تستطيع تحريكها واثارة فاعليتها ان دعا داعى الجد ، وكل مهمة هذه الهياكل أن تستأجر بعض التابعين لها – مقابل بعض المميزات المادية التى تقدمها الدولة – لاستقبال زائر أو توديعه أو حضور احتفالات وترديد شعارات تملى عليهم لا يؤمنون بها ، ولا يفهمون لها معنى ·

وبهذا أصبحت ايجابيات الثورة فى مهب الريح ··· هزتها هزة عنيفة هزيمة ١٩٦٧ ثم جاء السادات ليواريها التراب ، دون أن يجد مقاومة من أصحاب المصلحة الحقيقية فى هذه الايجابيات، لأنهم لم يشاركوا فى بنائها ولم يدربوا على حمايتها ، وفرض عليهم طاعة أوامر الحكومة والصمت ، وحتى لو فرض وكانت لديهم النية فى حمايتها ، فأين الأسلحة التى يقاومون بها الردة ··· لقد جردوا من الأشكال التنظيمية المناضلة السياسية والنقابية والتعاونية القادرة على التصدى لحماية مكتسباتهم ·

فى هذا المناخ السىء واجهت وحدى – وأنا نموذج لكثيرين واجهوا اضطهادا مماثلا – ما عانيته من اضطهاد متنوع الأشكال فى فترات مختلفة من حياتى ·· هذا الاضطهاد كان يكمن خلفه رفض الثورة لأى نشاط أو تجمع خارج عن تنظيمها الخاص ومظلتها المباشرة ، لم يكن اضطهادا وتحطيما لشخصى فقط ، بل هو

اضطهاد وتحطيم لتيار سياسى يحاول أن يجتهد ويقدم رؤاه المستقلة فى خدمة الوطن والثورة نفسها .

فى هذا الاطار يمكن تفسير حرمانى أنا وكل الطلبة المعتقلين من الامتحان طوال أعوام المعتقل ·

وحين فصلت ـ وأنا بالمعتقل ـ بقرار من مجلس قيادة الثورة فى أول مايو عام ١٩٥٦ وبتوقيع من جمال عبد الناصر ، وتصديق مجلس الوزراء فى اليوم التالى ٢ مايو ١٩٥٦ وبتوقيع جمال عبد الناصر أيضا ، لم أكن وحدى ، وانما كان هناك عدد آخر من المعتقلين فصلوا من مجالات مختلفة ·

حاولنا فرادى الغاء قرار الفصل دون جدوى ، لم نستطع تكوين لجنة تتابع هذا الموضوع لأننا انشغلنا بعد الافراج مباشرة فى الدعوة لانتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية فى ٢١ يونيو ١٩٥٦ وقبلها بثلاثة أيام احتفالات جلاء القوات البريطانية عن أرض مصر فى ١٨ يونيه ١٩٥٦ ··· ثم معركة بناء السد العالى ورفض أمريكا والغرب والبنك الدولى تمويله بعد أن وعدوا بمساعدتنا ، ثم تأميم القناة ـ كرد على ذلك ـ فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ثم العدوان الثلاثى فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ومقاومته ·

انشغلنا بالمعارك العامة عن المعارك الخاصة ·.· وحل البعض مشاكله بالعمل فى الصحافة ، أما بالنسبة لى فقد انشغلت باستكمال دراستى بالكلية بجانب العمل السياسى ·

لم تشفع لى مساهماتى فى المعارك العامة السابقة ، بل وضعوا أمامى العقبات لاستكمال دراستى بفصلى من الكلية كطالب منتظم وتربوى مما استدعى منى جهدا استغرق الفصل الدراسى

الأول من العام الدراسى ١٩٥٧/٥٦ حتى استصدرت قرارا من مجلس الجامعة ومجلس الكلية لاعادة قيدى بالكلية كطالب نظامى تربوى ٠

ولكن قبل أن أفيق من هذه الضربة ، ووجهت بضربة أخرى ، وهى محاولة منعى من دخول امتحان الفصل الدراسى الأول فى يناير ١٩٦٧ بحجة واهية غير قانونية ـ ولكن متى كان القانون فى ذلك الوقت له قيمة ؟!

وبعد اعتقال ١٩٥٩ ثم الافراج عنا فى ابريل ١٩٦٤ راوغوا فى اعادتنا الى العمل ، وحين وافقوا ـ بعد أن أرهقونا ـ أعادونا بأول مربوط درجة تعيين الجامعى متخلفين عن زملائنا فى التدرج فى المرتب والدرجة ٠٠ ولم تتحقق تسويتنا بزملائنا الا بعد أن استهلكوا طاقتنا عدة سنوات ، ولم يصرفوا لنا ما نستحقه من فروق مالية ٠

وحتى بعد أن قمنا بحل الحزب ـ تمهيدا لتحقيق وعد قيادة الثورة بضمنا للتنظيم الطليعى ـ استمر الاضطهاد والمطاردة فصدر قرار بنفيى من الدقهلية الى المنيا فى أواخر عام ١٩٦٦ ورفضوا عودتى الى الدقهلية موطنى لأظل منفيا عنه خوفا من أى تأثير لى ٠

لم يكتفوا بهذا بل وقفت المباحث العامة فى طريق اعارتى الى ليبيا عام ١٩٧٢ حين صدر قرار وزارة التربية والتعليم ، فرفضوا منحى تصريحا للعمل بليبيا ، وبعد جهد شاق وافقوا فأعرت عام ١٩٧٣ ٠

وحتى لا أواجه بتعقيدات جديدة ومشاغبات فى تجديد التصريح اضطررت لعدم العودة الى مصر لرؤية أهلى لمدة ثلاث سنوات من الاعارة ٠

هذا الاضطهاد والمطاردة المستمرة طوال أكثر من عشرين عاما ـ مرت بها الثورة في ظروف مختلفة ـ لا يدل الا على الرفض والكراهية الدفينة لدى قادة الثورة وأجهزة الأمن بها لأي رأي مستقل حتى ولو كان مؤيدا للثورة ٠

وهذا يؤكد أن الأجهزة الرجعية التي كانت تنفذ سياسة القصر والاقطاع والاستعمار لا يمكن أن يعهد اليها بتنفيذ سياسة وطنية متحررة واجتماعية متقدمة ، لأنها لا تتعاطف مع الشعب وطموحاته ، وولاؤها لقوى التخلف والرجعية ٠

ان السياسة الجديدة لا بد لها من أجهزة جديدة ورجال جدد يؤمنون بها ويعملون على انجاحها ٠

ثالثا :

شاركنا باخلاص في تأييد انتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية في يونيو ١٩٥٦ وفي مقاومة العدوان الثلاثي في بور سعيد ثم فضح ومقاومة مشروع ايزنهاور ، ورغم ذلك تآمرت الحكومة لسحب زملائنا من بور سعيد بعد أن تقرر سحب قوات الغزو ، حتى لا يشاركوا في احتفالات النصر ويتضح دورهم في هزيمة العدوان ، لينسب النصر للوصوليين الذين لم يقدموا أي تضحية في هذا المجهود النضالي ، ثم بعد ذلك اعترضت الثورة على ترشيح زملائنا أبطال مقاومة العدوان في انتخابات مجلس الأمة عام ١٩٥٧ ، كما اعترضوا على كل المتعاطفين معنا ، مما يؤكد السياسة الثابتة لقادة الثورة في رفض المشاركة السياسية لأي قوة أخرى مستقلة عن تنظيمات الثورة ، حتى تستمر السلطة خالصة لهم دون أي منافسة محتملة ٠

رابعا :

انتهجت الثورة منذ قامت سياسة التضييق على الوطنيين والديمقراطية والتقدميين وفتحت المعتقلات وزجت فيها بأخلص أبناء الشعب ، واستمرت المعتقلات مفتوحة لسنوات طويلة باستثناء فترات محدودة ، كما شكلت المحاكم العسكرية لتصدر الأحكام القاسية والطويلة بالأشغال الشاقة على المناضلين فى سبيل حرية الوطن وحق الطبقات الشعبية فى الحياة والحرية والعدالة ، وقضى هؤلاء المناضلون سنوات الحكم كاملة دون أن يعطى لهم حق الاعفاء من ربع المدة مثل المساجين الجنائيين العاديين ، بل حولوا الى المعتقل بعد أن قضوا فى السجن عشر سنوات ليستمروا معتقلين عدة سنوات أخرى .

ولم يقف الأمر على فترات السجن والاعتقال الطويلة بما يصحب ذلك من مآسى اجتماعية عانتها أسرهم ، انما تجاوز ذلك الى حرمان المعتقلين والمسجونين السياسيين من حقوقهم التى كفلتها لوائح السجون والمعتقلات ، وتعدى الأمر ذلك الى فرض حالة من الارهاب والترويع للأسر واستخدام أبشع ألوان التعذيب والسخرة والانهاك والتجويع والقتل المباشر والبطىء .

أذكر أنه كان فى العشرينيات من القرن العشرين مشروع لمكافحة الحفاء خاصة فى الريف من فقراء الفلاحين والعمال الزراعيين، ومع نمو الوعى والتحضر اختفى الحفاء ، وأصبح أفقر الناس يلبسون حذاء أو شبشبا أو بلغة .

ولكن رجال الثورة وضباط التعذيب المغاوير رفضوا هذا التحضر ، وأصروا لا على رفض حقوق الانسان فحسب بل العودة الى الماضى البدائى المتخلف ، ففرضوا على صفوة المفكرين والمثقفين

والفنانين والمناضلين من أجل حياة أفضل لجماهير الشعب ـ فرضوا عليهم أن يخلعوا أحذيتهم وأن يعيشوا حفاة الأقدام لعدة سنوات ليتسق الحفاء مع الضرب والانهاك والتجويع والقتل والأشغال الشاقة في تكسير أحجار البازلت في ليمان أبى زعبل دون جريمة • انه منطق القوة والقسوة بلا حدود ، والتعسف في استخدام السلطة دون وازع من دين أو أخلاق أو وطنية •

كان حب السلطة ورفض أى احتمال للمنافسة عليها هو الدافع الوحيد لهذه الأعمال الاجرامية •• كانوا يتصرفون بحماقة وبضيق أفق ، وكأن الحياة والسلطة ستدوم لهم الى ما لا نهاية •

ماذا كانت نتيجة هذا التعسف ؟!

انتشر الرعب فى قلوب كل أبناء الشعب ، أصبح المعتقلون والمسجونون نماذج مجسمة لفقدان الحرية والمطاردة فى الرزق والعمل والعزل السياسى والملاحقة المستمرة من قبل المباحث العامة • لهم ولكل من يتصل بهم ، حتى أصبح كل واحد منهم كالجمل الأجرب يحرص الناس على الابتعاد عنه فلا يجالسونه ولا يقبلون مصاهرته هربا وخوفا من الاتهامات والشكوك ومن الوقوع فى نفس المصير التعس •

ومتى كانت هذه نتائج العمل السياسى المستقل فسحقا للسياسة وللعاملين بها ••

هكذا أصبح العمل السياسى الجاد مخيفا ومرعبا ، وجالبا لصاحبه مصيرا مفزعا قد يودى بحياته •

من هنا أحجم الناس عن المشاركة السياسية أو التفكير فى قضايا الوطن والمجتمع ، فعمت السلبية وتراجع الناس الى الصمت ، حتى أصبحت الانتخابات بلا جمهور لا يحضرها أحد ، تركوها للمزورين ينفردون بقوائم الناخبين وبطاقات الانتخابات يسودونها على هواهم ، حتى الموتى يبعثونهم من قبورهم ليضعوا أصواتهم !! عمليات تزييف احترفتها الدولة وحكمت بلا شرعية .

خلا الميدان من كل الكفاءات المناضلة والايجابية وأصبح المجال فسيحا للطبالين والزمارين ولكل الوصوليين والانتهازيين فتقدموا ليملأوا كراسى التنظيمات الحكومية والنقابات والجمعيات ، ومع كثرتهم كانوا كغثاء السيل ، اذ أصبحت هذه الهياكل كيانات هشة لا تغنى شيئا فلا تجلب نفعا ولا تصد ضررا ، وأصبحت سوقا لتبادل المصالح وتحقيق المآرب الشخصية فعمت البلوى وانتشر الفساد ، وفرخ هذا المناخ ظاهرة التطرف والارهاب ليحدث هذا كله تحللا فى نسيج المجتمع وفى قيمه الأصيلة ، ليحل محلها فى هذا الزمن الردىء قيم الفهلوة والمادة ، وتتوارى قيم العمل والعلم والأمانة والاتقان .

روعوا الأهالى وشردوهم سنوات طويلة ، واعتقلوا وسجنوا وعذبوا المناضلين .

فماذا كانت النتيجة ؟!

قتلوا روح النضال عند الشعب وأجهضوا الجرأة والغيرة الوطنية عند الشباب ، وأماتوا روح الاقدام والنخوة والتضحية عند أجيال عديدة ، حتى روح التعاطف الانسانى والاسراع لانقاذ الملهوف أو المصاب فى الطريق كادت أن تنمحى من قاموس التعامل فى الشارع ...

لقد قام الحكام المتسلطون بعملية اخصاء لروح الكفاح الشعبى .. تعيث اسرائيل كل يوم فى العالم العربى فسادا .. تضرب هنا وهناك .. وتحتل عاصمة احدى الدول العربية ، وتتجول طائراتها فى نزهات يومية لتضرب كل مكان فى الجنوب اللبنانى وتقتل أكثر من مائة طفل وشيخ وامرأة فى قانا وتذيق الشعب الفلسطينى مر العذاب والعلقم كل يوم تقتل أبناءه وتحاصر شعبه وتبنى المستوطنات فى كل مكان وتهاجم المسجد الأقصى ، وتعمل على تقويض أركانه ببناء الأنفاق تحته وتضرب بالاتفاقات التى وقعت عليها عرض الحائط .

كل هذا لا يحرك فى الشعب المصرى أو فى تنظيماته الحكومية أو نقاباته الصفراء غرقنا ينبض بالغيرة والاحتجاج ، وعلى طول أرض مصر لا تتحرك مظاهرة لشجب هذه التصرفات وادانتها وان حدث فتحت السجون والمعتقلات لقادتها ، فالحكومة تغنى عن الشعب تحتج وتشجب بالبيانات الجوفاء ..

وأمريكا بسياستها الاستعمارية والصهيونية تعامل العالم عربى معاملة خاصة .. تكيل بمكيالين تدلل اسرائيل وتشجعها لى البلطجة والارهاب وضم أراضى الغير لها بالقوة والجبروت ، تمدها بكل وسائل القوة لتنفيذ هذه السياسة ، بينما تعمل على اضعاف العرب وتفتيت قواهم ، وتختلق الأكاذيب لحصارهم وتجويع شعوبهم ، وتتخذ من مجلس الأمن مطية لها لفرض الحصار على شعوب العراق وليبيا والسودان ومحاولة احتواء الشعب الايرانى

أمام كل هذه الأهوال التى تستفز الموتى نرى الاسترخاء واللا مبالاة فى الشارع المصرى بسبب التاريخ الطويل من التعذيب

والملاحقات المستمرة لأجهزة الأمن المصرية لأى نبتة احتجاج تلوح بوادرها فى الجامعات أو النقابات أو التكتلات العمالية ٠٠

فى عهد الملكية كان من يبيت ليلة فى حبس قسم الشرطة أو المركز يخرج بطلا ترفعه الجماهير على أعناقها نعتز بكفاحه وتضحياته فتثير النخوة وتحرض الشباب على النضال ، أما فى عهد الثورة فيغيب المناضل أكثر من عشر سنوات فى السجون والمعتقلات دفاعا عن حقوق الشعب ثم حين يفرج عنه لا يجد سوى الانكار والتجهم بل التهكم على نضاله ٠

ينتشر الفساد فى كل مكان ، ويسرق المال العام ، وتتضخم ثروات المعدمين ممن يحتلون المناصب الخطيرة ، ويحدث هذا خللا كبيرا على دخول الطبقات الشعبية يدفعها الى مزيد من التدنى والافقار كل يوم ، وأمام هذه الحالة السيئة لا نجد احتجاجا جماعيا ولا ادانة فردية مكتوبة ، مع أن الناس يعرفون تفاصيل الانحرافات وتتناقلها ألسنتهم فى مجالسهم الخاصة ٠٠ ولكنهم أمام العمل الجماعى والموقف الجاد كأن على رؤوسهم الطير ، يجدون فى الصمت أبلغ رد ، أكلت ألسنتهم وجف المداد فى أيديهم ، وفقدوا لحمة التعاون والتضامن فى دفع المفسدة وجلب المصلحة

سدت كل الطرق ــ سدتها الدولة ــ أمام التعبير الصحى والتحرك السلمى الجماعى لتغيير الواقع السىء وامتصاص الغضب وتقويم المفسد واصلاح الفساد ، وبذلك انفتح الطريق أمام دجالين من نوع آخر يفسرون الدين لحسابهم ويتاجرون به ، ينشرون الوعى الزائف والمغلوط للدين ضاربين بصحيح الاسلام عرض الحائط ، يستغلون مناخ السرية ، وحرمان القوى الديمقراطية والتقدمية من كشف هذا الزيف ، فعلت نبرة التطرف ، واستقطب

أعدادا كبيرة من الشـباب الذى يعيش الفراغ والبطالة وانعدام العقيدة الوطنية الصحيحة ، وخلو الميدان من التنظيمات الجادة والواعية التى تنهض بالشباب وتملأ وجدانه بالايمان بالوطن وبقيم الشعب الأصيلة وتعمل على التوعية بصحيح الدين وتفند أباطيل الأدعيـاء .

من هنا انتشر وباء الارهـاب يخرب اقتصـاد البلد ويهز استقرارها ويهدد مستقبلها ويدمر عقل الشباب ووجدانه ٠

ولا منقذ الا باحترام الشعب والثقة به واعادة حقوقه اليـه والاقرار بمبـادىء حقوق الانسـان والعمل بها فى المشـاركة السياسـية بالرأى وحريـة العمل السـياسى وتنظـيم الأحزاب والجمعيـات وحرية التعبير وحق الطبقـات الشـعبية فى العـدل الاجتماعى ومحاربة الاستغلال والقهر وتقييد الحريات مع الغاء حالة الطوارىء ومحاربة الفساد ٠

بهذا تقتلع جذور الارهاب ويعود الى الشعب وعيه وايمانه بالقيم النبيلة التى تصـبح جزءا من سلوكه اليومى ٠٠٠ فينبذ الموقف السلبى وتعود اليه ايجابيته وتقديسه للنضال والتضحية ٠ . بهذا يشق طريقه الى مستقبل أكثر تحضرا وقوة وازدهارا ٠

الفهـــــرس

الموضـــوع	الصفحه
في كلية دار العلوم ــ قامت الثورة فأيدناها	٤٥
معـاداة الديمقراطية	٤٦
الفصل الثالث : من السـجن الى الاعتقـال والفصـل السـياسى :	٤٩
في السجن لأول مرة	٤٩
الافراج من النيابة ــ هبة مارس ١٩٥٤	٥٤
في المعتقل مـرة أخـرى	٥٧
في أوردى ليمان أبي زعبل	٥٨
اضراب عن الطعام يقابل بالجلد والتعذيب	٦٢
مواقف استقلالية مشجعة للثورة ــ الافراج عن المعتقلين	٦٦
الفصل السياسي من الوظيفة	٦٩
الفصل الرابع : معارك متواصله ضد الاستعمـار : .	٧١
تأميم القناة والعدوان الثلاثى واندحـياره . . .	٧١
نظرية الفراغ ومشروع أيزنهاور ــ أكبر عريضة ضـد المشروع	٧٤
فصلوني من الكليـة كطالب نظامى	٧٦
حاولوا حرماني من الامتحان للعام الثالث	٧٧
معركة انتخابات مجلس الأمة	٨٢
التضامن مع الثورة الجزائرية	٨٤
الفصل الخامس : محنة الوحدة الوطنية	٨٥
التمهيد لمحنة ١٩٥٩ ــ وحدة الشيوعيين وانقساماتهم	٨٥
تصاعد المد الوطنى والقومى	٩٣

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصـفحة

صـــدر في هـــذه السلسلة :

١ ـ **مصطفى كامل في محكمة التاريخ .**
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٢ ـ **علي ماهـــر .**
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧

٣ ـ **ثورة يوليو والطبقة العاملة :**
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧

٤ ـ **التيارات الفكرية في مصر المعاصرة .**
د. محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧

٥ ـ **غارات أوروبا على الشواطئ المصرية في العصور الوسطى .**
علية عبد السميع الجنزوري ، ١٩٨٧

٦ ـ **هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ .**
لمعي المطيعي ، ١٩٨٧

٧ ـ **صـــلاح الدين الأيوبي .**
د. عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧

٨ ـ **رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية .**
د. علي بركات ، ١٩٨٧

٩ ـ **صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل .**
د. محمد أنيس ، ١٩٨٧

١٠ ـ **توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية .**
محمود فوزي ، ١٩٨٧

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية .
شكرى القاضى ، ١٩٨٧

١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير .
د. نبيل راغب ، ١٩٨٨

١٣ ـ اكذوبة الاستعمار المصرى للسودان : رؤية تاريخية .
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

١٤ ـ مصر فى عصر الولاة ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونيـــة .
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الاسلامى .
د . على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر : دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ ـ ١٩٥٢) .
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٨

١٧ ـ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى .
د. محمد نور فرحات ، ١٩٨٨

١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية .
د. على السيد محمود ، ١٩٨٨

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين .
د. أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨

٢٠ ـ دراســات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراســلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى .
د. محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨

٢١ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، جـ ١ .
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨

٢٢ ـ **نظرات فى تاريخ مصر .**
جمال بدوى ، ١٩٨٨

٢٣ ـ **التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ٢ ، أمام التصوف فى مصر : الشعرانى .**
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨

٢٤ ـ **الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) .**
د. نجوى كامل ، ١٩٨٩

٢٥ ـ **المجتمع الاسـلامى والغرب ،**
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين ، ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩

٢٦ ـ **تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،**
د. سعيد اسماعيل على ، ١٩٨٩

٢٧ ـ **فتح العرب لمصر ، ج ١ ،**
تأليف : ألفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩

٢٨ ـ **فتح العرب لمصر ، ج ٢ .**
تأليف : ألفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩

٢٩ ـ **مصر فى عصر الاخشيديين ،**
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩

٣٠ ـ **الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،**
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٩

٣١ ـ **خمسون شخصية مصرية وشخصية ،**
شـكرى القاضى ، ١٩٨٩

٣٢ ـ **هؤلاء الرجال من مصر ، جـ ٢ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٨٩

٣٣ ـ **مصر وقضايا الجنوب الأفريقي : نظرة على الأوضاع الراهنة ورؤية مستقبلية ،**
د. خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩ .

٣٤ ـ **تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ،**
د. يونان لبيب رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

٣٥ ـ **أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠

٣٦ ـ **المجتمع الاسلامى والغرب ، جـ ٢ ،**
تأليف : هاملتون بووين : ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٩٠

٣٧ ـ **الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ،**
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠

٣٨ ـ **فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ،**
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠ .

٣٩ ـ **قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤ ـ ١٨٢٧) ،**
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠

٤٠ ـ **الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ،**
د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى ، ١٩٩٠

٤١ ـ **محمد فريد : الموقف والمأساة ، رؤية عصرية ،**
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١

٤٢ ــ **تكوين مصر عبد العصور ،**
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠
٤٣ ــ **رحلة فى عقول مصرية ،**
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠
٤٤ ــ **الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى ،**
د٠ محمد عفيفى ، ١٩٩١
٤٥ ــ **الحروب الصليبية ، ج ١ ،**
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتقديم : د٠ حسن حبشى ، ١٩٩١
٤٦ ــ **تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ ــ ١٩٥٧) ،**
ترجمة : د٠ عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١
٤٧ ــ **تاريخ القضاء المصرى الحديث ،**
د٠ لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١
٤٨ ــ **الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الاسلامى**
د٠ زبيدة عطا ، ١٩٩١
٤٩ ــ **العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ ــ ١٩٧٩) ،**
د٠ عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
٥٠ ــ **الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ــ ١٩٥٤) ،**
د٠ سهير اسكندر ، ١٩٩٣
٥١ ــ **تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية ،**
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، فى ابريل ١٩٩١) أعدها للنشر : د٠ عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
٥٢ ــ **مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، فى القرن الثامن عشر ،**
د٠ الهام محمد على ذهنى ، ١٩٩٢

٥٣ ـ **أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة ،**
د. محمد كمال الدين عز الدين على ، ١٩٩٢

٥٤ ـ **الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى .**
د. محمد عفيفى ، ١٩٩٢

٥٥ ـ **الحروب الصليبية جـ ٢ ،**
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشى ، ١٩٩٢

٥٦ ـ **المجتمع الريفى فى عصر محمد على : دراسة عن اقليم المنوفية ،**
د. حلمى أحمد شلبى : ١٩٩٢

٥٧ ـ **مصر الاسلامية وأهل الذمة ،**
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢

٥٨ ـ **أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة ،**
د. ابراهيم عبد الله المسلمى ، ١٩٩٣

٥٩ ـ **الرأسمالية الصناعية فى مصر ، من التمصير الى التأميم (١٩٥٧ ـ ١٩٦١) ،**
د. عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣

٦٠ ـ **المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٣

٦١ ـ **تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث ،**
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٢ ـ **هؤلاء الرجال من مصر جـ ٣ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٩٣

٦٣ ـ **موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية ،**
تأليف : د. سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور . وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣ .

٦٤ - **مصر وحقوق الانســـان ، بين الحقيقة والافتراء دراسـة وثائقية ،**
د. محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣

٦٥ - **موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ - ١٩١٧)**
سهام نصـــار ، ١٩٩٣

٦٦ - **المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى**
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣

٦٧ - **مساعى السلام العربية الاسرائيلية : الأصول التاريخية ،**
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس ، فى ابريل ١٩٩٣) أعدهـا للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٨ - **الحروب الصليبية ، ج ٣ ،**
تأليـف : وليم الصـــورى ، ترجمة وتعليـق : د. حسن حبشى ، ١٩٩٣

٦٩ - **نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦ - ١٩٥١) ،**
د. محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤

٧٠ - **أهل الذمة فى الاســـلام ،**
تأليف : أ. س. ترتون ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشى ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٧١ - **مذكرات اللورد كلين (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،**
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٤

٧٢ - **رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصـــادية لمصر فى العصر الفاطمى (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) ،**
أمينة أحمد امام ، ١٩٩٤

٧٣ ـ **تاريخ جامعة القاهرة ،**
د. رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤

٧٤ ـ **تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، جـ ١ ، فى العصر الفرعونى**
د. سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤

٧٥ ـ **أهل الذمة فى مصر ، فى العصر الفاطمى الأول ،**
د. سلام شافعى محمود ، ١٩٩٥

٧٦ ـ **دور التعليم المصرى فى النضال الوطنى (زمن الاحتلال البريطانى) ،**
د. سعيد اسماعيل على ، ١٩٩٥

٧٧ ـ **الحروب الصليبية ، جـ ٤ ،**
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشى ، ١٩٩٤

ـ **تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ ـ ١٨٩٩) ،**
نعمات أحمد عثمان ، ١٩٩٥

ـ **تاريخ الطرق الصوفية فى مصر ، فى القرن التاسع عشر ،**
تأليف : فريد دى يونج ، ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال ، ١٩٩٥

٨٠ ـ **قناة السويس والتنافس الاستعمار الأوربى (١٨٨٢ ـ ١٩٠٤) ،**
د. السيد حسين جلال ، ١٩٩٥

٨١ ـ **تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو الى نصر أكتوبر ،**
د. رمزى ميخائيل ، ١٩٩٥

٨٢ ـ **مصر فى فجر الاسلام ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية ،**
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٣ ـ **مذكراتي في نصف قرن ، ج ١ ،**
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٤ ـ **مذكراتي في نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،**
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥

٨٥ ـ **تاريخ الإذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ ـ ١٩٥٢) ،**
د· حلمي أحمد شلبي ، ١٩٩٥

٨٦ ـ **تاريخ التجارة المصرية في عصر الحرية الاقتصادية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤) ،**
د· أحمد الشربيني ، ١٩٩٥

٨٧ ـ **مذكرات اللورد كليرن ، ج ٢ ، (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦) ،**
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د· عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٥

٨٨ ـ **التذوق الموسيقي وتاريخ الموسيقى المصرية ،**
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٥

٨٩ ـ **تاريخ الموانيء المصرية في العصر العثماني ،**
د· عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥

٩٠ ـ **معاملة غير المسلمين في الدولة الاسلامية ،**
د· نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦

٩١ ـ **تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،**
تأليف : بيتر مانسفيلد ، ترجمة : عبد الحميد فهمي الجمال ، ١٩٩٦

٩٢ ـ **الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) ج ٢ ،**
نجوى كامل ، ١٩٩٦

٩٣ ـ **قضايا عربية في البرلمان المصري (١٩٢٤ ـ ١٩٥٨) ،**
د· نبيه بيومي عبد الله ، ١٩٩٦

٩٤ ـ **الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) ، ج ٢ ،**
د. سهير اسكندر ، ١٩٩٦

٩٥ ـ **مصر وأفريقيا .. الجذور التاريخية الأفريقية المعاصرة ،**
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة)
أعدها للنشر د. عبد العظيم رمضان

٩٦ ـ **عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ ـ ١٩٧٠) ،**
تأليف : مالكولوم كير ، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو

٩٧ ـ **العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ،**
د. ايمان محمد عبد المنعم عامر

٩٨ ـ **هيكل والسياسة الأسبوعية ،**
د. محمد سيد محمد

٩٩ ـ **تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى ـ الرومانى) ج ٢ ،**
د. سمير يحيى الجمال

١٠٠ ـ **موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،**
أ. د. عبد العزيز صالح ، أ. د. جمال مختار ، أ. د. محمد ابراهيم بكر ، أ. د. ابراهيم نصحى ، أ. د. فاروق القاضى ، أعدها للنشر : أ. د. عبد العظيم رمضان

١٠١ ـ **ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،**
اللواء / مصطفى عبد المجيد نصير ، اللواء / عبد الحميد كفافى ، اللواء/ سعد عبد الحفيظ ، السفير/ جمال منصور

١٠٢ ـ **المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢ ،**
د. تيسير أبو عرجة

١٠٣ ـ رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره ،
د. علي بركات
١٠٤ ـ تاريخ العمال الزراعيين في مصر (١٩١٤ ـ ١٩٥٢) ،
د. فاطمة علم الدين عبد الواحد
١٠٥ ـ السلطة السياسية في مصر وقضية الديمقراطية (١٨٠٥ ـ ١٩٨٧) .
د. أحمد فارس عبد المنعم
١٠٦ ـ الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية في ربع قرن ، ج ٢ ،
د. سليمان صـالح
١٠٧ ـ الأصولية الاسلامية في العصر الحديث ،
تأليف : دليب هيرو ، ترجمـة : عبد الحميد فهمي الجمال
١٠٨ ـ مصر للمصريين ، ج ٤ ،
سليم خليل النقاش
١٠٩ ـ مصر للمصريين ، ج ٥ ،
سليم خليل النقاش
١١٠ ـ مصادرة الأملاك في الدولة الاسـلامية (عصر سلاطين المماليك) ، ج ١ ،
د. البيومي اسماعيل الشربيني
١١١ ـ مصادرة الأملاك في الدولة الاسـلامية (عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ،
د. البيومي اسماعيل الشربيني
١١٢ ـ اسماعيل باشا صدقي ،
د. محمد محمد الجوادي
١١٣ ـ الزبير باشا ودوره في السودان (في عصر الحكم المصري) ،
د. اسماعيل عز الدين
١١٤ ـ دراسات اجتماعية في تاريخ مصر ،
أحمد رشـدي صالح

١١٥ ـ مذكراتي في نصف قرن ، ج ٣ ،
أحمد شفيق باشا
١١٦ ـ أديب اسحق (عاشق الحرية) ،
عـلاء الدين وحيـد
١١٧ ـ تاريخ القضـاء في مصر العثمانية (١٥١٧ ـ ١٧٩٨) ،
عبد الرازق ابراهيم عيسى
١١٨ ـ النظم المالية في مصر والشـام زمن سلاطين المماليك ،
د. البيومي اسماعيل
١١٩ ـ النقابات في مصر الرومانية ،
حسين محمد أحمد يوسف
١٢٠ ـ يوميات من التاريخ المصرى الحديث
لويس جرجس
١٢١ ـ معركة الجلاء ووحدة وادى النيل (١٩٤٥ ـ ١٩٥٤)
د. محمد عبد الحميد الحناوى
١٢٢ ـ مصر للمصريين جـ ٦
سليم خليل النقاش
١٢٣ ـ السيد أحمد البـدوى
د. سعيد عبد الفتاح عاشور
١٢٤ ـ العلاقات المصرية الباكستانية فى نصف قرن
د. محمد نعمان جلال
١٢٥ ـ مصر للمصريين جـ ٧
سليم خليل النقاش
١٢٦ ـ مصر للمصريين جـ ٨
سليم خليل النقاش
١٢٧ ـ مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ ـ ١٩٥٨)
ابراهيم محمد محمد ابراهيم
١٢٨ ـ معـارك صـحفية
جمـال بـدوى .

١٢٩ ـ الدين العـــام (وأثـــره فى تطـــور الديـن المصرى) (١٨٧٦ ـ ١٩٤٣)
د. يحيى محمد محمود
١٣٠ ـ تاريخ نقابات الفنانين فى مصر (١٩٨٧ ـ ١٩٩٧)
سمير فريد
١٣١ ـ الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ (١٩٥٢ ـ ١٩٥٨)
تاليف جايل ماير ، ترجمة عبد الرءوف أحمد عمر
١٣٢ ـ دار المندوب السامى فى مصر ج ١ ،
د. ماجدة محمد حمود
١٣٣ ـ دار المندوب السامى فى مصر ج ٢ (١٩١٤ ـ ١٩٢٤)
د. ماجدة محمد حمود
١٣٤ ـ الحملة الفرنسية على مصر فى ضوء مخطوط عثمانى
مخطوطة « ضيا نامة » للدار تدلى
بقلم/ عزت حسن أفندى الدار تدلى
ترجمة/ جمال سعيد عبد الغنى
١٣٥ ـ اليهود فى مصر المملـوكية فى ضـــوء وثائـق الجنيزة (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ /١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)
د. محاسن محمد الوقاد
١٣٦ ـ أوراق يوسف صديق
تقديم أ . د . عبد العظيم رمضان
١٣٧ ـ تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى
د . محمد عبد الغنى الأشقر
١٣٨ ـ الاخـوان المسلمون
وجذور التطرف الدينى والارهاب فى مصر ـ السيد يوسف
١٣٩ ـ موسوعة الغناء المصرى فى القرن العشرين
محمـــد قابيـــل

١٤٠ ـ **سياسة مصر فى البحر الأحمر** ·
فى النصف الأول من القـرن التـاسع عشر ـ طارق عبد العاطى غنيم ·
١٤١ ـ **وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك**
لطفى أحمد نصار ·
١٤٢ ـ **مذكراتى فى نصف قرن ج ٤**
أحمد شفيق باشا ·
١٤٣ ـ **دبلوماسية البطالمة فى القرنين الثانى والأول ق·م·**
د · منيرة محمد الهمشرى ·
١٤٤ ـ **كشوف مصر الأفريقية**
فى عهـد الخـديوى اسمـاعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) ـ
د· عبد العليم خلاف ·
١٤٥ ـ **النظام الادارى والاقتصادى فى مصر**
فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) ـ
د · منيرة محمد الهمشرى ·
١٤٦ ـ **المرأة فى العصر المملوكى**
د. احمد عبد الرازق
١٤٧ ـ **حسن البنا (متى ·· كيف ·· ولماذا ؟)**
د. رفعت السعيد
١٤٨ ـ **القديس مرقس وتاسيس كنيسة الاسكندرية**
تأليف / د. سمير فوزى
ترجمة / نسيم مجـلى
١٤٩ ـ **العلاقات المصرية الحجازية فى القرن الثامن عشر**
حسام محمد عبد المعطى
١٥٠ ـ **تاريخ الموسيقى المصرية اصولها وتطورها**
د · سمير يحيى الجمال

١٥١ ـ جمال الدين الأفغانى والثورة الشاملة
السيد يوسف
١٥٢ ـ الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية
(٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)
د . محاسن محمد الوقاد
١٥٣ ـ الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)
د . علية عبد السميع الجنزورى
١٥٤ ـ هجمات الروم البحرية على شواطىء مصر الاسلامية فى العصور الوسطى
د . علية عبد السميع الجنزورى
١٥٥ ـ عصر محمد على ونهضة مصر فى القرن التاسع عشر ١٨٠٥ ـ ١٨٨٣
د . عبد الحميد البطريق
١٥٦ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، الجزء الثالث فى العصر الاسلامى
د . سمير يحيى الجمال
١٥٧ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، الجزء الرابع فى العصر الاسلامى والحديث
د . سمير يحيى الجمال
١٥٨ ـ نائب السلطنة المملوكية فى مصر (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)
د . محمد عبد الغنى الأشقر
١٥٩ ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢ م) الجزء الأول
د . محمد فريد حشيش
١٦٠ ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢ م) الجزء الثانى
د . محمد فريد حشيش

١٦١ ـ السيف والنار فى السودان تأليف سلاطين باشا
١٦٢ ـ السياسة المصرية تجاه السودان
(١٩٣٦ ـ ١٩٥٣)
د . تمام همام تمام
١٦٣ ـ مصر والحملة الفرنسية
المستشار/ محمد سعيد العشماوى
١٦٤ ـ الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ
(اعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة « ٢٠ ـ ٢١ ديسمبر ١٩٩٧ ») اعداد / د. عبد العظيم رمضان .
١٦٥ ـ التعليم والتغير الاجتماعى فى مصر فى القرن التاسع عشر
سامى سليمان محمد السهم
١٦٦ ـ مذكرات معتقل سياسى
صفحة من تاريخ مصر
السيد يوسف

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٥٨٠٧/١٩٩٩
ISBN — 977 — 01 — 6526 — 3